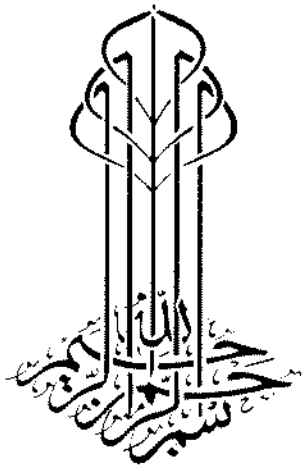

بداية الوصول
بلب
صحيح الأمهات والأصول

جمع

عبد الله عبد القادر التليدي
عفا الله تعالى عنه

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾

المجلد الثامن
كتاب التاريخ
بدء الخلق، والأنبياء

دار ابن حزم

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ISBN 9953-81-269-1

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

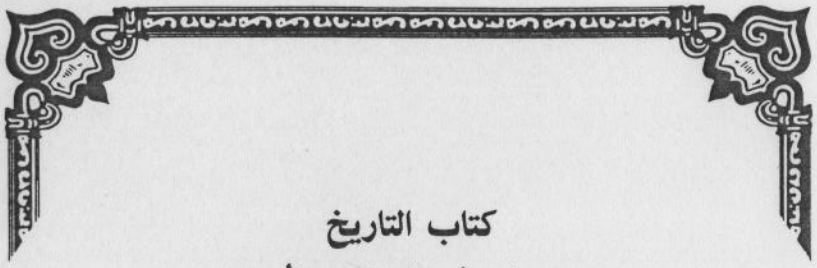

كتاب التاريخ
ويشمل بَدءَ الخلقِ والأنبياء
والسيرة النبوية والمَناقب والفضائل

الله خالق كل شيء
خلق الماء والعرش والقلم والسماء والأرض...

{٤٣٧} - عن عِمران بن حُصَيْن رضي الله تعالى عنه قال: دخلتُ على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعقَلْتُ ناقتي بالباب، فأتاه ناسٌ من بني تميم، فقال: **«اقبَلُوا البُشْرَى يا بني تميم»**، قالوا: قد بشَّرتنا فأعْطِنا، مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: **«اقْبَلُوا البشرى يا أهل اليَمَن إذْ لم يقبلها بنو تميم»**، قالوا: قد قَبِلْنا يا رسول الله، قالوا: جئنا نسألك عن هذا الأمر، قال: **«كان الله ولم يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وكان عرشُه على الماء، وكتب في الذكر كُلّ شيء، وخلق السمٰواتِ والأرضَ»**.

رواه أحمد (٤/٤٣٢، ٤٣٣)، والبخاري في بدء الخلق (٧/٩٧، ٩٨، ٩٩) وفي المغازي (٩/١٤٦) وفي التوحيد (١٧/١٨١)، والترمذي في المناقب (٣٦١٢) آخر الجامع.

قوله: «هذا الأمر» أي: شأن هذا العالم وما فيه.

في الحديث أمور أربعة:

أولاً: قوله: «كان الله ولم يكن شيء غيره» في رواية للبخاري في

التوحيد: «ولم يكن شيء قبله» وهما يدلاّن على أنه تعالى لم يكن معه سواه، فهو الأول وحده قبل كل شيء، وقد ضلّ من الفلاسفة ومقلّديهم من زعم أنه كانت حوادث مع الله لا أوّل لها، فمن المعتقدات الإسلامية القطعية في جانب الله عزّ وجلّ أنه الأول قبل كل شيء بلا بداية، والآخر بلا نهاية، وما عداه كلّه مخلوق محدث لم يكن ثم أوجده الله، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

ثانياً: قوله: «وكان عرشه على الماء»، فيه أن الماء خلق قبل العرش، والعرش أعظم خلق خلقه الله عزّ وجلّ، وهو سقف العالم خلق بعد الماء.

ثالثاً: قوله: «وكتب في الذكر كل شيء»، الذكر هو اللوح المحفوظ، ومعناه أن الله عزّ وجلّ كتب فيه كل ما وقع وسيقع مما لا نهاية له.

رابعاً: قوله: «وخلق السمٰوات والأرض»، فيه أن خلقهن كان بعد العرش واللوح والقلم، وكيفية خلقهن ذكرها الله تعالى في سورة فصلت وسورة عمّ يتساءلون، فقال في الأولى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ الآية.

فذكر أنه خلق الأرض في يومين أولاً ثم استوى إلى السماء أي: قصد فخلقهن سبع سمٰوات في يومين، ثم جعل على الأرض جبالها راسيات لها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين، فكان جملتها أربعة أيام. وقال في السورة الثانية مُفصلاً: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣﴾...

وخلاصة ذلك أنه تعالى خلق أولاً الأرض جملة في يومين ودَحاها في يومين، فكان خلقها جملة وتفصيلاً في أربعة أيام، وخلق السمٰوات

جملة واحدة في يومين، فيكون الجميع ستة أيام، وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾.

{٤٣٨} ـ وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«إنّ أول ما خلق الله القلمَ، فقال له: اكْتُبْ، قال: ما أَكْتُبُ؟ قال: اكْتُبْ القَدَرَ ما كان وما هُو كائنٌ إلى الأَبَد»**.

رواه أحمد (٣١٧/٥)، وأبو داود في السنّة (٤٧٠٠)، والترمذي في القدر (١٩٨٦) وحسنه وصححه، ورواه الحاكم (٤٩٨/٢) من حديث ابن عباس وصححه ووافقه الذهبي.

القَدَر ـ بفتحتين ـ سبق الكلام عليه في باب القدر في الجزء الأول رقم (٢٢٠).

وقوله: «إن أول ما خلق الله القلم» ظاهره يقتضي أن القلم هو أول ما خلق إطلاقاً، وأنه قبل خلق العرش، وبه قال ابن جرير الطبري والجمهور على أن أول ما خلق الله الماء ثم العرش ثم القلم واللّوح المحفوظ ثم الأرض ثم السماء، ويؤول قوله هنا: «إن أول» يعني بعد الماء والعرش، فتكون الأولية نسبية، ويزيد هذا وضوحاً الحديث التالي، وهو:

{٤٣٩} ـ وعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«كتبَ الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يَخْلُق السمٰواتِ والأرضَ بخمسين ألفَ سنة»**، قال: **«وعرشه على الماء»**.

رواه أحمد (١٦٩/٢)، ومسلم (٢٠٣/١٦)، والترمذي (١٩٨٧) كلاهما في القدر.

فالحديث دالّ على أن الماء والعرش كانا موجودين قبل كتابة المقادير، كما أنه يدلّ على أن خلق السمٰوات والأرضين كان بعد كتابة

المقادير بآلاف السنين، وهي خمسون ألف سنة وهي مدة طويلة ولا ندري حكمة تأخيرها.

* * *

خلق الزمان والسّنين والأشهُر والليل والنهار

{٤٤٠} ـ عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنَّ الزَّمانَ قد استدار كهَيئَتِهِ يوم خلقَ السمٰواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشر شهراً، منها أربعةٌ حُرُمٌ، ثلاثةٌ متواليات: ذو القَعْدة، وذو الحِجَّة، والمُحَرَّم، ورجَبُ مُضَرَ، الذي بين جُمادى وشعبان**».

رواه أحمد (٣٧/٥، ٧٣)، والبخاري في بدء الخلق (١٠٤/٧) وفي التفسير (٣٩٤/٩)، ومسلم في القسامة (١٦٧/١١، ١٧٠) مطوّلاً في خطبته في حجة الوداع، ويأتي في السيرة بطوله.

في الحديث الشريف إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ الآية.

والحديث كالآية يدلاّن على أن الله عزّ وجلّ خلق الزمان وهو الوقت قليله وكثيره مع السمٰوات والأرضين، وأنه جعل فيه السنين والشهور، فالسنة فيها اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، فالزمان مخلوق وينشأُ عن سير الشمس والقمر اللذين خلقهما الله هما الآخران يوم خلق السماء، وقد تقدم معنى استدارة الزمان في التفسير، وتأتي بقيّة مباحثه في السيرة.

{٤٤١} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قال الله عزّ وجلّ: يُؤْذِيني ابنُ آدم يَسُبُّ الدَّهر وَأَنَا الدَّهر بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيل والنهار**».

رواه أحمد (٣٣٠/٢)، والبخاري في سورة الجاثية (١٩٦/١٠)، ومسلم بألفاظ في الأدب (٢/١٥، ٣)، وأبو داود (٥٢٧٤) آخر الكتاب.

الدهر: زمانٌ جُعِلَ ظرفاً لمواقع الأُمور، وكان العرب إذا أصابهم مكروه نسبوه للدهر وسبوه، فجاء الإسلام بالنهي عن سبّه، فإنه مخلوق لله عزّ وجلّ يدبره ويقلب ليله ونهاره، ومن سبّه فكأنما سبّ الله خالقه، وكان قد آذى الله تعالى، وانظر ما سبق في التفسير وما يأتي في الأدب.

* * *

خلق الجبال والحديد والنار والماء والريح

{٤٤٢} ـ عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لمّا خلق الله عزّ وجلّ الأرضَ جَعَلتْ تَميدُ فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرّت، فتعجَّبت الملائكةُ من خلق الجبال، فقالت: يا رب هل من خلقك شيء أشدّ من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالت: يا ربّ هل من خلقك شيء أشدُّ من الحديد؟ قال: نعم النار، قالت: يا رب هل من خلقك شيء أشدّ من النار؟ قال: نعم الماء، قالت: يا رب هل من خلقك شيء أشدّ من الماء؟ قال: نعم الرّيح، قالت: يا ربّ هل من خلقك شيء أشدّ من الريح؟ قال: نعم، ابنُ آدم يَتصدَّق بيمينه يُخفِيها من شماله**».

رواه أحمد (١٢٤/٣)، والترمذي آخر التفسير (٣١٤٩) وسنده حسن على مذهب جماعة، ولذا حسّنه الحافظ ابن حجر.

الحديث يدلّ على أنَّ هذه الأشياء كلها مخلوقة لله عزَّ وجلَّ خلقها يوم خلق السموات والأرض، وفيه دليل على أن المخلوقات تتفاضل في الشدّة.

* * *

خلق الجنّة والنار

{٤٤٣} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن مع رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في صُفُوفِنا في الصلاة، صلاةِ الظهر أو العصر، فإذا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يتناولُ شيئاً ثم تأخّر فتأخر الناس، فلما قضى الصلاة قال أُبَيُّ بن كَعْب: شيئاً صنعتَه في الصلاة لم تكن تصنعه؟ قال: «**عُرِضَتْ عليَّ الجنَّةُ بما فيها من الزهرة والنَّضرة، فتناولتُ منها قِطْفاً من عنب لآتِيَكُم به، فحِيل بيني وبينه، ولو أتيتكُم به لأكل منه مَن بين السماء والأرض لا ينقُصُونه شيئاً، ثم عُرِضَتْ عليَّ النار فلمّا وجدت سَفْعَها تأخَّرتُ عنها، وأكثر من رأيت فيها النساء اللاتي إن ائتُمِنَّ أفْشَينَ، وأن يُسْأَلْنَ بَخِلْنَ، وإن يَسْأَلْنَ أَلْحَفْنَ، وإن أُعْطَينَ لم يَشْكُرْنَ، ورأيت فيها عَمْرو بن لُحَيّ، وأشبه ما رأيت به معبد بن أكثَم الكَعْبِيّ**»، قال: يا رسول الله أيُخْشَى عليَّ من شَبَهِهِ وهو والد؟ فقال: «**لا، أنت مؤمن وهو كافر، وكان أول من حمَل العرب على عبادة الأوثان**».

رواه أحمد (٣/٣٥٢، ٣٥٣) بسند حسن وهو صحيح لشواهده في الصحيحين وغيرهما.

قوله: «قِطْفاً» ـ بكسر القاف وسكون الطاء ـ هو العنقود، وقوله: «سفعَها» ـ بفتح السين وسكون الفاء بعدها عين ـ وسفع النار هي علامة تغيّر اللّون إلى السواد، والمراد أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خشي سفعها لو أصابته، وقوله: أَلْحَفْنَ من الإلحاف وهو الإلحاح والمبالغة في السؤال، وقوله: عَمْرو بن لحي هو بضمّ اللام وفتح الحاء، وكان من رؤساء خزاعة الذين ولو البيت بعد جُرْهُم، وهو أول من غيّر دين إبراهيم وأدخل الأصنام للحجاز ودعا لعبادتها، ويأتي الكلام عليه في السيرة.

والحديث يدلّ على أن الجنّة والنار مخلوقتان مهيّأتان لأصحابهما، وفي ذلك أحاديث كثيرة تأتي في الرقائق، ويأتي بعضها هنا، ورغم ذلك فقد أنكر المعتزلة خلقهما، ولله في خلقه شؤون. وفي الحديث بيان الصفات السافلة التي توجب للنساء دخول النار، ويأتي موضع ذلك في الرقائق.

{٤٤٤} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تَحاجَّتِ النَّارُ والجنَّةُ، فقالت النار:**

أُوثِرْتُ بالمتكبّرين والمُتَجَبِّرين، وقالت الجنّة: فما لي لا يدخلني إلا ضُعفاء الناس وسَقَطُهُم وعَجَزَهُم، فقال الله عزّ وجلّ للجنّة: أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أُعَذِّب بكِ من أشاء من عبادي، ولكلّ واحدةٍ منكما مِلْؤُهَا، فأما النار فلا تَمْتَلِئُ حتى يضعَ الله تعالى قدمَهُ عليها، فتقول: قَطِ، قَطِ، فهنالك تمتلىء، وينزوي بعضها إلى بعض، فلا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنّة فإن الله تعالى ينشىء لها خلقاً».

رواه أحمد (٢/٣١٤)، والبخاري في التفسير (١٠/٢١٩)، ومسلم (١٧/١٨٢) ونحوه عن أنس عندهم باختصار، وقد سبق في التفسير.

وقوله: قط ـ بفتح القاف وسكون الطاء أو كسرها ـ أي: حسبي، وقوله: تحاجت أي: تخاصمت، وقوله: والمتجبرين هم المتكبّرون، وقوله: سقطهم ـ بفتحتين ـ أي: الساقطون من أعين الناس المحتقرون، وقوله: وينزوي أي: يجتمع.

والحديث يدلّ على أن الجنّة والنار موجودتان مخلوقتان كما سبق، فإن قوله: تحاجت الجنّة والنار، وقول النار: قط قط، لا يكون إلا من مخلوق موجود. أما كلامهما وهما من الجمادات فهذا من شؤون ربنا لا دخل لنا فيه، فَحَسْبُنَا الإيمان بما جاء عنه عزّ وجلّ أوجاء عن رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

{٤٤٥} ـ وعنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لما خلق الله الجنّة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: أي رب وعِزَّتك لا يسمع بها أحدٌ إلاّ دخلها، ثم حفَّها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها ثم جاء فقال: أيّ رب وعزّتك لقد خشيتُ أن لا يَدخلَها أحدٌ، فلما خلق الله النار قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزّتك لا يَسمعُ بها أحدٌ فيدخلها، فحفَّها بالشهوات، ثم قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: أي ربّ وعزّتك لقد خشيت أن لا يبقى أحدٌ إلا دخلها**».

رواه أحمد (٣٣٢/٢، ٣٣٣)، وأبو داود في السنّة (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٣٧٧)، والنسائي في الكبرى (١٢١/٣)، والحاكم (٣٧/١) وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: وعزّتك أي: وحقّ قوتك وعظمتك، وقوله: «حفها بالمكاره» أي: أحاطها بما تكرهه النفوس من الأوامر والنواهي والتكاليف، وقوله: بالشهوات، أي: أحاطها بكل ما تشتهيه الأنفس وأغلب المشتهيات محرمات.

والحديث كسابقيه في خلق الجنّة والنار وأنهما مهيأتان بما فيهما لأصحابها. أما الكلام عليهما وعلى ما فيهما ودخولهما فيأتي في الرقائق التي هي خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

خلق الملائكة والجان وآدم

{٤٤٦} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**خُلِقَتْ الملائِكَةُ من نُور، وخُلِقَ الجانُّ مِن مَارِجٍ مِن نار، وخُلِقَ آدمُ عليه السلام مما وُصِف لكم**».

رواه أحمد (١٥٣/٦، ١٦٨)، ومسلم في الزهد (١٢٣/١٨).

قوله: الجان يعني الجن ـ بكسر الجيم ـ قيل: هو جنس كان الشيطان إبليس منهم، وقيل: هو إبليس نفسه، والصحيح أن إبليس من الجنّ، وقوله: من مارج من نار، أي: من نار مُخْتَلِطَة بهواء مشتعل، فالمارج هو لهب النار المختلط بسواد النار، فمن هذا خلق الجان.

وفي الحديث بيان خَلْق الأجناس الثلاثة المكلّفة من قبل الله عزّ وجلّ وأصلها، وأنها مخلوقة محدثة.

أما الملائكة عليهم الصلاة والسلام فقد خلقهم الله عزّ وجلّ من النور، فهم أرواح نورانية خلقوا على صفات شتّى وأعطاهم الله عزّ وجلّ

التشكّل على أي صفة شاءوا، فقد يتمثّلون في صفات بني آدم أو على صور طيور... وهم خلق لا يوصفون لا بذكورة ولا أنوثة، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يحدثون ولا يموتون حتى آخر الدنيا، مطهّرون مفطورون على الخير وعبادة الله تعالى وطاعته ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، وهم جنود مجندة لا يحصون كثرة، فيهم الراكع وفيهم الساجد وفيهم القائم وفيهم المكلّفون بالجنّة والمكلّفون بالنار، وفيهم حملة العرش، وفيهم سكان السمٰوات، وفيهم المكلّفون بحفظ بني آدم، وفيهم كتبة أعمالهم، وفيهم ملائكة الأرحام، والملائكة السيّاحون يبتغون حلق الذكر، وفيهم ملك السحاب، وملك الجبال، وملك الريح، وفيهم ملك الموت وأعوانه، وفيهم فتّان القبر، وفيهم وفيهم ممّن تقدم ويأتي.

ولعظمتهم وعظمة ما يقومون به في هذا العالم وغيره كان الإيمان بهم من مقتضيات الإيمان وكلّياته الستّة، فمن أنكر وجودهم لم يكن مؤمناً، ولنذكر بعض من وردت بهم وبصفاتهم النصوص.

{٤٤٧} ـ عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه «**أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأى جبريل عليه السلام وله سِتُّمائَةِ جَنَاحٍ كُلُّ مِنها قد سَدَّ الأُفُق يَسْقُطُ مِن جَنَاحِهِ من التَّهَاوِيلِ والدُّرُّ والياقُوتُ ما اللهُ أعلمُ به**».

رواه أحمد (٣٧٨٠) واللفظ له والبخاري في التفسير (٢٣٣/١٠، ٢٣٤)، ومسلم في الإيمان (١٧٤)، والترمذي (٣٠٦١)، والنسائي في الكبرى (٤٧٢/٦) كلاهما في التفسير.

قوله: سدّ الأفق أي: ملأ الجهة، وقوله: التهاويل أي: الأشياء المختلفة المزين بها، وفي الحديث عظمة هذا الملك الكريم الذي جعله الله عزّ وجلّ رئيس ملائكته والسفير بينه وبين رسله صلوات الله وسلامه عليهم، فعظمة خلقته مدهشة، وقد جاءت بذكره أحاديث جمّة مفرّقة في كثير من الكتب والأبواب.

{٤٤٨} ـ وعن سمرة قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم:

«رأيت الليلة رجلين أتَيَاني قالا: الذي يوقد النار مالك خازن النار، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل».

رواه البخاري في بدء الخلق (١٢٥/٧) وفي الجنائز وفي التعبير مطولاً، وقد تقدم في الرؤيا مخرجاً مشروحاً والمراد هنا هو ذكر مالك خازن النار، وجبريل وميكائيل، والثلاثة مذكورون في القرآن الكريم.

{٤٤٩} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ مِن ملائِكة الله مِن حَمَلَةِ العَرش: إنَّ ما بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إلى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعمِائة عام».**

رواه أبو داود في السنة (٤٧٢٧)، والطبراني في الأوسط (٤٤١٨، ١٧٣٠) بسند صحيح، هذا خلق مدهش يدلّ على عظمة هذا الملك، وبالتالي عظمة العرش، فكيف بخالق العالم ومدبّره سبحانه عزّ وجلّ، وهذا ملك واحد من حملة العرش، وقد ورد أن حملته اليوم أربعة أملاك ويوم القيامة ثمانية، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾، وقوله: **«ما بين شَحْمَةِ أُذُنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»**، فإذا كان ما بين هذين الموضعين مسافة سبعمائة عام، فكيف تكون مسافة طول هذا الملك العظيم وعرضه يا ترى؟ سبحانك ربنا ما أعظم شأنك.

{٤٥٠} ـ وعن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إنِّي أَرَى ما لا تَرَوْن، وَأَسْمَعُ ما لاَ تَسْمَعُون، أَطَّتْ السَّماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، مَا فِيها مَوْضعُ أربع أصابعَ إلاَّ وملَكٌ واضعٌ جَبْهته لله ساجداً، والله لو تَعْلَمُون ما أعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَليلاً ولَبَكَيتُمْ كثيراً، وما تَلَذَّذْتُم بالنساء على الفُرُشِ ولخرجتم إلى الصُّعُدات تَجْأَرُون إلى الله تعالى».**

رواه أحمد (١٧٣/٥)، والترمذي في الزهد (٣١٣٤)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٥١٠/٢) و(٥٤٤/٤، ٥٧٩) وسنده صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وله شواهد ذكرت في غير هذا الموضع.

قوله: «أطّت» أي: صوّتت، «وحقّ لها أن تئطّ» أي: يحقّ لها أن

تصوّت كصوت بردعة البغال من الثقل، وقوله: «الصعدات» جمع صعد بضمّتين، والمراد بها البراري والقفار، وقوله: «تجأرون» أي: تتضرّعون. والحديث يدلّ على امتلاء السماء بالملائكة حتى ثقلت بهم بحيث صدر منها أطيط كأطيط أحمال البهائم من ثقلهم، وأنه ما من موضع أربع أصابع إلاّ وفيه ملك ساجد لله عزّ وجلّ، وهذا نهاية في الكثرة، ويُقال مثل ذلك في أرضنا، وفيما لا نعلمه من عوالم أخرى. وباقي أبحاث الحديث تأتي في الزهد إن شاء الله تعالى.

وقد تقدم ذكر الملائكة في كثير من الأبواب، ويأتي لها ذكر في مواضع إن شاء الله تعالى.

* * *

ذكر الجنّ وإبليس

تقدم حديث: **«وخُلِقَ الجَانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ».**

وفي القرآن الكريم: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾، وفيه: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

{٤٥١} ـ وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن إبليسَ يضعُ عَرْشَه على الماء ثم يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فأدناهُم منه منزلةً أعظمُهم فِتنةً، يجيء أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركتُه حتَّى فرَّقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيُدنيه منه، ويقول: نعم أنت فيَلْتَزِمُه».**

رواه أحمد (٣١٤/٣)، ومسلم في صفة القيامة (١٥٧/١٧).

إبليس من الإبلاس وهو اليأس، سمّي بذلك ليأسه من رحمة الله تعالى، وهو صاحب القصة مع سيدنا آدم عليه السلام والذي جعل عدواً للإنسانية مغوياً لها. قال البغوي: كان اسمه عزازيل بالسريانية، وبالعربية

الحارث، فلما عصَى غيّر اسمه وصورته، فقيل: إبليس لأنه أبلس من رحمة الله أي: يئس.

قوله: عرشه أي سرير ملكه إما ذلك حقيقة أو تمثيلاً، بمعنى أن مركزه البحر، فمنه يرسل سراياه الفاتنين، وقوله: فيدنيه أي: يقربه منه، وقوله: نعم أنت، معناه أنت الذي تستحق المدح والدنوّ مني، وقوله: يلتزمه أي: يضمّه إلى صدره فرحاً وسروراً بما فعله.

والحديث يدلّ على أن مركز الشيطان إبليس؛ هو البحر ففيه مسكنه وبه مقرّه، ولا يبعد أن يكون هو الموضع الذي اكتشف مؤخراً بجنوب أمريكا في الموضع المسمّى عندهم بمثلث «برمودا»، يعنون مثلّث الشيطان الذي عُرف بأن كل باخرة أو طائرة مرّت به فقدت ولا يعرف لها أثر، فيكون ذلك من فعل الشياطين الذين هم هنالك مجتمعون على إبليس، فالله أعلم.

كما أن الحديث يدلّ على أن إبليس اللعين يبعث جنوده وأعوانه وذرّيته إلى الآفاق لإغواء بني آدم وافتتانهم وإلقاء البغضاء والشرور بينهم، وقد ابتلى الإنسان بهذا الجنس المقيت، وسلّط عليه امتحاناً من الله عزّ وجلّ، فما من جريمة ومعصية وإفساد في الأرض إلا بإغواء الشيطان وجنوده وأعوانه، والله المستعان عليه.

{٤٥٢} ـ وعن جابر أيضاً قال: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«إنّ الشَّيطانَ قَدْ أيِس أن يَعْبُدَه المُصَلُّون في جَزِيرَةِ العرب، ولٰكِنْ في التَّحرِيشِ بَيْنَهُم»**.

رواه أحمد (٣/٣٥٤)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٥٦)، والترمذي في البرّ والصلة (١٧٨٣).

أيس أي: قنط، ولكن في التحريش أي: الإغراء والتحريض على الخصومات...

وفي الحديث أن الشيطان أيس من أن يرجع الناس المسلمون إلى عبادة غير الله في جزيرة العرب، وهذه بشارة منه صلّى الله تعالى عليه وآله

وسلم لمسلمي الحجاز ونحوهم بأنهم لا يزالون على الإيمان ولا يعبدون إلا الله عزّ وجلّ، ولما أيس من هذا الجانب توجّه بخيله ورجله إلى إغرائهم وتحريضهم على الخصومات والتقاتل وتسليط بعضهم على بعض، فاكتفى عدوّ الله بذلك وقنع بما يوقعه بينهم.

{٤٥٣} ـ وعن أبي ثَعْلَبَة الخُشَنِي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقولُ: **«الجِنُّ على ثلاثةِ أصْنَافٍ: صِنْفٌ كِلابٌ وحَيّاتٌ، وصنفٌ يَطِيرُون في الهَواء، وصِنْفٌ يَحُلُّون ويَظْعَنُون»**.

رواه ابن حبان (١٤/٢٦)، والحاكم (٢/٤٥٦)، والطحاوي في المشكل (٤/٩٥، ٩٦)، والطبراني في الكبير (٢٢/٥٧٣)، وأبو نعيم في الحلية (٥/١٣٧) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

في الحديث أن الجنّ خلقوا على أصناف: منهم من هو على صفات الكلاب، وخاصة السود منهم كما جاء به النص: «... **الأسود شيطان**»، وفيهم حيات، وجاءت بهم أحاديث منها حديث الرجل الذي قتل حيّة على فراشه ثم مات عقبها، وهو في سنن أبي داود وغيره، وسيأتي بعض ذلك في الأدب، وفيهم سكان السماء، وفيهم العفاريت والزوابع، وفيهم السباع والهوام والحشرات كما هو واقع، وفيهم سكان أجسام بني آدم، وفيهم عجائب العجائب، وأعطاهم الله قدرة عظيمة. واقرأ قصتهم مع نبيّ الله سليمان عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام، وبالجملة فهذا جنس مخلوق موجود يعيش معنا في هذا العالم يأكلون ويشربون ويتناسلون، وهم أرواح شريرة خبيثة يتشكّلون على صفات، وفيهم الكافر والمؤمن، مكلّفون كالإنس ويثابون ويعاقبون كما نطق بذلك القرآن الكريم، ولذلك كان الإيمان بوجودهم واجباً لأن وجودهم وخلقهم صريح القرآن والسنّة المتواترة، وقد سمّيت في القرآن سورة باسمهم وأخبرت عن مؤمنهم وكافرهم، والعجب ممن ينكر وجودهم ممن ينتمي للإسلام مغتراً بمذهب فلاسفة الكفار ومن يقول بقولهم من الأطباء، وذلك يدلّ على جهلهم وغباوتهم.

وحديث ابن عباس المتقدم في التفسير يدلّ على أن الجنّ نوع واحد، ومن أصل واحد، كما هو ظاهر القرآن أيضاً، غير أن العلماء فرّقوا بينهم باجتهاد منهم، فقالوا: من بقي على أصله كافراً سمّي شيطاناً، ومن أسلم قيل له: جِنّي. أفاده الحافظ في الفتح. وفيه نظر لأن القرآن أطلق الجنّ والجان عليهم مطلقاً، وبذلك جاءت الأحاديث النبويّة وتقدم الكثير منها، كما تأتي أحاديث في ذكرهم في موضوعات لاحقة، وقد ألّف الناس فيهم قديماً وحديثاً.

* * *

خلق آدم عليه السلام

{٤٥٤} ـ عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**إنّ الله تباركَ وتعالى خَلَق آدمَ مِن قَبْضَةٍ قَبَضَها مِن جَميع الأَرْضِ، فجاءَ بَنُو آدم على قَدْرِ الأرض، منهم الأحمرُ، والأبيضُ، والأسودُ، وبَيْن ذلك، والسّهلُ، والحَزْنُ، والخبيثُ والطَّيّبُ**».

رواه أحمد (٤٠٦/٤)، وأبو داود في السنّة (٤٦٩٣)، والترمذي في التفسير (٢٧٦٣) بتهذيبي، وابن حبان بالإحسان (٦١٦١، ٦١٨١)، والحاكم (٢٦١/٢، ٢٦٢) وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: قبضة هي ملىء الكف، وهي بالنسبة لله صفة له لا نعلمها، والحَزْن ـ بفتح الحاء وسكون الزاي ـ هو الغليظ الصعب.

والحديث يدلّ على أن الله عزّ وجلّ خلق أبانا آدم عليه الصلاة والسلام من جميع أنواع الأرض ومعادنها، ولذلك جاء أولاده على صفات الأرض فيهم أبيض اللون وفيهم أسوده، وفيهم أحمره وأصفره إلى غير ذلك من ألوانها، وفي القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾، وفيه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ

ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

وإجماع أهل الملل والكتب الإلٰهيّة أنه خلق من الأرض، وأنه أبو البشريّة وأنه الذي كان في الجنّة وسجدت له الملائكة وأبى من ذلك إبليس وكانت أطوار خلقته على مراحل، فكان من تراب ثم من حمإ مسنون، أي: متغيّر الريح، ثم من طين لازب أي: يلزق باليد، ثم من صلصال كالفخار، ثم ألقيت فيه الروح وكلّها في القرآن الكريم.

وفي الحديث أن طباع بني آدم وأخلاقهم جاءت طبق أصلهم من الأرض، فكما أن الأرض فيها الغليظ والصعب والقاسي كذلك بنو آدم، وكما أن فيها السهل والرخو واللين، كذلك الإنسان، كما أن فيها الخبيث المنتن القذر، كذا البشر فيه الخبيث أخلاقاً، والمنتن أجساماً وهكذا. فهذا أصل خلق هذا الأنواع الثلاثة الحيّة المُكَلَّفة: الملائكة، الجان، آدم... وستأتي أحاديث في آدم عليه السلام حيث يذكر في الأنبياء.

* * *

الخلق العام للمخلوقات الحية وغيرها

{٤٥٥} ـ عن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه قال: قام فينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مَقَاماً فأخْبَرَنا عن بَدْءِ الخَلْقِ حتى دخلَ أهلُ الجنّة منازلَهم، وأهلُ النار منازلَهم، حَفِظَ ذلك مَنْ حَفِظَهُ، ونَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ.

رواه البخاري في بدء الخلق (١٠٠/٧) باب ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

في الحديث إخباره صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أصحابه بكل ما خلق الله عزّ وجل وسيخلق من البداية إلى النهاية، وهذا طبعاً من جملة معجزاته صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لأن إخباره بكل ما خلق وسيخلق

يقتضي وقتاً طويلاً، ومعنى قوله: فأخبرنا... حتى دخل أهل الجنّة الخ، أي: أخبرنا عن مبتدأ الخلق شيئاً بعد شيء إلى أن انتهى الإخبار عن حال الاستقرار في الجنّة والنار.

{٤٥٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أخذ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيدي فقال: «**خلق الله التربةَ يومَ السَّبت، وخلقَ فيها الجبالَ يومَ الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المَكْروه يوم الثُلاثاء، وخلق النُّور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدّوابّ يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة في آخر الخلق وآخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل**».

رواه أحمد (٣٢٧/٢)، ومسلم في صفة القيامة (١٣٣/١٧)، والنسائي في التفسير من الكبرى (٢٩٣/٦)، وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم كما قاله غير واحد، وتكلّم فيه من القدامى البخاري وشيخه علي بن المديني رحمهما الله تعالى وأعَلَّهُ كثير من الحفاظ حتى قال ابن حزم: إنه موضوع، وذلك لمعارضته للقرآن الكريم الذي يخبر بأنه تعالى خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام بينما الحديث فيه سبعة أيام في الأرض وحدها، وقد تقدم أن الله خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام وهو صريح القرآن. وقال من أعَلَّهُ إنه اشتبه على بعض الرواة حيث رفعه عن أبي هريرة والحالة أنه رواه عن كعب الأحبار، وصححه آخرون، ومنهم مسلم ومن تبعه وصححه من المتأخرين الشوكاني، ومن المعاصرين الشيخ ناصر الدين الألباني، وأجابوا عن إشكاله بأن الحديث إنما بين أن الله عزّ وجلّ خلق ما في الأرض في سبعة أيام، وذلك خارج عما في الآية. قلت: وقد علمت أن الله خلق الأرض بما لها وعليها في أربعة أيام. وعلى أيٍّ فالحديث لا يجزم بصحة رفعه والله تعالى أعلم.

وهو على كل حال يدلّ على أن خلق الأرض وما فيها وما عليها كان مفصّلاً في سبعة أيام، وهذه المخلوقات هي الجبال، والأشجار، والمكروه وهو الشر، والنور والخير، ودواب الأرض وتشمل الأنعام، والخيل والبغال

والحمير والكلاب والقطط وكل الحيوانات المفترسة وغيرها من ذوات الأربع والرجلين، والزواحف والطيور والهوام إلى غير ذلك من المخلوقات، وكل هذه المخلوقات أنْشَأَها الله عزّ وجلّ وأوجدها قبل أبينا سيدنا آدم عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام، وكان آخر المخلوقات كلها خلقاً.

❊ ❊ ❊

الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ

{٤٥٧} ـ عن أبي هُرَيرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الأَرْوَاح جُنودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تَعَارَفَ مِنْها ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنها اخْتَلَف**».

رواه أحمد (٢٩٥/٢، ٥٢٧)، ومسلم في البرّ والصلة (١٨٥/١٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٠١)، وأبو داود في الأدب (٤٨٣٤)، وعلّقه البخاري عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها في الأنبياء (١٧٩/٧) وغيرهم.

الأرواح جمع روح وهي ما به قوام الجسد الحيّ، ولا يعلم حقيقتها إلا الله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، وهي مخلوقة قبل الأجسام.

وقوله: «جنود مجنّدة» معناه جموع مجتمعة أو أنواع مختلفة، وقوله: «فما تعارف منها ائتلف» الخ، قال الخطابي: يحتمل أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل في الخير والشرّ، والصلاح والفساد، وأن الخَيِّرَ من الناس يحنّ إلى شكله، والشرّير نظير ذلك يميل إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر، فإذا اتّفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت، ويحتمل أن يراد الإخبار عن بدء الخلق في حال الغيب على ما جاء أن الأرواح خلقت قبل الأجسام، وكانت تلتقي فتتشاءم، فلما حلّت بالأجسام تعارفت بالأمر الأول، فصار تعارفها وتناكرها على ما سبق

من العهد القديم، وقيل غير هذا، وما ذكر هو الظاهر من معنى الحديث، والله أعلم.

{٤٥٨} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أخذ الله تبارك وتعالى الميثاقَ مِن ظَهرِ آدم بنَعْمان** ـ يعني عرفة ـ **فأخرج من صُلْبه كلّ ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذرّ، ثم كلمهم قُبُلاً قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كنّا عن هذا غافلين**» الآية.

رواه أحمد (٢٧٢/١، ٢٥١، ٢٩٩، ٣٧١)، والنسائي في الكبرى (٥٠٦/٦)، والحاكم (٢٧/١) و(٥٤٤/٣) وسنده صحيح على شرط مسلم وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ونحوه عن أُبيّ بن كعب رواه عبد الله في زوائد أبيه، كما في المجمع (٢٥/٧).

قوله: فمسح ظهره هذا مما يجب الإيمان به وإمراره كما جاء من غير تشبيه ولا تكييف، وقوله: نسمة ذرأها أي: خلقها، وقوله: قُبُلاً ـ بضم القاف والباء ـ أي: كلّمهم مواجهة.

والحديث يدلّ على أن الله عزّ وجلّ كلّم جميع الأرواح المكلّفة وأخذ عليهم العهد في عالم الأرواح قبل أن تركب في الأجساد التي لم تكن خلقت بعد، وذلك بأن يوحّدوه ويعترفوا بربوبيّته وشهدوا على أنفسهم بذلك بعد أن أشهدهم الله على أنفسهم، فقالوا: «بلى أنت ربنا...» وانظر ما سبق في التفسير عند الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية.

كتاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جمع نَبِيٍّ من النَبوّة، أي: الرفعة أو نَبِيء من النَّبَإِ أي: الخبر، وكلاهما صحيح، والنبيء هو إنسان أُوحِيَ إليه بشرع، فإنْ أُمِرَ بتبليغه كان نبيّاً رسولاً، فإن لم يُؤمَر بتبليغه كان نبيّاً فقط.

والأنبياء أفضل خلق الله وأشرفهم على الإطلاق كما هو الحقّ عند أهل السنّة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، وعندما ذكر جملة منهم في الأنعام قال عزّ وجلّ: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهؤلاء هم أصول الأنبياء، ومنهم تناسل الباقون، وأفضل الأنبياء أولو العزم الخمسة الذين ذكرهم الله عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ الآية.

وفي قوله جلَّ عُلاهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾، وأفضل هؤلاء الخمسة هو خاتمهم حبيبنا وسيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم بإجماع علماء الإسلام، ولاعبرة بخلاف المعتزلة مع ابن حزم، كما أنه لا عبرة بالشيعة الإمامية الذين يفضلون أئمّتهم على الأنبياء، فإن ذلك عند العلماء كفر.

* * *

عدد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

{٤٥٩} - عن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه أن أبا ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: يا نَبِيَّ الله كَمْ عَدَد الأنبياءِ؟ قال: «**مِائَةُ ألفٍ وأربعةٌ وعِشْرُونَ ألفاً، الرسُلُ من ذلك ثلاثمِائَةٍ وخَمْسَةَ عَشَرَ جَمّاً غَفِيراً**».

رواه أحمد (٢٦٥/٥، ٢٦٦، ١٧٨، ١٧٩)، والبزار (١٦٠)، وابن حبان (٦٩/١٤، ٧٠) من طرق مطوّلاً ومختصراً، وبعض طرقه صحيحة، وهو عند أحمد مطولاً تقدم بعضه في الصلاة، ويأتي لاحقاً.

الحديث نصّ في أن عدد الأنبياء الذين أوحي إليهم هو مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، وأن الذين أرسل إليهم وأمروا بالتبليغ هم ثلاثمائة وخمسة عشر رسولاً، ولم يذكر الله عزّ وجلّ من هذا العدد الهائل من الأنبياء في القرآن الكريم إلا نحواً من خمسة وعشرين نبيّاً بأسمائهم وأعيانهم وأكثرهم مذكورون في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآيات، والإيمان بجميعهم واجب إسلامي وهو أحد كلّيات الإيمان، ولا ندري الحكمة في عدم ذكر جميعهم بأسمائهم وأعيانهم في القرآن الكريم، فذلك من شؤون ربنا، وقد قال تعالى لنبيّه الكريم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، واختلف العلماء هل كانت النبوّة في امرأة؟ الجمهور على أن الأنثى لم تكن نبيّة لأنها مأمورة بالتستّر، وذهب جماعة من العلماء إلى أن جماعة من النسوة كنّ نبيات كمريم وأم موسى وأُخريات، وبه قال القرطبي وابن حزم وجماعة.

ثم إن مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام هي تبليغ رسالات الله إلى خلقه مبشّرين ومنذرين لإقامة الحجّة عليهم وَتَبْيِينِهِمْ دين الله وشرعه الذي خلقهم لأجله. وأبحاث ما يتعلق بالرسل والرسالة محلها العقائد، ولعلّه يأتي بحث لنا في ذلك في البعثة النبوية إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

دين الأنبياء واحد

{٤٦٠} - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الأَنْبِياء إِخْوَةٌ مِن عَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهم شَتَّى، ودِينُهُم واحدٌ**».

رواه أحمد (٣١٩/٢، ٤٣٧، ٤٨٢، ٥٤١)، والبخاري في الأنبياء (٢٩٩/٧)، ومسلم في فضائل عيسى (١١٩/١٥) وغيرهم.

أولاد العلّات - بفتح العين وتشديد اللام - هم الإخوة للأب من أُمّهات شتّى، ومعنى الحديث أن أصل إيمانهم المعبّر عنه بالدين واحد لا يختلفون فيه، فكلهم جاءوا به ويدعون إليه كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، وقال عن دعوة هود وصالح وغيرهما لقومهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، وهكذا اتّفقوا في أصل الطاعة ومكارم الأخلاق... أما شرائعهم فمختلفة، كما قال جلّ علاه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، وهي المعبّر عنها في الحديث: «**أُمّهاتهم شتى**»، فالمراد بالأُمّهات الشرائع.

❊ ❊ ❊

كان الأنبياء يبعثون بلغات أممهم

{٤٦١} - عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لَمْ يَبْعَثْ الله نَبِيّاً إلاَّ بِلُغَةِ قَوْمِهِ**».

رواه أحمد (١٥٨/٥) ورجاله رجال الصحيح، ولا يضرّ عدم سماع مجاهد من أبي ذرّ، فإن القرآن يؤيّده قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾؛ فالآية والحديث يدلاّن على أن أي رسول كان يبعث في قومه بلغتهم لتتمّ الدعوة ويصح المقصود، ولذلك كان الواجب على من يدعو غيره ممن هم على غير لغته أن يتعلّم لغتهم، ومن لا يعرف لغة العرب أن يكلمهم بحسب ما يفهمون.

وهٰهنا يأتي غلط بعض علماء المالكية في إيجابهم خطبة الجمعة باللغة العربية الفصحى، فإن هذا جمود بارد وغلط فاحش مخالِف لمقصود الخطبة.

❋ ❋ ❋

خَلْقُ آدم عليه السلام وما يَتَعَلَّقُ به

{٤٦٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**خَيْرُ يومٍ طلعت عليه الشمسُ يومُ الجُمُعَة، فيه خُلِقَ آدمُ، وفيه أُدْخِلَ الجنّةَ، وفيه أُخْرِجَ منها**»، وفي رواية: «**فيه خُلق آدم، وفيه أُهْبِطَ، وفيه تِيبَ عليه، وفيه قُبِض**».

رواه أحمد (٤٠١/٢، ٤١٨، ٤٨٦، ٥١٢)، ومسلم (١٤١/٦)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٣٩) بتهذيبي، والنسائي (٧٤/٣) وغيرهم.

كان خلق أبينا آدم عليه الصلاة والسلام داخل الجنّة أو خارجها على خلاف في ذلك، والذي نعرفه من القرآن والسنّة هو أن الله عزّ وجلّ خلقه بيده من جميع عناصر الأرض وأنواعها، كما قدمنا قبل في حديث أبي موسى وأنه تعالى طور خلقته من تراب فطين لازب فحمإ مسنون ثم صوّره جسماً كاملاً بلا روح، ثم تركه حتى صار صلصالاً كالفخار له صوت إذا ضرب ثم نفخ فيه الروح.

{٤٦٣} ـ وجاء في حديث أبي هريرة: إن الله خلق آدم من تراب، ثم جعله طيناً، ثم تركه حتى إذا كان حمأً مسنوناً خلقه وصوره ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار، قال: فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خُلِقْتَ لأمرٍ عظيم، ثم نفخ الله فيه الروح فكان أول شيء جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلَقّاه الله حمد ربه، فقال الرب: يرحمك الله.

رواه أبو يعلى (٦٥٨٠)، قال في المجمع: رواه أبو يعلى وفيه

إسماعيل بن رافع، قال البخاري: ثقة مقارب الحديث وضعفه الجمهور وبقية رجاله رجال الصحيح...

وهذا كلّه جاء في القرآن الكريم في غير ما سورة من السور المكية على الخصوص، وكان خلقه يوم الجمعة غير أننا لا ندري كيفية خلقه ولا كيفيّة أخذ قبضة الأرض له ومن أخذها لأن كل ذلك من عالم الغيب، ولم يأتِ نص صحيح عن الشارع يبين كيفية ذلك، وإنما جاء ما سنذكره على سبيل الإجمال والإطلاق.

{٤٦٤} ـ عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لمّا خلقَ الله آدم عليه السلام جَعَلَ إبليسُ يُطِيفُ به، فلمّا رآه أجْوَفَ عَرَفَ أنّه خلقٌ لا يَتَمالكُ**»، وفي رواية: «**لمّا صَوَّرَ الله آدمَ في الجنّة تَرَكَهُ ما شاء الله أن يَتْرُكَه**»...

رواه أحمد (١٥٢/٣، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٥٤)، ومسلم في البرّ والصلة (١٦٤/١٦)، وابن حبان (٣٥/١٤)، والحاكم (٣٧/١) وغيرهم.

قوله: يطيف به ـ بضم الياء ـ من أطاف بالشيء إذا استدار حواليه، وقوله: أجوف أي: صاحب الجوف وهو الذي داخله خال، وقوله: لا يتمالك أي: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، ومعنى الحديث أن الله لما جعل لآدم صورة تركه مدة بلا روح فرآه إبليس فجعل يدور حوله ويتعجّب من خلقته، فلما رأى داخله أجوف عرف بما علمه الله تعالى أن هذا الخلق لا يستطيع حبس نفسه عن الشهوات وغيرها، وهو يدلّ على أن إبليس كان في الجنّة، وأنه خلق قبل آدم عليه السلام، وأن اللعين كانت نيّته وقتئذ سيّئة.

وقوله في حديث أبي هريرة: «**وفيه أدخل الجنّة**» ظاهره يقتضي أنه خلق خارج الجنّة، وليس كذلك.

{٤٦٥} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**خَلَقَ الله آدمَ على صُورَتِهِ، وطُولُه سِتُّون ذِراعاً، فلما خلقَه قال: اذْهَبْ فَسَلِّم على أُولئك النَّفَر وهُم مِن الملائكة**

جُلوسٌ، فاستَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ فإنها تَحِيَّتُك وتحيَّة ذُرِّيتك، قال: فذهب فقال: السلام عليكم، فزادوه: ورحمة الله، قال: فكل من يَدخل الجنّة على صورة آدم طولُه ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن».

رواه أحمد (٢/٣١٥)، والبخاري في الأنبياء (٧/١٧٤، ١٧٥) وفي الاستئذان وغيرهما، ومسلم في الجنّة (١٧/١٧٨) وغيرهم.

يدلّ الحديث على أن الله عزّ وجلّ خلق أبانا آدم عليه السلام على صورته التي كان عليها على الأرض وتوفّي عليها، وليس المراد صورة الله كما قيل.

وفيه أن طول خلقته كانت ستّين ذراعاً وهي ثلاثون متراً، وكانت صورته في الجنّة هي صورته في الأرض.

{٤٦٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لما نُفِخَ في آدَمَ فبلغ الروحُ رأسَه عَطَسَ، فقال: الحمدُ لله ربِّ العالمين، فقال له تبارك وتعالى: يَرْحَمُكَ الله».**

رواه ابن حبان (١٤/٣٧)، والحاكم (٤/٢٦٣) بسند صحيح على شرط مسلم.

فيه أنه عليه السلام عندما نفخ فيه الروح عطس فحمد الله عزّ وجلّ إلهاماً منه تعالى فشمته ربّه بالدعاء معه بالرحمة، فكانت سنّة ولده.

{٤٦٧} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«احتجَّ آدمُ وموسى فقال موسى: أنت آدمُ الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأغويتَ الناس وأخرجتهم من الجنّة»**... وفي رواية: **«احتجّ آدم وموسى عليهما السلام فقال له موسى: يا آدم خلقك الله بيده ثم نفخ فيك من روحه، ثم قال لك كن فكنت ثم أمر الملائكة فسجدوا لك، ثم قال:** ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾**، فنهاك عن شجرة واحدة**

فعصيت ربّك، فقال آدم: يا موسى ألم تعلم أن الله تعالى قدَّر هذا عليَّ قبل أن يَخلُقَني، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **لقد حجّ آدم موسى، لقد حجّ آدم موسى، لقد حجّ آدم موسى».**

رواه أحمد (٢/٢٤٨، ٢٦٤، ٣٩٨)، والبخاري (١٤/٣٠٨)، ومسلم (١٦/٢٠٠)، وأبو داود (٤٧٠١)، والترمذي (١٩٦٦) كلّهم في القدر، ورواه البخاري في الأنبياء وفي التفسير، وللحديث ألفاظ، وتقدم لنا في التفسير.

في الحديث أمور:

أولاً: تحاج آدم وموسى حول ما وقع من سيّدنا آدم، وهذه المحاججة يحتمل أن تكون وقعت في حياة موسى عليه السلام أراه الله آدم عليه السلام فتحاججا، ويحتمل أن يكون وقع ذلك في عالم الأرواح، فالله تعالى أعلم.

ثانياً: فيه أن الله عزّ وجلّ خلقه بيده ونفخ فيه من روحه بلا واسطة أحد ملائكته، وقد قدمنا أننا لا ندري كيفيّة ذلك، والله ليس كمثله شيء.

ثالثاً: فيه بيان سجود الملائكة لآدم عليه وعليهم السلام، وقد كان ذلك من الله عزّ وجلّ تكريماً لآدم وإظهاراً لشرفه وفضله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الآية.

وهذا من كمال شرف آدم عليه السلام الذي قال في شأنه الملائكة: بعد أن قال لهم الله عزّ وجلّ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

فلقد كرم الله عزّ وجلّ نبيّه آدم وأبان فضله لملائكته، فلما قالوا قولتهم: أتجعل فيها من يفسد فيها الخ، أجابهم بأنه الذي يعلم ما سيكون في المستقبل من هذا الخليقة فإنه سيعمر الأرض ويتناسل من صلبه الأنبياء والرسل والعلماء الربّانيون والشهداء والعباد والزهّاد والصالحون وسيكون له ولبنيه شأن في الأرض، وإظهاراً لفضله علمه تعالى كل اللغات والأسماء التي ستكون في بنيه وفي الأرض التي سيعيشون فيها، ثم عرض تعالى مسمّيات تلك الأسماء على الملائكة، فقال: أخبروني بأسماء هذه المسمّيات إن كنتم صادقين في ظنكم أنكم أعلم ممن أخلقه بعدكم، فلما عجزوا عن ذلك وهم علماء بأشياء من عالم الغيب نزّهوا الله تعالى، وقالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم؛ فعند ذلك قال الله عزّ وجلّ لآدم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ فلما أنبأهم بأسماء تلك المسميات: هذا حجر، وهذا شجر وهذا جمل وهذا كبش وهذا قمر وهذه شمس وهذه قصعة، وهذا قنفذ، وهذا سبع وهذه سيارة وهذا فاكس وهذا تلفزيون وهذه طائرة، وهكذا أخبرهم بكل مسمّيات الأسماء التي علّمه الله إياها؛ فكان سيدنا آدم عليه السلام بما علمه الله من العلوم وما كرمه بسجود الملائكة؛ له شرف وفضل ومنزلة سامية عنده عزّ وجلّ لم ينلها ملائكته وعباده المكرّمون.

رابعاً: سكنى أبينا آدم الجنة فلما خلقه الله ونفخ فيه الروح وأظهر فضله لملائكته، امتنّ عليه بسكنى الجنّة هو وزوجه وأمرهما أن يأكلا منها أكلاً واسعاً حيثما شاءا وأخبرهما أنهما لا يجوعان فيها، ولا يعريان من لباسهما، ولا يظمآن فيها ولا تصيبهما حرارة الشمس، وحذّرهُما من الشيطان كما قال في سورة طه: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ الآية.

خامساً: عندما أسكنه ربّه الجنّة هو وزوجته وأباح لهما التمتّع بما شاءا منها نهاهما عن قربان شجرة واحدة فلا يأكلان منها، وقبل ذلك كانت حوّاء قد خُلِقَتْ منه، ليسكن إليها، فاشتركا في المحنة معاً، ففي الحديث التالي:

{٤٦٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**اسْتَوْصُوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خُلِقَتْ من ضِلَعٍ، وإنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ في الضِّلَعِ أعلاه**» الحديث.

رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وقد تقدم في النكاح.

فالحديث نصّ في أن حواء زوج آدم خلقت من الضلع، ولم يكن هنالك في الجنّة غير ضلع آدم فهي مخلوقة من ضلعة من ضلعه، والقرآن أيضاً نصّ في أنها خلقت منه؛ كنا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾، والنفس الواحدة التي خلق منها زوجها هي آدم عليه السلام. أما كيفية خلقها منه وما يذكرون في ذلك فلا يصح شيء فيه عن الشارع، وإنما هي مجرد إسرائيليات.

والمقصود أن كلاً من أبينا آدم وأمّنا حواء عليهما السلام اشتركا في الأكل من الشجرة رغم أن الله عزّ وجلّ حذّرهما من إبليس ونهاهما عن قربان تلك الشجرة، لكن إبليس اللّعين كانَ لهما بالمرصاد وقد سلّط عليهما وعلى بَنِيهِمَا كما سبق في علم الله وقضائه لأنه لما امتنع من السجود لآدم عليه السلام وطرده الله عزّ وجلّ أقسم بعزّة الله عزّ وجلّ أنه سيغوي جميع بني آدم إلا عباد الله المخلصين، فرأى عدوّ الله أن يبدأ بأبي البشرية وزوجه فخدعهما ووسوس وزيّن لهما الأكل منها، وحلف لهما أنه لمن الناصحين فانخدعا حتى أكلا منها فانكشفت سوآتهما وجعلا يلقيان عليهما من ورق الجنّة، وفي ذلك يقول الله عزّ وجلّ: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾، ويقول تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾، خدعهما بالقسم بالله إنه لمن الناصحين لهما، وأن الله ما نهاهما عن الأكل إلا خشية أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين في الجنّة، وأن من أكل منهما حصل له ذلك وأخلد

هنالك، كما قال في آية أخرى عنه: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾.

وقوله: فأزلّهما أي: حملهما على الزلّة بمكره ومخادعته ليسلبا ما هما فيه من النعمة، وقيل: فأزلهما أي: نحاهما وأزالهما عن الجنّة.

ولمّا أكلا من تلك الشجرة وخالفا نهي الله عزّ وجلّ انكشفت عورتهما وجعلا يغطيانهما بورق الجنّة.

سادساً: كيف عصى آدم ربّه وهو نبيّ وكيف كانت وسوسة الشيطان له ولزوجه وقد طرد عن الجنّة؟.

أما عن الأول، فإن معصيته لم تكن عن تعمّد ارتكاب ما نهاه الله تعالى عنه، وإن جاء في القرآن التصريح بذلك في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، فإنه جاء في آية أخرى أنه عصى ناسياً كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾؛ فهذا صريح في أنه نسي ولم يأت ذلك متعمداً للمخالفة، والأنبياء منزّهون عن المعاصي كبيرها وصغيرها قبل النبوّة وبعدها على القول الصحيح عند أهل السنّة، وقد أجاد في هذا الموضوع القاضي عياض في الشفا جزاه الله خيراً. وقال العلماء: إن زوجه حوّاء هي الحاملة له على ذلك، وأنها أكلت قبله وحملوا الحديث التالي على هذا، وهو:

{٤٦٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لَوْلاَ بَنُوا إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنز اللَّحْمُ، وَلَوْلاَ حَوَّاءُ لَمْ تَخُنْ أُنْثَى زَوْجَها»**.

رواه أحمد (٢/٣٠٤، ٣١٥)، والبخاري في الأنبياء (٧/١٧٧، ٢٤١)، ومسلم في الوصية بالنساء من كتاب النكاح (١٠/٥٩).

قوله: لم يخنز ـ بفتح الياء والنون وكسرها ـ أي: لم ينتن، وفي رواية: لم يخبث ـ بفتح الياء وضم الياء ـ أي: لم يتغيّر ويفسد.

وقوله: حواء ـ بتشديد الواو مع فتح الحاء ـ.

قال علماء الأخبار: إن بني إسرائيل لما أنزل الله تعالى عليهم المنّ والسلوى نهوا عن ادّخارهما، فخالفوا وادّخروا فعاقبهم الله عزّ وجلّ فأفسدهما عليهم وأنتنهما فاستمرّ ذلك حتى اليوم، ولولا ذلك منهم لما تغيّر لحم ولا طعام أبداً، وهو ظاهر الحديث.

كما أن أُمّنا حواء عليها السلام لما قبلت ما زيّن لها إبليس من الأكل من الشجرة حتى زيّنته لآدم عليه السلام عُدَّ ذلك منها خيانةً له، وليس المراد بخيانتها ارتكاب الفواحش، بل أعاذها الله تعالى من ذلك، فكانت لذلك قدوة لبناتها، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها إما بالقول أو الفعل وكل واحدة منهنّ بحسبها، ولهذا قال في الحديث: «**ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها**»، ففيه إشارة إلى أنه حصل شيء من حواء مع آدم، ولم يذكر المؤرخون عنها غير ما ذكر من التزيين، والله تعالى أعلم.

أما عن الثاني: وهو كيف كانت وسوسة الشيطان، وقد طرد وأُخرج من الجنّة وآدم داخلها، فهذا مما لم يأتِ في كيفيته نصّ عن الشارع، وقد تكلم في كيفية ذلك كثير من أهل العلم لكن كل ما قالوه ليس له أصل يعتمد عليه، على أن من عرف أن إبليس والشياطين أعطاهم الله عزّ وجلّ التشكّل والتسلّط على بني آدم، وجريان أرواحهم في مجاري دمائهم لا يشكل عليه ما حصل من الوسوسة، فقد يكون دخل بروحه وتسلّط على آدم. أما ما يذكرونه من الحيّة ودخوله فيها، فهذا من جملة خرافات بني إسرائيل والمؤرخين. والله تعالى أعلم.

سابعاً: لما حصل من آدم وحواء ما حصل عاتبهما الله عزّ وجلّ على ما فعلا وذكّرهما بما قال لهما من قبل؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

فعند ذلك تذكّرا وندما على ما صدر منهما، فتلقّى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، فكان كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾.

ثامناً: لما قضى الله عزّ وجلّ ما سبق به علمه وقضاؤه على آدم وحواء وإبليس في الجنّة أمرهم بالهبوط جميعاً إلى الأرض التي خلقها لهم ليقضوا فيها ما خلقوا لأجله، وجعل بعضهم أعداء لبعض، وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ويقول جلّ علاه: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥].

ولا ندري كيف كان هبوطهم، ولا أين نزلوا؟ فذلك من علم الغيب ودع عنك الإسرائيليات وخرافات المؤرخين.

تاسعاً: في قول كليم الله موسى عليه السلام: «ثم أغويتنا» «أشقيتنا» معناه أنك بمخالفتك للنهي عن الأكل من الشجرة كنت السبب في أمرين اثنين، أولهما: أصبحنا تابعين لك في الغواية والمخالفة، فلا يخلو إنسان من ذنب ومخالفة وراثة من أبيهم وأمّهم إلا من استثني لمصالح. ثانيهما: تسببت في شقائنا في هذه الدنيا دار الأكدار والأحزان والهموم والغموم والمتاعب الجسدية والنفسية والروحية، ولولا ما صدر منك لبقينا في نعيم وتمتّع متوال... هذا معنى ما أشار إليه كليم الله عليه السلام بقوله: «أغويتنا... أشقيتنا»، والله تعالى أعلم.

وقد تكلم العلماء رحمهم الله تعالى على أسرار وحكم نزول آدم إلى الأرض وأطالوا في ذلك، فراجع كتب التفسير المطولة.

{٤٧٠} ـ وعن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: **«نعم مكلم»**، قال: كم كان بينه وبين نوح؟ قال: **«عشرة قرون»**.

رواه ابن حبان (٦٩/١٤)، والطبراني في الكبير (٧٥٤٥)، وفي الأوسط والحاكم (٢٦٢/٢) من طرق وسنده صحيح، وتقدم لنا حديث أبي ذرّ في عدد الأنبياء، وفيه مما لم نورده هناك. قلت: يا نبيّ الله فأي الأنبياء كان أولاً؟ قال: **«آدم عليه السلام»**، قال: قلت: يا نبيّ الله أوَ نبيٌّ كان آدم؟ قال: **«نعم، نبيٌّ مُكَلَّمٌ خلقه الله بِيَدِهِ ثم نفخ فيه مِنْ روحه ثم قال له: يا آدم، قُبُلاً»**.

رواه أحمد. وغيره بسند صحيح، ولا يضرّ في سنده المسعودي، فإن وكيعاً روى عنه قبل اختلاطه، ولذا صححه ابن كثير والحافظ وغيرهما، وانظر ما سبق رقم (٤٦٧).

الحديث يدلّ على أن سيدنا آدم عليه السلام كان نبيّاً مكلّماً. أما نبوّته، فلا خلاف فيها، وهو أول الأنبياء، وقد بدأ الله عزّ وجلّ به لما ذكر عباده المصطفين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، واقتصر الله على هؤلاء المصطفين لأن آدم أبو البشر، ونوحاً أبوهم الثاني، وإبراهيم جعل الله في ذرّيته النبوة والكتاب بواسطة ولديه إسماعيل وإسحٰق، وموسى أُوتي التوراة وأمته أكثر الأُمم من عهد آدم إلى نبينا، وأنبياء بني إسرائيل كلهم تابعون له، وقد ضلّ ضلالاً بعيداً من أنكر نبوّة سيدنا آدم عليه السلام من بعض الكتاب المعاصرين ممن كتب في قصص الأنبياء.

وهو ممن كلّمهم الله مقابلة عياناً كما في هذا الحديث، وكان مع ذلك رسولاً إلى بنيه كما يفهم من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، والإشارة بتلك إلى كل ما سبق في السورة من الأنبياء، ومنهم آدم فهو من جملة رسل السورة، ويؤيّد رسالته ما حصل في قصة ولديه هابيل وقابيل، فإن فيها أحكاماً لا تكون إلا بوحي من الله تعالى إلى رسول يبلغه وتلك الأحكام هي المذكورة في الآية الكريمة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

ففي الآية أحكام، منها: أنهما قرّبا إلى الله قرباناً، ومنها أن الله يتقبل من المتقين، ومنها أنه إن قتله سيبوء بإثمهما، ومنها أن قاتله سيكون من أصحاب النار، ومنها أن النار جزاء الظالمين، ومنها أن خوف الله منعه أن يقتل أخاه؛ فهذه أحكام عدة دينية شرعية لا تعرف إلا من طريق رسول، ولا رسول في ذلك الوقت إلا آدم عليه السلام، فكان هو الرسول إلى

أولاده وأهل بيته. أفاده الإمام المحدث سيدي عبد الله الصدّيق رحمه الله تعالى في «قصص الأنبياء».

{٤٧١} ـ وعن عُتَيٍّ قال: رأيت شيخاً بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا: هذا أُبَيُّ بن كعب رضي الله تعالى عنه فقال: إن آدم عليه السلام لما حضره الموت قال لبنيه: أي: بَنيَّ إني أشتهي من ثمار الجنّة، فذهبوا يطلبون له فاستقبلتهم الملائكة، ومعهم أكفانه وحنوطه، ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل، فقالوا لهم: يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون أو ما تريدون وأين تذهبون؟ قالوا: أبونا مريض، قالوا: فاشتهى من ثمار الجنّة، قالوا لهم: ارجعوا فقد قضى قضاء أبيكم، فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم، فقال: إليك عنّي، فإني إنما أُوتيتُ من قِبَلِك خَلِّ بيني وبين ملائكة ربي تبارك وتعالى فقبضوه وغسلوه وكفّنوه وحنّطوه وحفروا له وألحدوا له وصلّوا عليه ثم دخلوا قبره فوضعوه في قبره ووضعوا عليه اللبن ثم خرجوا من القبر ثم حثوا عليه التراث، ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنتكم..

رواه عبدالله في زوائد أبيه من المسند (١٣٦/٥) وسنده صحيح، قال الهيثمي في المجمع (١٣٧٥٦) رجاله رجال الصحيح غير عُتَيّ بن ضَمْرَة وهو ثقة، ورواه الحاكم (٥٤٥/٢) مختصراً وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: وحنوطه ـ بفتح الحاء ـ هو ما يخلط من الطيب لأكفان الميت وجسمه خاصة، وقوله: قضى قضاء أبيكم، معناه هذا اليوم آخر أيام حياة أبيكم، وقوله: إنما أُوتيت من قِبلِك، معناه أن الموت ما جاءني إلا بسببك حيث صدقت قسم إبليس عدوّ الله وعدوّنا وأكلت من الشجرة ثم زينت لي الأكل منها، فأكلتُ فطردنا من الجنّة التي لا موت فيها. ذكر معناه البغوي في تفسيره عن ابن عباس وفي هذا الأثر دليل على أن كل ما هو معروف عندنا في الإسلام من شؤون تجهيز الميت وإقباره هو مشروع منذ موت أبينا آدم عليه السلام بواسطة ملائكة الله عزّ وجلّ.

❋ ❋ ❋

فوائد تتعلق بسيدنا آدم عليه السلام

أولاً: إن آدم عليه السلام خلق في الجنة، على خلاف في ذلك، ونفخ فيه الروح في الجنّة، وأكل من الشجرة في الجنّة، وتاب الله عليه في الجنّة، وكانت وسوسة الشيطان له ولزوجه في الجنّة، وكان إنزاله من الجنّة، وكل ذلك كان يوم الجمعة.

ثانياً: وقع خلاف في الجنّة التي كان فيها آدم وأُهبط منها، فالجمهور ومعهم أهل السنّة أنها الجنّة المعهودة التي أعدّها الله سكناً لأوليائه ومن آمن به، وذهب البعض ومنهم المعتزلة وبعض أهل السنة إلى أنها كانت بستاناً في الدنيا، واستدلّ كل من الفريقين بأدلّة على مدعاه، والصحيح والصواب مع الأوّلين لظواهر نصوص القرآن والسنّة الصريحة.

ثالثاً: إن آدم عليه السلام هو أبو البشريّة بإجماع أهل الملل، وفي حديث الشفاعة: ... أنت أبو البشر، وهو في الصحيحين وتقدم ويأتي حديث محاجّة موسى وآدم وأنه قال له: أنت أبونا، وهو في الصحيحين وغيرهما من طرق وفي الموضوع أحاديث كثيرة، بل جاء في القرآن تصريحات بخطاب الله تعالى لبني آدم في عدة مواضع: يا بني آدم، يا بني آدم، مما يدلّ دلالة قطعية على أن آدم هو أبو البشرية الموجودة.

فدعوى وجود «أوادم» قبل أبينا آدم عليه السلام دعوى باطلة مخالفة لما هو معلوم من الدين بالضرورة، ومع ذلك تجد من يغترّ بهذه الفكرة القذرة التي قلّدوا فيها علماء الجيولوجية الكفار وما اكتشفوه من عظام، قالوا: إنه يرجع تاريخها إلى مئات الألوف من السنين، وكانت قبل آدم، وهذا كله خرص وتخمين بل وساوس...

رابعاً: كان منذ عهد غير بعيد يعتقد كثير من المتفرنجين تبعاً للكفار فكرة النشوء والارتقاء، وأن الإنسان كان أصله قرداً ثم ترقّى عبر الأجيال حتى تحضر وأصبح على الصفة التي هو عليها الآن، ثم تراجع الكثيرون

عن هذه الفكرة الساقطة التي جاء بها الفيلسوف داروين اليهودي لعنه الله وأخزاه.

فالإنسان خلقه الله من تراب، وهو إنسان لا يتبدّل عن إنسانيّته، والقرد قرد هكذا خلقه الله يوم خلقه لا يتغيّر عن قرديته أبداً ولو مرّت عليه ملايين السنين، وهكذا كل مخلوق من حيّ وجماد...

خامساً: عاش سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ألف سنة كما سيأتي في قصة سيدنا داود عليه السلام، وأنه وهب له من عمره أربعين سنة وهو في الصحيحين مطولاً.

سادساً: إن الإنسان وإن بلغ ما بلغ في الخصوصية وسمت منزلته وعَظُمت رتبته لا يخلومن هفوة إما عن نسيان كما حصل لأبينا آدم عليه السلام كما نطق به القرآن أو عن تأويل أو عن تعمد كما يصدر من غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كل ابن آدم خطّاء...**»، وهو مخصوص بغير الأنبياء.

سابعاً: إن المخالفة من العبد تُجْبَرُ وتُدَاوَى بالتوبة، وهي من خصائص هذه الأُمّة. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾، وقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن الله يَقْبَلُ تَوْبَةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِر**»، وسيأتي هذا الموضوع في الرقائق إن شاء الله تعالى.

ثامناً: أول من عصى الله تعالى إبليس واشتمل عصيانه على عدّة فواحش، وهو أوّل من عصى الله بها وهي الكِبْرُ، والحَسَد، واحتقارُ الغير والعمل بالقياس في مقابلة النص الإلٰهيّ مع مخالفة أمر الله ومعاندته وجحوده.

تاسعاً: كان في أكل سيدنا آدم عليه السلام من الشجرة حكم كثيرة ترتّبت عليه، فقد سبق في علم الله عزّ وجلّ أنه سيعيش في هذه الأرض وسيتناسل من صلبه ملايين البلايين من بنيه وسيكون فيهم كبار أشرف

المخلوقات من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وستنزل عليهم كتب من الله وشرائع وأحكام سيكلف بها أولاده... ويكون فيهم العلماء الربانيون والعباد المخلصون والشهداء والصالحون وستقوم حروب طاحنة بين أولاده عبر العصور والأجيال، ثم عند انقضاء هذه الرحلة سيرجع آدم وأولاده المؤمنون إلى الجنّة التي نزل منها ويدخل بنوه الكفار النار التي أعدّها لهم كما سبق بذلك علمه وقضاؤه... وفي هذه القصة فوائد أخرى جمّة لا يسعها هذا الموضوع، وقد ذكر بعضها ابن القيّم في الفوائد وغيره، وقد ذكر الله عزّ وجلّ قصة سيدنا آدم عليه السلام مع إبليس مبسوطة في خمس سور من القرآن الكريم في البقرة، وفي الأعراف، وفي الحجر، وفي طٰه، وفي صٓ وهي قصة ذات عبر عجيبة.

* * *

قصة هابيل وقابيل ابني آدم

{٤٧٢} ـ عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إلاّ كانَ على ابْنِ آدمَ الأوّل كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأنّه أوّلُ مَن سَنَّ القتل**».

رواه أحمد (٣٨٣/١، ٤٣٠)، والبخاري في الأنبياء (١٧٩/٧) وفي مواضع، ومسلم في القسامة (١٦٦/١١)، والترمذي في العلم (٢٤٨٧) بتهذيبي، والنسائي في المحاربة وفي الكبرى (٣٣٤/٦)، وابن ماجه (٢٦١٦).

قوله: كفل ـ بكسر الكاف وسكون الفاء ـ أي: نصيب.

الحديث يدلّ على أن أحد ابني آدم عليه السلام قتل نفساً ظلماً، وأنه أوّل من سنّ وأحدث القتل بغياً وظلماً، وأن كل دم أُريق في الأرض لَهُ حظّ ونصيب منه عياذاً بالله.

والمشهور عند المؤرّخين أن سبب ذلك هو أن سيدنا آدم عليه السلام

كان يزوج ذكر كل بطن من ولده بأُنثى البطن الآخر، وأنه كان له ابنان أحدهما قابيل والآخر هابيل، وكانت أختُ قابيل أحسنَ من أختِ هابيل، فأراد قابيل أن يَسْتَأْثِرَ بأُختِهِ، فمنعه نبيّ الله آدم عليه السلام، فلما تمادى في ذلك أمرهما أن يتقرّبا إلى الله تعالى بقربان، فقرب قابيل حزمة من زرع، وكان صاحب زرع، وقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب مواشي فنزلت نار فأكلت قربان هابيل دون قابيل، فحسد هذا هابيل فكان سبب الشرّ بينهما.

والقصة جاءت مفصّلة مبسوطة في سورة المائدة من القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فالقصة واضحة ومبينة، فإنهما لما اختلفا وتقرّبا إلى الله عزّ وجلّ بالقربان، فقبل الله قربان هابيل دون قابيل تمادى هذا في الشرّ، فقتل أخاه حسداً منه وبغياً وظلماً، رغم أن هابيل لم يقاومه ويدافع عن نفسه، بل استسلم وقال له: إني أخاف الله رب العالمين، وتركه يحمل إثمه وإثم أخيه لكنه سرعان أن ندم على ما فعل؛ لأنه بقي متحيراً لا يدري ما يفعل بأخيه وقد قتله وسفك دمه، فبعث الله إليه غراباً فقتل غراباً آخر ثم حفر في الأرض فوارى أخاه فلما رآه قابيل عاد على نفسه باللوم ونادى قائلاً: يا ويلي أبلغ بي العجز والهداية أن أكون مثل هذا الغراب، فعندئذ حفر لأخيه وأقبره فكانت هذه النفس أول شيء سفكت دمها بلا حقّ. والقرآن الكريم لم يبين موقف سيدنا آدم عليه السلام مما حصل ولا جاء له ذكر في القصة لا في القرآن ولا في السنّة، ولا ندري هل وقع الحادث في حياة سيدنا آدم

أم بعد موته، ولم يأت شيء صحيح عن الشارع يكشف لنا عن ذلك، فالله أعلم.

{٤٧٣} ـ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال عِند قَتْلِ عثمانَ رضي الله تعالى عنه: أَشْهَدُ أن رسولَ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنها ستكونُ فتنةٌ القاعد فيها خيرٌ من القائم، والقائم خيرٌ من الماشي، والماشي خيرٌ من الساعي**»، قال: أفرأيت إن دخل عليَّ بيتي فبسط يدَه إليّ ليقتلني؟ قال: فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كُنْ كابْنَيْ آدم**» وتلا: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾».

رواه أحمد (١/١٨٥)، وأبو داود (٤٢٥٧)، والترمذي في الفتن (٢٠٢٥) بسند صحيح على شرط مسلم، ونحوه عن أبي موسى الأشعري وفيه: «**فكسروا قِسِيَّكم وقَطِّعُوا أوتارَكم واضرِبُوا سُيوفكم بالحجارة، فإن دُخِل** ـ يعني على أحد منكم ـ **فَلْيَكُنْ كخَيْرِ ابْنَيْ آدم**».

رواه أبو داود (٤٢٥٩)، والترمذي (٢٠٣٤)، وابن ماجه (٣٩٦١)، وابن حبان (١٨٦٩) بسند صحيح.

ما في الحديثين من الاستسلام وعدم المقاومة كما فعل أحد ابني آدم هو محمول عندنا بزمن الفتنة وعدم تبيّن الحق من الباطل، هكذا قال علماؤنا رحمهم الله تعالى، ويأتي هذا في الفتن.

❊ ❊ ❊

إدريس عليه السلام

الجمهور من المؤرخين على أن إدريس عليه السلام جدّ نوح عليه السلام، وقالوا: إنه أول بني آدم أُعطي النبوّة بعد آدم عليه السلام.

{٤٧٤} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه في حديث الإسراء: «**ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فإذا أنا بإدريس عليه السلام فرحَّب بي ودعا لي بخير، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾**».

رواه البخاري ومسلم في الإيمان (٢/٢٠٩، ٢٢٥)، وتقدم في التفسير ويأتي في السيرة والرقائق أيضاً.

وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾، ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾، وما عدا ما ذكرناه فمجرد أخبار وخرافات إسرائيلية لا يعتمد على شيء منها، فلذلك أضربنا عن ذكرها، فالمكان العلي الذي رفع إليه هو السماء الرابعة على أن الأنبياء الذين مرّ عليهم نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ليلة الإسراء كلّهم مرفوعون عند الله في الأمكنة العليا، وتخصيص إدريس بذكره بذلك لا نعلم حكمته، فالله أعلم به.

{٤٧٥} ـ وعن معاوية بن الحكم رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله ومِنّا رجالٌ يخُطُّون، قال: «**كان نبيٌّ من الأنبياء يَخُطُّ، فمن وافق خطَّه فَذَاكَ**».

رواه مسلم (١٤/٢٢٣) وتقدم في الطب.

فهذا النبيّ المشار إليه الذي كان يخطّ يقول الكثيرون إنه إدريس عليه السلام ويسمّونه هرمس الهرامسة وينسبون إليه كثيراً من الأكاذيب والأباطل، وجاء في حديث لأبي ذرّ صححه ابن حبان أنه كان نبيّاً رسولاً، وأنه أول من خطّ بالقلم، وذكر له ابن إسحٰق أوليات كثيرة ككونه أول من خاط الثياب... ويقال إنه إلياس عليه السلام كما ذكره البخاري عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما. وهذا الخط قد قدمنا الكلام عليه في بحث الكهانة والعرافة من الطب والمرض.

* * *

نوح عليه السلام

{٤٧٦} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كنّا مع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في دعوة فرُفِعَتْ إليه الذراعُ، وكانت تُعْجِبُه

فنَهَسَ منها نَهْسَةً، وقال: «**أنا سيّد الناس يومَ القيامة، وهل تَدْرُونَ ممّ ذلك يَجْمَعُ الله الأوّلين والآخرين في صعدٍ واحدٍ يُسْمِعُهم الدَّاعي ويَنْفُذُهم البَصَرُ، وتَدْنُو الشمسُ منهم فَيَبْلُغُ الناسَ من الغمّ والكَرب مَا لاَ يُطِيقون ولا يَحْتَمِلُون، فيقول بعض الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم، ألا تنظرون إلى من يَشْفَعُ لكم إلى ربكم، فيقول بعض الناس: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربّي غَضِب غضباً لم يغضبْ قبله مثلَه، ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن الشجرة فعصيتُ، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسمّاك الله عبداً شكوراً، أما ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك**» الحديث.

رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي، ويأتي في الرقاق إن شاء الله تعالى بتمامه وشرحه.

{٤٧٧} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يجيء نوح وأُمّته**»، وفي رواية: «**يُدْعَى نوحٌ يوم القيامة فيقول: لبّيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأُمّته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يَشهدُ لك؟ فيقول: محمد وأُمّته، فيشهدون أنه قد بلّغهم (ويكون الرسول عليكم شهيداً)، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾**» الآية.

رواه أحمد (٣/٣٢، ٥٨)، والبخاري في الأنبياء وفي التفسير (٩/٢٣٨، ٢٣٩) وفي الاعتصام، والترمذي والنسائي في الكبرى (٦/٢٩٢) وغيرهم.

{٤٧٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سيد الأنبياء خمسة ومحمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سيد الخمسة: نوح، وإبراهيم،

وموسى، وعيسى، ومحمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه الحاكم (٥٤٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

{٤٧٩} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين.

أخرجه الحاكم (٥٤٦/٢) وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي وتقدم في حديث أبي أُمامة: كان بين آدم وبين نوح عشرة قرون، وهو صحيح على شرط مسلم.

{٤٨٠} ـ وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: جمع ربّنا لنوح علم الماضيين كلهم، وأيّده بروح منه فدعا قومه سراً وعلانية تسعمائة وخمسين سنة، كلما مضى قرن أتبعه قرن فزادهم كفراً وطغياناً.

رواه الحاكم (٥٤٧/٢) وصححه ووافقه الذهبي.

{٤٨١} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنه زوج النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لو رَحِمَ الله من قوم نوح أحداً لرَحِمَ أُمَّ الصَّبيّ**»، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كان نوحٌ عليه الصلاة والسلام مكثَ في قومه ألفَ سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم حتى كان آخر زمانه وغَرَسَ شجرةً فعَظُمت وذهبت كلَّ مَذْهَب ثم قَطَعَها، وجعل يعملُها سفينة، ويمرُّون عليه فيسألونه فيقول: أعملُها سفينة، فيسخَرون منه، ويقولون: تعمل سفينة في البر، وكيف تجري؟ قال: سوف تعلمون، فلما فرغ منها، وفار التنور وكثر الماء في السِّكَك خشيت أم الصبيّ عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثَه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت به على الجبل فلما بلغ الماء رقبتَها رفعَتْه بيديها حتى ذهب بهما الماء، فلو رحم الله منهم أحداً رحم أم الصبيّ**».

رواه الحاكم في المستدرك (٣٤٢/٢) وصححه، وأورده النور في المجمع (٢٠٠/١) برواية أوسط الطبراني، وقال: فيه موسى بن يعقوب الزمعي: وثّقه ابن معين وغيره وضعّفه ابن المديني وبقية رجاله ثقات... ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم وله شاهد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

رواه الحاكم (٤٣٤/٢) مختصراً وأورده ابن كثير في التفسير عن ابن أبي حاتم وقال: رجاله ثقات غير أن رواية ابن وهب عن شبيب بن سعيد فيها كلام، فالحديث حسن بلا شك.

سيّدنا نوح هو نبيّ الله ورسوله ابن لَمْك ـ بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف ـ ابن مَتُوشَلَخ ـ بفتح الميم وضم التاء المشددة بعدها واو ساكنة وفتح الشين واللام آخره خاء معجمة ـ ابن خنوخ ـ بفتح الخاء وضم النون الخفيفة آخره خاء ـ ويقال: أخنوخ ـ بالهمزة ـ وهو إدريس عليه السلام كما يقال.

ونبيّ الله سيدنا نوح عليه السلام من الرسل العظام أولي العزم الخمسة الذين كانت لهم المواقف العظيمة والبلايا الشديدة في سبيل الدعوة إلى الله تعالى.

❋ ❋ ❋

السور التي ذكرت قصة سيدنا نوح عليه السلام

وقد ذكر الله عزّ وجلّ قصته في عدة سور مطولة ومختصرة، فذكرها في الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، والقمر، وسورة نوح بتمامها، وذكر في عدة سور مع الأنبياء.

فقال تعالى في الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن

قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وقال في سورة يونس: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ الآية.

وقال في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ الآيات، وقد استوعبت القصة غالبها.

وقال في الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وقال في قد أفلح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الآيات.

وقال في الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾. ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ الآية.

وقال في العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ الآية.

وقال في الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ

مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ الآية.

وقال في القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ الآية.

وقال في سورة نوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ السورة.

كان بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام عشرة قرون، كلهم كانوا على الإسلام ودين الله الذي نزل على سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ثم بعدُ حدثت أمور واختلف الناس وآل الحال بهم إلى عبادة الأصنام، واتخاذ الآلهة من دون الله، وكان السبب في ذلك ما رواه البخاري رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (١٠/٢٩٣، ٢٩٤) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: هي أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انْصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسَمُّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعْبَدْ حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبِدَتْ، قال ابن عباس: ثم صارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي: كانوا على دين واحد وملّة واحدة، فاختلفوا ما بين مؤمن وكافر، وقال في آية ثانية: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية.

فكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض بعد عبادة الأصنام نبيّ الله نوح عليه السلام، كما في الحديث السابق: **«يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى الأرض»**، فقام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده وأنه لا إله غيره وسلك معهم في دعوتهم إلى الله عزّ وجلّ كل أنواع وطرق الدعوة ترغيباً

وترهيباً، ليلاً ونهاراً، فلم تنجح كلها فيهم، بل لم يزدهم ذلك إلا نفوراً وطغياناً، فكذّبوه ورموه بالجنون وهدّدوه بالرجم وعيّروه بأنه لم يتبعه إلا أراذل الناس وسقطهم، وطالت به المدة معهم، فلبث فيهم يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ تسعمائة وخمسين عاماً، فلما حصل اليأس من إيمانهم أوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ الآية، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ فعندئذ، وقد توالت إذايتهم له وعتوّهم وطغيانهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾، ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾.

فكان كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

فأمره الله عزّ وجلّ أن يصنع سفينة استعداداً للطوفان، فقال له: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ فصنعها وكان قومه يمرُّون عليه وهو يصنعها فيسخرون منه ويضحكون عليه، ويقولون له: يا نوح كنت رسولاً فأصبحت نجاراً، وجعل الله له علامة يعرف بها وقوع الطوفان، كما قال عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: خرج الماء من الأرض أو من المخبز، ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾، فعمّ الطوفان الأرض كلّها وبلغ الماء قمم الجبال ورؤوس شوامخها، وقال تعالى: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾، فسارت تمخر المياه وتجري بهم في الأمواج كالجبال، وكان نوح عليه السلام قد نادى ابنه كنعان: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ولم ينج من الغرقان إلا ركاب السفينة، ولو رحم الله تعالى أحداً منهم لرحم تلك المرأة أم الصبي التي فدت ولدها بحياتها، فأغرقها الله ورضيعها، ولما قضى الله أمره وانتقم من المجرمين الجاحدين الظالمين وجاءت المعجزة الباهرة أمر تعالى السماء أن تحبس

ماءها والأرض أن تبتلع ما عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾، والجودي جبل بالعراق، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ الآية، ولما أغرق الله ولد نوح كنعان راجع ربه إنك قد وعدتني بإنجاء أهلي، وهذا ولَدِي قد غرق فأجابه الله تعالى: إنه ليس من أهلك الذين وعَدْتُك بإنجائهم إنما وعدتك بإنجاء المؤمنين، وولدك كنعان كافر، فلا تسألني ما لا علم لك به، فلا تكن ممن يجهل حكمتنا... وبهذا انتهت القصة.

❋ ❋ ❋

بعض ما يؤخذ من القصة من الفوائد

فيها: أن سيدنا نوحاً عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض بعد عبادة الأوثان. وفيها: أنه كان من المعمّرين، يقال: إنه عاش ألفاً وخمسين سنة أو أكثر، وبعث في قومه لأربعين سنة من عمره، وعاش بعد الطوفان خمسين سنة أو أزيد.

وفيها: إبطال تلك الخرافة التي يتناقلها الإخباريون من أن عوج بن عنق هو الذي ساعد سيدنا نوحاً عليه السلام في خشب السفينة حيث قلع عدة أشجار من الهند وجاءه بها في خرافات يذكرونها، وحديث عائشة الذي ذكرناه يردّ ذلك، ثم إن حديث الصحيحين من أن الله خلق آدم على صورته وطوله ستّون ذراعاً يبطل قصة عوج الذي قالوا فيه إنه كان يشوي السمك في الشمس لطوله، وأنه كان إذا نام ملأت جثته المشرق والمغرب في خرافات لم ينج من ذكرها حتى بعض المفسّرين.

وفي حديث أبي سعيد الخدري بيان أن الأُمّة المحمدية ستشهد لنوح يوم القيامة أنه بلغ قومه بعد إنكارهم ذلك، وسيأتي ذلك في فضل الأمة المحمدية من الفضائل.

وفي حديث أبي هريرة بيان سادات الرسل وهم أولو العزم الخمسة: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، خاتمهم رسولنا الكريم وهو سيدهم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، وفي القصة فوائد كثيرة لمن تتبعها، ومن أهمها أن الله قد يعذّب الأبرياء بذنوب أهل الإجرام، وذلك لشؤم الذنوب وخاصة الكفر والظلم والبغي وذلك لحكم لا ندري كنهها، فالواجب علينا التسليم لله الواحد الأحد الذي لا يُسأل عما يفعل، فإن ذلك الطفل الرضيع لم يكن كافراً، بل لم يكن مكلّفاً ولا مخاطباً بالإيمان بسيدنا نوح، وإنما أغرق بشؤم والدته الكافرة.

❋ ❋ ❋

أولاد سيدنا نوح ووصيته لولده

{٤٨٢} ـ عن سمرة بن جندب عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**سامٌ أبو العَرَب، وحامٌ أبو الحَبَش، ويَافِثُ أبو الرُّوم**».

رواه أحمد (٩/٥، ١٠)، والترمذي (٣٠٢٠، ٣٦٩٥) بتهذيبي، والحاكم (٥٤٦/٢) بسند صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وزيادة عمران عنده لا تضرّ، فإن سماع الحسن من سمرة ثابت عند البخاري وابن المديني والترمذي... قال العلماء بالأخبار: كل من على الأرض اليوم وقبله بقرون من سائر أجناس بني آدم هم من نسل أولاد نوح الثلاثة المذكورين، ويؤيّد هذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾، وهذا الحديث يبين ذلك، فالعرب تناسلوا من سام والحبشة من أولاد حام، أما الروم، فهم من نسل يافث.

وقد جاء في حديث آخر رواه البزار من حديث أبي .. رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ولد لنوح سام وحام ويافث، فولد لسام العرب، وفارس، والروم والخير فيهم، وولد ليافث يأجوج ومأجوج، والترك، والسقالبة، ولا خير فيهم، وولد لحام القبط والبربر والسودان**»، وفي الحديث كلام.

{٤٨٣} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: كنّا عند رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فجاء رجل من أهل البادية عليه جُبّة سيحان مَزْرُورَة بالديباج، فقال: ألا إنّ صاحبكم هذا قد وضع كل فارس بني فارس، أو قال: يريد أن يضع كل فارس بن فارس، ورفع كل راع بن راع، قال: فأخذ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمجامع جبّته وقال: «**لا أرى عليك لباس من لا يعقل**»، ثم قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن نبيّ الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٌّ عليك الوصية آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إلـٰه إلا الله، فإن السمـٰوات السبعَ، والأرضين السبع، لو وُضِعَتْ في كفةٍ، ووضعت لا إلـٰه إلاّ الله في كفَّة، رجَحتْ بهنّ لا إلـٰه إلاّ الله، ولو أن السمـٰوات السبع والأرضين السبع كُنَّ حلقةً مُبْهَمَةً قَصَمتهن لا إلـٰه إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنَّ بها صلات كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكِبْر**»، قال: قلت: أو قيل: يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شراكان حسنان، قال: «**لا**»، قال: «هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «**لا**»، قلت: أو قيل: يا..رسول الله فما الكبر؟ قال: «**سَفَهُ الحَقّ، وغمْصُ الناسِ**»، وفي رواية: «**لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال: إني قاصٍ عليكما الوصية**» الخ.

رواه أحمد (١٧٠/٢، ٢٢٥) بسند صحيح، ورواه ابن ماجه، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، ورواه الطبراني مختصراً بلفظ: «كان في وصية نوح لابنه: أوصيك بخصلتين، وأنهاك عن خصلتين...».

قوله: «سفه الحق» في الصحيح «بَطَر الحق»، ومعناه دفع الحق وعدم قبوله، وقوله: غمص الناس أي: غمطهم واحتقارهم.

في الحديث بيان ما وصى به نوح عليه السلام ابنه أو ابنيه... وهي وصية الصالحين من الأنبياء وأتباعهم وصية الأولاد بما يهمّهم في دينهم وصّى بالمحافظة على كلمة التوحيد التي عليها قامت وتقوم السماء

والأرض... وتسبيح الله وتقديسه وتحميده، فإن لهاتين الكلمتين لشأناً، كيف وفيهما تقديس الله وتنزيهه عمّا لا يليق به، وحمده والثناء عليه وتمجيده، وكل ذلك مما يحبه الله عزّ وجلّ ويرضاه.

كانت هاتان الخصلتان من أوامر نوح عليه السلام الإيجابيتين. أما الأُخريتان، فكانتا من قسم المنهيّات وما أعظمهما، هما الشرك بالله وهو قاصم الظهور الذي لا يغفر أبداً، ثم الكبر وهو من أمّهات الفواحش؛ إذ هو الحامل على عدم قبول الحقّ مع احتقار الآخرين، ولو كانوا سادات الخلق، فكانت هذه الوصية جامعة لكل خير وشرّ، وستأتي وصية إبراهيم ويعقوب لبنيهما.

❋ ❋ ❋

هود عليه السلام

{٤٨٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما مَرَّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بوَادِي عُسْفَان حِينَ حَجَّ قال: «**يا أبا بكر أيُّ وادٍ هذا؟**» قال: وادِي عُسْفَان، قال: «**لقد مَرَّ به هُودٌ وصالحٌ على بَكَرَاتٍ حُمْرٍ خُطُمُها اللِّيفُ، أُزُرُهم العَبَاء، وأَرْدِيَتُهم النِّمارُ يَحُجُّونَ البيتَ العَتيق**».

رواه أحمد (٢٣٢/١) وقد حسّنه ابن كثير في البداية والنهاية.

عسفان ـ بضم العين وسكون السين ـ بينه وبين مكّة في طريق المدينة نحو من سبعين كيلو، قوله: بكرات ـ بفتحات ـ جمع بكرة ـ بفتح الباء وسكون الكاف ـ الفتاة من النوق، وقوله: خطمها ـ بضمات ـ جمع خطام وهو حبل يجعل في عنق البعير، وقوله: العباء ـ بفتحتين ـ لباس كان عند العرب يلبس فوق الثياب، وقوله: النمار ـ بكسر النون جمع نمرة بفتح وكسر ـ وهي شملة وبردة من صوف مخططة.

{٤٨٥} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**نُصِرْتُ بالصَّبَا وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ**».

رواه البخاري في المغازي (٤٠٥/٨)، ومسلم في الاستسقاء (١٩٧/٦).

الصبا ـ بفتح الصاد ـ ريح المشرق، والدّبور ـ بفتح الدال المشددة ـ ريح المغرب.

{٤٨٦} ـ وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: بَعَثَ عَلِيّ إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بِذُهَيْبَةٍ فقسمها بين الأربعة... فذكر الحديث، وفيه في الخوارج: «**لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل عاد أو ثمود**».

رواه البخاري في المغازي وغيرها، ومسلم في الزكاة (١٦٢/٧، ١٦٣) ويأتي في السيرة.

{٤٨٧} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا رأى غَيْماً أو رِيحاً عُرِف ذلك في وَجْهِهِ، فقلت له في ذلك، فقال: «**يَا عَائِشَةُ ما يُؤَمِّنُني أن يكون فِيهِ عَذَابٌ قد عُذِّبَ قومٌ بالرِّيح وقد رَأَى قومٌ العَذَابَ فقالوا هَذا عارِضٌ مُمْطِرُنا**».

رواه البخاري في سورة الأحقاف (١٩٩/١٠)، ومسلم في الاستسقاء (١٩٦/٦، ١٩٧).

{٤٨٨} ـ وعن رجل من ربيعة قال: قدمت المدينة فدخلت على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فذُكِرَتْ عنده وافدُ عاد، فقلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وَمَا وَافِدُ عادٍ**»؟ فقال: على الخَبِير بها سَقَطْتَ إنّ عاداً لمّا أُقْحِطَتْ بعثتْ قَيْلاً فنزل على بكر بن معاوية فسقاه الخمر وغَنَّتْه الجرَادَتان، ثم خرج يريد جبال مهرة، فقال: اللّهمّ إني لم آتِك لمريضٍ فأُدَاويه ولا لأسيرٍ فأُفادِيه فاسقِ عبدَك ما كنتَ مُسْقِيهِ، واسق معه بكر بن معاوية يشكر له الخمر الذي سقاه، فَرُفِعَ له سحاباتٌ، فقيل له: اختر إحداهن، فاختار السوداء منهنّ، فقيل له: خذها رَماداً رِمْدِداً، لا تَذَرُ مِن عادٍ أحداً، وذكر أنه لم يرسل

عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة، يعني حلقة الخاتم ثم قرأ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ الآية.

رواه أحمد (٣/٤٨١، ٤٨٢)، والترمذي في تفسير الذاريات (٣٠٥٨)، وابن ماجه وسنده صحيح.

قوله: قيلاً ـ بفتح القاف وسكون الياء ـ هو اسم وافد قوم عاد، الجرادتان: مغنيتان كانتا بمكة، رماداً ـ بفتح الراء ـ ورِمْدداً ـ بكسر الراء وسكون الميم وكسر الدال ـ أُريد به المبالغة في الاحتراق، الريح العقيم: التي هي شرّ محض لا خير فيها.

سيدنا هود عليه الصلاة والسلارم هو هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام كان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح كانوا عرباً يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمال كانت باليمن بين عُمان وحضرموت، كانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الطوال الضخام مرفوعة مزخرفة، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾، أي: لم يخلق الله تعالى مثلهم في قوّتهم وشدّتهم وضخامة أجسادهم، وكانوا مع ذلك أطول أعماراً، وهم عاد الأُولى. أما عاد الثانية، فكانوا من عقب عاد فهاجروا وتناسلوا بعد الأولين، وكانت عاد الأولى هم الذين بعث الله تعالى إليهم سيدنا هوداً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، فكذبوه وخالفوه وكانوا عتاة متمردين جبارين، فأهلكهم الله عزّ وجلّ ودمّرهم وجعلهم أحاديث وعبراً يذكرون دائماً في القرآن مع المهلكين القدامى قوم نوح، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه.

وقد ذكر الله عزّ وجلّ قصّتهم مع سيدنا هود عليه السلام وما جرى له معهم، وما كان من عاقبة أمرهم بعد قصة قوم نوح عليه السلام في عدة

سور في الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، وحم السجدة، والأحقاف، والذاريات، والنجم، والقمر، والحاقة، والفجر...

فقال في الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٦٦﴾... ﴿لِّيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾... إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٧٢﴾.

وقال في هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠﴾... ﴿وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ إلى قوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ إلخ.

وقال في قد أفلح بعد قصة قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢﴾ إلى أن قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ۝٤٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٤١﴾.

وقال في الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٢٧ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣٥ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ۝١٣٦ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ ۗ﴾ إلخ.

وقال في حم السجدة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وقال في الأحقاف: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ۖ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾.

وقال في الذاريات: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

وقال في النجم: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾.

وقال في القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

وقال في الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

وقال في الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

وذكروا في غير هذه السور.

وقد سبق أن قلنا بأن سيدنا هوداً عليه السلام كان أرسل إلى قومه عاد

الأُولى وكانوا قوماً عرباً قساة غلاظاً شداداً أقوياء طويلي الأعمار، وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، فبُعِثَ إليهم فأمرهم بعبادة الله تعالى وحده وأن يتقوه ويستغفروه ويتوبوا إليه وأخبرهم بأنهم إذا فعلوا ما أمرهم به أرسل الله تعالى عليهم السماء مدراراً وزادهم قوّة إلى قوّتهم، وذكّرهم بنعم الله المتوالية عليهم حيث جعلهم خلفاء من قبلهم، وزادهم بسطة في خلقتهم، وأنه عزّ وجلّ أمدّهم بأنعام وبنين وعيون وجنّات، وأرشدهم إلى ترك زخارف الحياة واتخاذ الأبنية الشامخة والقصور المشيدة المحكمة لمجرد اللّهو واللعب والمفاخرة، كأنهم سيخلدون في هذه الحياة. وكل هذه الإرشادات كان يلقيها عليهم حسبة لله عزّ وجلّ بدون أجر ولا أي مقابل، وهو مع ذلك رسولٌ من الله عزّ وجلّ إليهم أمين على ما يأتي به ويقول فماذا كان جوابهم؟ أجابوه بالآتي:

إنك رجل سفيه من الكاذبين والمفترين على الله، وأن ما أصابك من الخبل والجنون كان بسبب سبك وشتمك آلهتنا، فهي التي أصابتك بذلك، ثم إنك لم تأتنا بحجّة ولا بيّنة على مدعاك، فما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين، فسواء وعظتنا وذكرتنا أم تركتنا فما هذا الذي جئتنا به من ترك الآلهة إلى إله واحد إلا خرافات الأوّلين وأكاذيبهم، فليس هنالك حياة بعد الموت، ولا ما تزعمونه من البعث والحساب وكل ما تدعونه من توحيد الآلهة خرافات وأساطير...

وهكذا أصرُّوا على كفرهم وضلالهم وجحدوا آيات ربّهم واتبعوا أمر كل جبار عنيد، واستكبروا في الأرض وقالوا: من أشدّ منّا قوة وطغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد... فعندئذٍ توجّه رسول الله هود عليه وعلى نبيّنا وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة والسلام إلى الله عزّ وجلّ قاصم ظهور الجبابرة، فقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وذكر الإخباريون أنهم لما تمادوا على كفرهم أصابهم الله تعالى بالسنين، فأمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى أجهدهم ذلك، وكان الناس إذا أجهدهم أمر في ذلك طلبوا من الله الفرج عند حرم الله ومكان بيته، وكان عندهم معروفاً فبعثوا وفداً منهم يستسقون لهم، وتقدم في حديث

الرجل الذي حدّث النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن وافد عاد كان قيلاً واحداً مرّ على بكر بن معاوية فسقاه الخمر وغنته الجرادتان، وأنه لما دعا الله تعالى رفعت له ثلاث سحابات، فقيل له: اختر إحداهن فاختار السوداء، لأنه ظنّها أكثر أخواتها ماء، فقيل له: «خذها رماداً رِمْدَداً، لا تَذَرْ من عاد أحداً»، ومعنى رماداً رمدداً أي: هلاكاً متناهياً ليس بعده هلاك.

وقد أخبر الله عزّ وجلّ بأنه لما أراد إهلاكهم بعث عليهم سحاباً، فلما رأوه قالوا: هذا عارض، أي: سحاب عارض ممطرنا، فقيل لهم: بل هو ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها، أي: تخرب وتهلك كل شيء مرّت عليه من رجال ومواشي وأموال بإذن الله عزّ وجلّ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، أي: هلكوا جميعاً ولم تبق إلا دورهم وآثارهم خاوية.

وقد كرّر الله عزّ وجلّ في كتابه إرسال الريح عليهم وأنه أرسلها عليهم ريحاً صرصراً، أي: ريحاً باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب عقيمة لا خير فيها عاتية متجاوزة الحدّ في البرودة والهبوب والصوت سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، أي: متتابعة ما تذر من شيء أتت عليه ومرّت به إلا جعلته كالرميم، أي: كالهشيم المتفتّت البالي كالتراب... وأصبحوا كأنهم أعجاز نخل خاوية أي: صاروا كأنهم أصول نخل متآكلة الأجواف، فهل ترى لهم من باقية، أي: هل ترى أحداً من بقاياهم أو تجد لهم أثراً.

فهكذا لما قالوا: من أشد منا قوة وطغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، صبّ عليهم ربك سوط عذاب.

❋ ❋ ❋

من فوائد قصة هود مع قومه

في حديث ابن عباس الأول دليل على أن الحجّ لبيت الله الحرام كان مشروعاً أيام هود عليه السلام، وأنه مرّ مع صالح على عسفان محرمين قاصدين بيت الله تعالى راكبين على نوق بكرات في ثياب متواضعة، وفي هذا إشكالٌ يأتي بيانُه في قصة الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وفي حديثه الثاني بيان أن قوم عاد أهلكهم الله بريح الغرب، وهي أشدّ الرياح بعد ريح الشرق التي نصر بها نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وفي قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الخوارج: «**لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد أو قتل ثمود**»، أي: قتل إبادة واستئصال، فلا يبقى منهم أحد، فهو يدلّ على أن قوم عاد وثمود أبادهم الله جميعاً ولم تبق إلا آثار ديارهم...

وحديث عائشة يدلّ على أنه ينبغي للمسلم إذا هبّت ريح وخاصة إذا كانت عاصفة أن يشفق على نفسه ويتخوّف منها، ويسأل الله خيرها ويستعيذ من شرّها، كما قدمنا ذلك في كتاب الكسوف والخسوف.

وفي حديث وافد عاد بيان أن الريح الذي أرسل إلى قوم عاد هو شيء بسيط جداً، وذلك كان مقدار حلقة الخاتم، ومع ذلك حصل ما حصل من التدمير، فكيف لو أرسل إليهم بأكثر من ذلك مما لا يعلم قدره إلا الله تعالى، فإن لله خزائن الشر كما له خزائن الخير، مما لا تدركه عقولنا، كما أن له جنوداً مجنّدة يرسلها على من شاء من خلقه لا ندريها...

خاتمة هامة

العرب قسمان: عرب العاربة، وهم العرب الأصليون. والعرب المستعربة، فالأولون هم عاد، وثمود، وجرهم، ومدين، وعملاق، وقحطان، وكان هود عليه السلام من قوم عاد، ويقال: إنه أول من تكلم بالعربية، وقيل: نوح، وقيل: آدم. أما العرب المستعربة، فهم أولاد إسماعيل عليه السلام، وكان إسماعيل أول من استعرب، وقد تعلم العربية من جرهم الذين نزلوا عند أمّه هاجر بالحرم، كما يأتي إن شاء الله تعالى، وكان قد أتقنها ونطق بها في غاية الفصاحة والبيان، كما كان ينطق بها نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ولم يكن من الأنبياء العرب إلا هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، وخاتمهم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، والله تعالى أعلم وأحكم.

❋ ❋ ❋

{٤٨٩} ـ عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: لما مرَّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالحِجْرِ، قال: «**لا تسألوا الآيات وقد سَأَلَها قومُ صالح، فكانت تَرِدُ من هذا الفَجِّ، وتَصْدُر من هذا الفجّ، فعَتَوا عن أمر ربّهم فعقَروها، فكانت تَشْرَبُ ماءَهُم يَوْماً، ويَشْرَبُونَ لَبَنَها يَوْماً فَعَقَرُوهَا فأخَذَتْهم صَيْحَةٌ أهْمَدَ الله عزّ وجلّ مَن تحت أَدِيم السَّماءِ مِنهم إلا رجلاً واحداً كان في حَرَم الله عزّ وجلّ**»، قيل: مَن هو يَا رسول الله؟ قال: «**أبو رغَال، فلمّا خرج من الحرم أصابه ما أصابَ قومَه**».

رواه أحمد (٢٩٦/٣) بسند صحيح على شرط مسلم.

الحِجر ـ بكسر الحاء وسكون الجيم ـ ديار ثمود، وهي بين المدينة وتبوك، والفج: الطريق، وقوله: ترد أي: تشرب، وقوله: تصدر أي: تنصرف، وعتوا أي: طغوا، فعقروها أي: قتلوها عقراً بسيف أو نحوه.

{٤٩٠} ـ وعن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال له ولعليّ رضي الله تعالى عنهما: «**ألا أُحَدِّثُكُمَا بأَشْقَى الناس**»؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**أُحَيمِرُ ثَمُود الذي عقر النّاقة، والذي يَضْرِبُك يا عليُّ على هذه**» يعني قرته «**حتى تَبْتَلَّ هذه**» من الدم يعني لحيته.

رواه أحمد (٢٦٣/٤)، والحاكم (١٤١/٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

أحيمر تصغير أحمر.

{٤٩١} ـ وعن عبدالله بن زَمْعَة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يَخْطُبُ، وذكر الناقة والذي عقَرَها، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إذ انْبَعَثَ أشْقَاها انبعث لها رجلٌ عَزِيزٌ عارِمٌ مَنِيعٌ في رَهْطِهِ مثلُ أبي زَمْعَة**».

رواه أحمد (١٧/٤)، والبخاري في التفسير (٣٣٣/١٠، ٣٣٤)، وفي أحاديث الأنبياء (١٨٨/٧)، ومسلم في الجنة (٢٨٥٥)، والنسائي في الكبرى (٥١٥/٦).

قوله: إذ انبعث أي: انطلق أشقى القوم بسرعة ونشاط، وعاقر الناقة اسمه

قُدَارُ على وزن غراب بن سالف، وقوله: عزيز أي: قوي، عارم أي: صعب كثير الشهامة والشرّ، منيع ذو منعة أي: له رهط يمنعونه من كل ضَيْم.

{٤٩٢} ـ وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لما نزل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بالناس عام تبوك نزل بهم الحِجْرَ عِنْدَ بُيُوتِ ثَمُود، فاسْتَقَى الناسُ من الآبار التي كان يَشْرَبُ منها ثمودُ، فعَجَنُوا منها، ونصَبُوا القُدُورَ باللَّحْم، فأمرَهُم رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأهْرَاقُوا القُدُور، وعَلَفُوا العَجينَ الإبلَ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تَشْرَبُ منها الناقة، ونهَاهم أن يَدْخُلُوا على القوم الذين عُذِّبُوا، قال: «**إنّي أخشى أن يُصيبَكم مثلُ ما أصابَهم فلا تدخلوا عليهم**».

وفي رواية: أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما مَرَّ بالحجر قال: «**لا تدخُلوا أماكن الذين ظَلَمُوا إلا أن تكُونُوا باكِين أن يُصيبَكم ما أصابَهُم، وتَقَنَّع بردائِهِ وهو على الرحل**»، وفي رواية: «**فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم**».

رواه أحمد (٩/٢، ٥٨، ٧٢، ٧٤، ١١٣، ١٣٧، ٦٦. ٩٦)، والبخاري في الأنبياء (١٨٩/٧، ١٩٠، ١٩١).

قوله: أن يصيبكم أي: خشية أن يصيبكم الخ، أو كراهية أن يصيبكم.

{٤٩٢م} ـ وعن محمد بن أبي كبشة عن أبيه رضي الله تعالى عنه قال: لمّا كان غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فنادى في الناس: «**الصلاة جامعة**»، قال: فأتيت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو مُمْسِكٌ بعيره، وهو يقول: «**مَا تَدْخُلون على قوم غضب الله تعالى عليهم**»، فناداه رجل منهم: نَعْجَبُ منهم يا رسول الله، قال: «**أفلا أنذركم بأعجبَ من ذلك؟ رجل من أنفُسِكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسدِّدوا، فإن الله عزّ وجلّ لا يَعْبَأُ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم بشيء**».

رواه أحمد (٢٣١/٤) حديث حسن لغيره.

وسددوا أي: اطلبوا بأعمالكم السّداد والاستقامة والقصد في الأمر، لا يعبأ أي: لا يبالي.

كان قوم ثمود قبيلة مشهورة نسبوا إلى جدّهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانوا أيضاً عرباً عاربة يسكنون الحجر ـ بكسر الحاء وسكون الجيم ـ وهو موضع يقع بين المدينة المنوّرة وتبوك، وقد مرّ عليه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في ذهابه إلى تبوك، كما يأتي ذلك بإذن الله تعالى وآثارهم لا تزال موجودة حتى اليوم، وكان هؤلاء القوم يعبدون الأصنام كسوابقهم، فبعث الله عزّ وجلّ إليهم رجلاً منهم وهو عبدالله ورسوله سيدنا صالح عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده، فكان بينه وبينهم ما قصّه الله عزّ وجلّ علينا في كتابه الكريم، وقد ذكرت قصّتهم في أكثر من إحدى عشرة سورة من القرآن بداية من الأعراف، فهود، فالحجر، فالإسراء، فالشعراء، فالنمل، فحم السجدة، فالقمر، فالنجم، فالفجر، فالشمس، وذكروا في سور أُخر مع قوم عاد ونوح وشعيب ولوط وموسى...

فقال تعالى في الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وقال في هود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ

تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

وقال في الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وقال تعالى في سبحان: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ في الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ إلخ.

وقال جلّ علاه في النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا

دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وقال جلّ جلاله في حم السجدة: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ في القمر: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وقال في النجم: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ الآية.

وقال تعالى في الفجر: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

وقال جلّ ثناؤه في الشمس وضحاها: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

وخلاصة ما في هذه الآيات أن الله عزّ وجل بعث عبده سيدنا صالحاً عليه السلام إلى قومه ثمود فأمرهم بعبادة الله وتوحيده والاستغفار من ذنوبهم والتوبة والرجوع إليه عزّ وجلّ، وذكّرهم بآلاء الله تعالى حيث أنشأهم من الأرض وجعلهم يعمرونها، وأنعم عليهم بالمساكن والقصور وسخّر لهم الصخور ينحتون فيها البيوت وأغدق عليهم الخيرات من جنّات وعيون وزروع ونخيل وجعلهم خلفاء من قبلهم، ثم نهاهم عن الفساد وإطاعة المفسدين، وبيّن لهم طريق الرشاد والهدى فآثروا الضلال والخذلان، فبدل أن يستجيبوا لدعوته كفروا

به وقالوا إنّا بالذي آمنتم به كافرون، وقالوا له إنما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا، بل كذاب أشِرٌ متكبر تريد العلوّ علينا أأُلقِي عليك الوحي دوننا، وقالوا تطيّرنا بك وبمن آمن معك، ولقد كنّا نرجو أن تكون سيداً فينا من قبل نرجع إلى رأيك ونستشيرك في أمورنا فكيف تأمرنا الآن أن نترك ما يعبد آباؤنا، فنحن في شكٍّ مريب مما تدعونا إليه فائتنا بآية تدلّ على صدقك إن كنت صادقاً في قولك، فأوحى الله تعالى إليه عليه السلام: إنا مرسلو الناقة فتنة لهم، فارتقب واصطبر فأخرج عزّ وجلّ ناقة عشراء من صخرة وأمرهم أن يتناوبوا معها في الشرب من البئر فيوم لهم ويوم لها، كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ يعني إذا كان يوم الناقة حضرت شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم، وكما قال في آية ثانية: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، وحذّرهم من التعرّض لها بسوء وأوعدهم على ذلك بالعذاب العظيم، لكنهم أبوا إلا أن يخالفوه فعقروا الناقة أولاً وباشر ذلك الأشقى الأخسر قُدَارُ بن سالف، ثم أرادوا بصالح كيداً ثانياً، فلقد اجتمع تسعة نفر من مفسديهم وتحالفوا فيما بينهم على قتله وقتل من معه من أهله ومكروا به مكراً، فكان مكر الله بهم أدهى وأمرّ، فأهلكهم الله عزّ وجلّ ودمّرهم وأباد خضراءهم واستأصل جميعهم، فجاءتهم الصيحة والرجفة وعذاب الله يوم الظلة، فأصبحوا في دارهم جاثمين منبطحين على وجوههم صرعى هامدين كأن لم يغنوا فيها، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، وكانت العاقبة لنبيّ الله ورسوله صالح عليه السلام ولمن كان معه من المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

من فوائد قصة صالح عليه السلام

في حديث جابر المصدر به بيان ذمّ سؤال الآيات والكرامات، فإن قوم ثمود سألوها ولم يقوموا بواجبها، فأهلكهم الله تعالى. وفيه تفصيل ما أجمله القرآن من قصة الناقة، وفيه أن الله أهلكهم جميعاً إلا أبا رغال فتأخر هلاكه لأنه كان في حرم الله، فلما غادره أصابه ما أصابهم.

وفي حديث عمار رضي الله تعالى عنه بيان أن أشقى الأوّلين إطلاقاً هو قُدَار عاقر ناقة صالح عليه السلام، كما أنَّ أشقى الآخرين هو قاتل الإمام عَلِيٍّ عليه السلام وهو ابن ملجم الخارجي ألجمه الله بلجام من نار.

وزاد في حديث ابن زمعة بياناً لصفات ذلك الشقي وأنه كان عزيزاً في قومه ذا منعة شريراً، وقالوا: إنه كان أزرق أصهب أحمر لعنه الله وأخزاه.

وفي حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما بجميع رواياته أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لما مرّ بديار ثمود في طريقه لتبوك نزل هنالك، ونهى الصحابة أن يستعملوا مياه ثمود في عجينهم ولُحُومِهِم بل أمَرَهُم أن يهريقوا كل ذلك ويعلفوا العجين الإبل ونهاهم عن الدخول إلى أماكن ثمود إلا مع البكاء لئلا يصيبهم من العذاب ما أصابهم، ثم تقنع صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بردائه وشدّ حتى جاوز ديارهم ونزل عند بئر الناقة التي كانت تشرب منها.

واستدلّ العلماء بهذا الحديث على ذمّ الدخول إلى دور الظلمة ومساكنهم، وأن من دخلها كان على خطر، وقد أجاد وأفاد الحافظ ابن القيم في الهدي عند ذكر هذا الحديث في غزوة تبوك، وسيأتي لنا مزيد في السيرة إن شاء الله تعالى.

سيدنا إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبيّنا وعلى جميع الأنبياء

سيدنا إبراهيم عليه السلام هو ابن آزَرَ واسمه تارَح - بتاء وراء مفتوحة آخره حاء مهملة - ابن نَاحُور - بنون وحاء مهملة مضمومة - ابن شَارُوخ - بشين معجمة وراء مضمومة آخره خاء معجمة - ابن رَاغُوه - بغين معجمة - ابن فَالَخ - بفاء ولام مفتوحة آخره معجمة - ابن عَبِير، ويقال: عابِر - وهو بمهملة وموحدة - ابن شالخ - بمعجمتين - ابن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، قال الحافظ: لا يختلف جمهور أهل النسب ولا أهل الكتاب في ذلك إلا في النطق ببعض هذه الأسماء.

وقصة الخليل عليه الصلاة والسلام من أطول القصص القرآنية وأشهرها

وأروعها وهي مُمْتِعَةٌ رائعةٌ يتجلّى فيها توحيد الله والجهاد لأجله والدفاع عنه بأجلى مظهره، وقد تكرّر ذكره عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم نحواً من سبعين مرة، ولم يأتِ هذا العدد في القرآن لأحد من الأنبياء، إلا ما كان من كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه ورد ذكره فيه أكثر من مائة وثلاثين مرة كما يأتي في قصته.

والمقصود أن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام من أطول القصص وحقّ لها ذلك، فإنه أبو الأنبياء وشيخهم وإمامهم وقدوة الموحدين وأسوتهم وجدّ خاتمهم وسيدهم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم جميعاً.

ونحن سنورد بحول الله وعونه تعالى ما جاء من أحاديث عنه، ثم نتبع ذلك ببيان قصته، كما جاءت في القرآن الكريم بداية من مسقط رأسه حتى موته...

❋ ❋ ❋

إبراهيم أكرم الناس وأنه خليل الله

{٤٩٣} - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سُئِل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أيُّ الناس أكرمُ؟ قال: «**أكرمهم عند الله أتقاهم**»، قالوا: ليس عن هذا نسألك؟ قال: «**فأكرم الناس يوسف نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن خليل الله**»، وفي رواية: «**إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم**».

رواه البخاري في الأنبياء (١٩٨/٧، ٢٢٥، ٢٢٨) وفي التفسير وتقدم، ومسلم في الفضائل (١٣٤/١٥) بالرواية الأُولى، وأحمد (٢٣٢/٢، ٣٤٦، ٣٨٩)، والترمذي (٢٩١٤)، والنسائي (٣٦٩/٦) كلاهما في التفسير، والحاكم (٣٤٦/٢، ٥٦١، ٥٧٠) بالرواية الثانية، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

أصل الكرم كثرة الخير، ولا شكّ أن التقوى والدين والنبوّة هي الكرم الحقيقي.

{٤٩٤} ـ وعن أبي هريرة أيضاً قال: أُتِيَ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوماً بِلَحْم، فقال: «**إن الله يَجْمَعُ يوم القيامة الأوّلين والآخرين في صعيدٍ واحد، فَيُسْمِعُهم الداعي ويَنْفُذُهم البَصَرُ وتَدْنُو الشمس منهم**»، فذكر حديث الشفاعة «**فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبيّ الله وخليله من الأرض اشفع لنا**» الحديث، يأتي بتمامه في الرقائق.

رواه الشيخان وغيرهما.

* * *

من صفاته وأنه أول من اختتن

{٤٩٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في حديث الدجال: «**أما إبراهيم، فانظروا إلى صاحبكم**» الحديث، يأتي في الأشراط وفي قصة موسى.

رواه البخاري في الأنبياء (١٩٩/٧) وغيره.

{٤٩٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين أُسري به: «**لقيت موسى**»... قال: «**ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به**» الحديث يأتي في السيرة وغيرها.

رواه البخاري في الأنبياء (٢٣٩/٧، ٢٤٠)، ومسلم في الإيمان (٢٣٢/٢، ٢٣٣).

{٤٩٧} ـ وعن سمرة قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أتاني الليلة آتيان فأتينا على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً، وأنه إبراهيم**» صلّى الله عليه وعلى نبيّنا وآله وسلم.

رواه الشيخان وغيرهما وتقدم مطوّلاً في التعبير.

{٤٩٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اخْتَتَن إبراهيمُ عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقَدُوم**».

رواه البخاري في الأنبياء (١٩٩/٧) وفي الاستئذان، ومسلم في الفضائل (١٢٣/١٥) وغيرهما.

القدُوم وردت بتشديد الدال مع تخفيفها، فعلى الأول يكون اسم مكان، وعلى الثاني اسم لآلة القطع. والختان معروف وتقدم في كتاب الطهارة.

* * *

إبراهيم ووالده يوم القيامة

{٤٩٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**يَلْقَى إبراهيمُ أباه آزَرَ يوم القيامة وعلى وجه آزَر قَتَرَةٌ وغَبَرةٌ فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تَعْصِني، فيقول أبوه: اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرّمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك، فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**».

رواه البخاري في الأنبياء (١٩٧/٧) وفي التفسير وتقدم، والنسائي في الكبرى (٤٢٢/٦).

قوله: ذيخ ـ بكسر الذال المعجمة ثم ياء تحتانية آخره خاء معجمة ـ هو ذكر الضبع، وقد صحف من ذكره بذبح ـ بالباء الموحدة والحاء المهملة ـ.

* * *

إبراهيم وصورته داخل الكعبة يستقسم

{٥٠٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لمّا دخل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم البيت وجد فيه صورة إبراهيم وصورة

{٤٩٤} ـ وعن أبي هريرة أيضاً قال: أُتِيَ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يوماً بِلَحْم، فقال: «**إن الله يَجْمَعُ يوم القيامة الأوّلين والآخرين في صعيدٍ واحد، فَيُسْمِعُهم الداعي ويَنْفُذُهم البَصَرُ وتَدْنُو الشمس منهم**»، فذكر حديث الشفاعة «**فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبيّ الله وخليله من الأرض اشفع لنا**» الحديث، يأتي بتمامه في الرقائق.

رواه الشيخان وغيرهما.

* * *

من صفاته وأنه أول من اختتن

{٤٩٥} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في حديث الدجال: «**أما إبراهيم، فانظروا إلى صاحبكم**» الحديث، يأتي في الأشراط وفي قصة موسى.

رواه البخاري في الأنبياء (١٩٩/٧) وغيره.

{٤٩٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين أُسري به: «**لقيت موسى**»... قال: «**ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به**» الحديث يأتي في السيرة وغيرها.

رواه البخاري في الأنبياء (٢٣٩/٧، ٢٤٠)، ومسلم في الإيمان (٢٣٢/٢، ٢٣٣).

{٤٩٧} ـ وعن سمرة قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أتاني الليلة آتيان فأتينا على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً، وأنه إبراهيم**» صلّى الله عليه وعلى نبيّنا وآله وسلم.

رواه الشيخان وغيرهما وتقدم مطوّلاً في التعبير.

{٤٩٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اخْتَتَن إبراهيمُ عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقَدُوم**».

رواه البخاري في الأنبياء (١٩٩/٧) وفي الاستئذان، ومسلم في الفضائل (١٢٣/١٥) وغيرهما.

القدُوم وردت بتشديد الدال مع تخفيفها، فعلى الأول يكون اسم مكان، وعلى الثاني اسم لآلة القطع. والختان معروف وتقدم في كتاب الطهارة.

* * *

إبراهيم ووالده يوم القيامة

{٤٩٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**يَلْقَى إبراهيمُ أباه آزَرَ يوم القيامة وعلى وجه آزَر قَتَرَةٌ وغَبَرةٌ فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تَعْصِني، فيقول أبوه: اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرّمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك، فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**».

رواه البخاري في الأنبياء (١٩٧/٧) وفي التفسير وتقدم، والنسائي في الكبرى (٤٢٢/٦).

قوله: ذيخ ـ بكسر الذال المعجمة ثم ياء تحتانية آخره خاء معجمة ـ هو ذكر الضبع، وقد صحف من ذكره بذبح ـ بالباء الموحدة والحاء المهملة ـ.

* * *

إبراهيم وصورته داخل الكعبة يستقسم

{٥٠٠} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لمّا دخل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم البيت وجد فيه صورة إبراهيم وصورة

مريم، فقال: «أمَا لَهُم فقد سَمِعُوا أن الملائكة لا تَدخُلُ بيتاً فيه صورةٌ، هذا إبراهيم مُصَوِّرٌ فَمَا له يَسْتَقْسِمُ».

وفي رواية: لما رأى الصورة في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمُحِيَتْ، ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام، فقال: «قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قطّ».

رواه البخاري في الأنبياء (٧/١٩٧، ١٩٨) ويأتي في فتح مكة.

الأزلام سهام كانوا يستقسمون بها في أمورهم ويعتمدون على ما يخرج لهم منها، وهي من الشركيات والوثنيات، واستثني من جنسها القرعة وهي مشروعة في الإسلام، كما تقدم ويأتي.

❊ ❊ ❊

قصته مع الطاغية وشأن سارة وهاجر

{٥٠١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «لم يكذِبْ إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام إلا ثلاثَ كَذَباتٍ: ثِنْتَين منهن في ذات الله عزّ وجلّ، قوله: «إني سقيم»، وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا»، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن هذا رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتَى سارة فقال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرتُه أنكِ أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخِذَ، فقال: ادْعِي الله لي ولا أضُرُكِ، فدعت الله فأُطْلِقَ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضُرّكِ، فدعت فأطلق فدعا بعض حَجَبَتِهِ، فقال: إنك لم تأتني بإنسان إنما أتيتني بشيطان، فأخْدَمَها هاجَر فأتَتْه وهو قائم يصلّي فأومأ بيده مَهْيَم قالت: ردّ الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر»، قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء.

وفي رواية: «فلما دخلت إليه قام إليها قال: فأقبلت تتوضأ وتصلّي

وتقول: اللّهمّ إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنتُ فرجي إلا على زوجي، فلا تُسَلِّط عليّ الكافر، قال: فَغُطَّ حتى ركَضَ برجله، قالت: اللّهمّ إنه إن يمت يقل هي قتلته، قال: فأرسل ثم قام إليها فقامت تتوضأ وتصلّي وتقول: اللّهمّ إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنتُ فرجي إلا على زوجي فلا تسلّط عليّ الكافر. قال: فغط حتى ركض برجله، قالت: اللّهمّ إنه إن يمت يقل هي قتلته، قال: فأرسل، فقال في الثالثة أو الرابعة: ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر، قال: فرجعت، فقالت لإبراهيم: أشَعَرْتَ أن الله عزّ وجلّ ردّ كيدَ الكافر وأخدم وليدة».

رواه أحمد (٤/٤٠٣، ٤٠٤)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٠١، ٢٠٤) وفي النكاح وفي البيوع وفي الهبة، ومسلم في الفضائل (١٥/١٢٣)، وأبو داود (٢٢١٢)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٢) مختصراً.

قوله: «لم يكذب» الكذب ضد الصدق، وهو الإخبار بخلاف الواقع، وإطلاق الكذب هنا من باب المعاريض لأنه بالنسبة للسامعين كذب، وبالنسبة لاعتقاد إبراهيم وما قصده صدق. وقوله: في ذات الله أي: فيما يرجع إلى توحيد الله تعالى ودينه، وقوله: سقيم أي: مريض، وقوله: بل فعله كبيرهم، يعني صنمهم الأكبر، وقوله: أختي أي: في الدين، وقوله: فأخذ يعني قبضت يده قبضة، وقوله: غطّ حتى ركض برجله أي: اختنق حتى صار كأنه مصروع يتخبط ويضرب برجله، وقوله: مهيم أي: ما شأنك، وقوله: يا بني ماء السماء المراد بهم العرب، سمّوا بذلك لأنهم يعيشون على المرعى والكسب، وذلك ناشىء عن ماء السماء، أو المراد أنهم أولاد إسماعيل وهو ربي بماء زمزم وهو في الأصل من ماء السماء.

❊ ❊ ❊

قصة إحياء الطيور طمأنة لقلبه

{٥٠٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم قال: «**نحن أحقّ بالشكّ من إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾**».

رواه أحمد (٣٢٦/٢)، والبخاري في الأنبياء (٢٢٢/٧)، ومسلم في الفضائل (١٢٣/١٥).

يأتي معناه وتوجيهه فيما بعد.

* * *

كل الحيوانات كن في صف إبراهيم إلا الوزغ

{٥٠٣} ـ عن سائبة مولاة للفاكه بن المغيرة أنها دخلت على عائشة رضي الله تعالى عنها، فرأت في بيتها رمحاً موضوعاً، فقالت: يا أُمّ المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: نقتل به الأوْزَاغَ، فإن نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أخبرنا أن إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِيَ في النار لم تكن دابّةٌ إلا تُطْفِىء النار عنه غيرَ الوزَغ، فإنه كان ينفخ عليه فأمر عليه الصلاة والسلام بقتله.

رواه أحمد (٨٣/٦، ١٠٩)، وابن ماجه (٣٢٣١)، وأبو يعلى (٤٣٥٧) وسنده حسن صحيح.

{٥٠٤} ـ وعن عائشة أيضاً أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: كانت الضفدع تطفىء النار عن إبراهيم، وكان الوزغ ينفخ فيه، فنهى عن قتل هذا، وأمر بقتل هذا.

رواه عبدالرزاق في المصنف (٨٣٩٢) بسند صحيح على شرط البخاري ومسلم.

وسيأتي مزيد لهذا في الأدب إن شاء الله تعالى.

{٥٠٥} ـ وعن أُمّ شريك رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أمر بقتل الوزغ، وقال: «**كان ينفُخُ على إبراهيم عليه السلام**».

رواه البخاري في الأنبياء (٢٠٤/٧، ٢٠٥).

* * *

هجرته إلى مكة بهاجر وابنها إسماعيل عليهم الصلاة والسلام

{٥٠٦} ـ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أول ما اتّخذ النساء المِنْطَقَ من قِبَلِ أُمّ إسماعيل اتّخذت منطقاً لِتُعَفّي أثَرَها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل عليهم السلام، وهي ترضعه حتى وَضَعَهُما عند البيت عند دَوْحَةٍ فوق الزمزم في أعلى المسجد، وليس بمكّة يومئذ أحدٌ وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمرٌ وسقاءٌ فيه ماءٌ ثم قَفّى إبراهيم منطلقاً فتبعتْه أُمُّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، حتى بلغ: ﴿يَشْكُرُونَ﴾، وجعلت أمّ إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السّقاء عَطِشَتْ وعَطِش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى، أو قال: يتَلَبَّط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطتْ من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال

النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فذلك سعي الناس بينهما**»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صَهٍ تريد نفسها، ثم تَسَمَّعَتْ فسمعت أيضاً فقالت: قد أَسْمَعْتَ إن كان عندك غَوَاثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فَبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلتْ تُحَوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يَفُور بعد ما تَغْرِف، قال ابن عباس: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يرحم الله أمّ إسماعيل لو تركتْ**» أو قال: «**لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عيناً معيناً**»، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافوا الضَّيْعَة، فإن ههنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه وأن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جُرْهُم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكّة فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر يدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جَرِيّاً أو جرِيَّيْنِ، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقّ لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس**»، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شَبَّ، فلما أدرك زوّجوه امرأة منهم، وماتت أُمّ إسماعيل هاجر فجاء إبراهيم بعدما تزوّج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر نحن في ضيق وشدّة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيّر عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا في جهد وشدّة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرئك السلام ويقول غيّر عتبة بابك، قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك،

فطلّقها وتزوّج امرأة منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله عزّ وجلّ، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللّهمّ بارك لهم في اللّحم والماء، قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**ولم يكن لهم يومئذ حبّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه**»، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يَبْرِي نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلمّا رآه قام إليه فَصَنَعَا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هٰهنا بيتاً وأشار إلى أكَمَةٍ مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

رواه أحمد (١/٢٥٣، ٣٤٧، ٣١٠)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٠٨، ٢١٦، ٢١٨) وهو من أفراده، ورواه أحمد (٥/١٢١)، وابن حبان (٩/٣٦) عن ابن عباس عن أبي، مختصراً بلفظ: إن جبريل عليه السلام لما ركض زمزم بعقبه جعلت أم إسماعيل تجمع البطحاء، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**رحم الله هاجر أمّ إسماعيل عليهما السلام لو تركتها لكانت ماء مَعِيناً**».

وفي رواية عند البخاري قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله عليهم السلام ما كان خرج بإسماعيل وأمّ إسماعيل عليهم السلام ومعه شنة فيها ماء، فجعلت أمّ إسماعيل تشرب من الشَّنَّة فَيَدِرُّ لبنها على صبيها حتى قدم مكة... الحديث.

«المِنْطَق» بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء هو ما يُشدّ على الوسط، ويدلى إلى الأسفل، وكان عادة للنساء قديماً، «لتُعَفِّي» أي: لتخفي أثرها وتستره، «دَوْحَة» أي: شجرة كبيرة، «جِراباً» أي: وعاء من جلد، «سقاء» هو قربة صغيرة، وفي رواية: شنّة، وهي القربة العتيقة، «قَفّى» أي: ولّى راجعاً، «يَتَلَبَّطُ» أي: يتمرّغ ويضرب بنفسه الأرض، «صَهْ» أي: اسكتي كأنها خاطبت نفسها، غَوَاثٌ أي: إن كان عندك إغاثة فأغثني، وفي رواية للبخاري: فإذا هي بصوت فقالت: أغث إن كان عندك خير، فإذا جبريل عليه السلام: «فإذا هي بالملك»، في رواية عند الطبري عن الإمام عليّ عليه السلام بسند حسن كما قال الحافظ: «فناداها جبريل عليه السلام، فقال: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أمّ ولد إبراهيم، قال: فإلَى مَن وكَّلَكُما؟ قالت: إلى الله تعالى، قال: وكّلكما إلى كاف». «تُحَوْضُه» أي: تجعل عليه مثل الحوض ليجتمع فيه الماء، «عيناً مَعِيناً» أي: ظاهراً ماؤها جارياً على ظهر الأرض، «الضَّيْعَة» أي: الهلاك «كالرَّابِية» أي: الشيء المرتفع من الأرض، «جُرْهُم» بضم الجيم والهاء بينهما راء ساكنة هو ابن قحطان اليماني، «ظائراً عائفاً» هو الذي يحوم حول الماء، ويتردد ولا يمضي. جرياً - بفتح الجيم وكسر الراء - أي: رسولاً يأتيهم بالخبر، كما في رواية للبخاري، فبعثوا رسولهم فألْفَى أي: وجد، «يَبْتَغِي لنا» أي: يطلب لنا العيش، في رواية: «ذهب يَصِيدُ» عَتَبة بابك أي: زوجتك، «يَبْرِي نبلاً له» بفتح الياء وسكون الباء وكسر الراء، أي: ينحتها ويصلحها ويعمل لها ريشاً، «كما يصنع الوالد بالولد» يعني من المعانقة والالتزام والتقبيل وما إلى ذلك.

❊ ❊ ❊

الكعبة أول مسجد وضع في الأرض

{٥٠٧} - عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه سأله عن أول مَسْجِدٍ وُضِعَ للناس، قال: «**المَسْجِدُ الحرام**»، قلت: ثم أيُّ؟ قال: «**المسجدُ الأقصى**»، قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: «**أربعون عاماً**»، ثم قال: «**حيثما أدركَتْكَ الصلاةُ فصلّ والأرض مسجد لك**».

رواه أحمد (٥/١٥٠، ١٦٦)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٧٣)، ومسلم في المساجد (٥/٢، ٣) وغيرهم. وانظر ما سبق في التفسير عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾.

❊ ❊ ❊

إبراهيم عليه السلام خير البرية

{٥٠٨} - عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال: يَا خَيْرَ البَرِيَّةِ، قال: «**ذاكَ إبراهيمُ**» عليه السلام.

رواه مسلم في الفضائل (١٥/١٢١)، وأبو داود (٤٦٧٢)، والترمذي (٣١٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٠).

خير البريّة أي: أفضل المخلوقات، وهذا مخصوص بغير نبيّنا عليه السلام لأدلة أخرى، وإنما قال هذا تواضعاً منه مع جده.

❊ ❊ ❊

بسط قصة الخليل عليه السلام

الصحيح المشهور عند أهل السير والتاريخ أن الخليل عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام أصله من العراق، وأنه وُلد ببابل بأرض الكوفة، وكانت

تلك البلاد تحت حكم الكلدانيين وبها نشأ إبراهيم عليه السلام، وتزوّج سارة وهاجر بها مع ابن أخيه لوط عليهم السلام إلى أرض الكنعانيين، فنزلوا حرّان - بفتح الحاء وتشديد الراء المفتوحة - وكان موقعها أقصى نهري دجلة والفرات غرباً على طريق الموصل والشام، ثم تركوها وهاجروا إلى الأرض المقدسة إلى فلسطين من الشام، وكان الله تعالى قد أعطى إبراهيم رشده وهداه إلى توحيده من صغره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾، وكان أهل الأرض كلهم كفاراً إلا إبراهيم وزوجته وابن أخيه لوط عليهم السلام، فقام الخليل عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده وترك أصنامهم وآلهتهم المتعدّدة وبدأ بأبيه وأقرب الناس إليه، فكذّبوه وخذلوه وهدّده والده بالقتل رجماً وهو مع ذلك يلاطفه ويرد قوله بأدب واحترام ولين، وكان عاقبة الأمر أن كسر إبراهيم أصنامهم وجعلها قطعاً وجذاذاً فأخذوه وألقوه في النار بأمر طاغيتهم النمروذ، فنجّاه الله عزّ وجلّ وقال للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، ثم تركهم وقال لهم: إني مهاجر إلى ربي فهجرهم وما يعبدون من دون الله فأنجاه تعالى ومن معه بالهجرة إلى الأرض المقدسة حيث كان مقرّه الأخير بلاد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

وفي جملة ذلك وتفصيله تأتي الآيات الكريمات التي تتحدّث عنه عليه السلام، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

فأخبر تعالى أنه أعطاه رشده وعرّفه به وبدينه، وأنه أنكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام والعكوف عليها دون الله، فأجابوه بحجّتهم الواهية وهي تقليدهم آباءهم في ذلك، وتوالت المحاورة بينه وبينهم فأجابهم بأنهم ومن سبقهم من الآباء كلّهم على ضلال وخلاف الحقّ، فاستفهموه هل أنت على جدّ وحق في قولك هذا أم أنت مازحاً تداعبنا؟ فأجابهم: بل أقول لكم

الحق المبين، فربكم هو رب هذه الأجرام التي تشاهدونها من السمٰوات والأرض التي خلقها وأنشأها وأنا شاهد على ذلك...

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ الآية.

فأخبر عز وجل عن إنكار إبراهيم على أبيه اتخاذ الأصنام آلهة دون الله تعالى، وأنه وقومه في ضلال مبين واضح، وأنه تعالى أرى رسوله الخليل عليه السلام أسرار ملكوت السمٰوات والأرض والملك العظيم وسلطان الله الباهر ليكون من الراسخين في اليقين بالله عزّ وجلّ، فلمّا جنّ عليه الليل وستر بظلمته كل شيء رأى كوكباً مضيئاً في السماء يقال هو الزهرة أو المشتري، قال لقومه: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ يعني على زعمهم، قاله على سبيل الردّ عليهم والتوبيخ لهم واستدراجاً لهم ليعرّفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله تعالى مما هو حادث متغيّر، قال المفسّرون: كان أبو إبراهيم آزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب، فأراد أن ينبّههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال ويعرّفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى ألاّ يكون شيء من هذه الكواكب إلٰهاً، وأن وراءها مُحْدِثاً وخالقاً ومُدَبّراً يُدَبّر طلوعها وانتقالها ومسيرها، وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: لما غاب الكوكب قال: لا أحب عبادة من كان كذلك لأن الرب لا يجوز عليه التغيّر والانتقال والغياب، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: طالعاً منتشر الضوء. ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ على الأسلوب المتقدم، لفتاً لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدون وتسفيهاً لأحلامهم، فلما أفل وغاب القمر قال لهم: لئن لم يهدني ويثبتني ربي على الهدى لأكونن من القوم الضالين، وفيه تعريض بهم بأنهم ضالّون، فلما رأى

الشمس بازغة وطالعة وضياؤها أعظم وأشمل، قال: هذا ربّي لأنه أكبر وأعظم من الكوكب والقمر، فلما أفلت وغابت قال: يا قوم إني بريء من إشراككم وأصنامكم، إني وجهت وقصدت بعبادتي وتوحيدي وجه الله الذي ابتدع العالم وخلق السمٰوات والأرض حنيفاً ومائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ولست من المشركين، ولكنهم مع كل ذلك ووضوح الحق وضلالهم أصروا على كفرهم وشركهم فحاجوه وجادلوه في شأن توحيد الله وآلهتهم وخوّفوه بها فأجابهم بقوله: أتجادلونني في وجود الله ووحدانيّته وقد هداني وبَصَّرَني بالحق، فأنا لا أخاف ما تشركون به شيئاً من هذه الأصنام المزعومة...

قال ابن كثير: والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيّارة، وأشدّهن إضاءة الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فلما انتفت الإلٰهيّة عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، قال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الخ.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾.

ذكر تعالى ما دار بين إبراهيم وبين أبيه من المحاورة، وكيف دعا أباه إلى الحقّ بألطفِ عبارةٍ وأحسنِ إشارةٍ، وبيَّن له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضرّ، ثم نبّهه على أن الله تعالى أتاه علماً نافعاً يجب عليه أن يتبعه ليهديه الطريق السويّ، ثم نهاه عن

اتباع الشيطان وحذّره منه لأنه كان عاصياً لله تعالى، وبدل أن يهتدي بهدي الله ويستجيب لما دعاه إليه أنكر عليه رغبته عن عبادة آلهته ثم هدّده إن لم ينته عما يدعو إليه بقتله رجماً بالحجارة، فلاطفه الخليل وتأدّب معه وقابل خشونته وجفاءه بالكلام الطيب الرقيق: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: لطيفاً حيث هداني لعبادته والإخلاص له وسأعتزلكم وما تدعون من دون الله.

وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

ومرة أخرى أنكر على أبيه وقومه عبادة أصنام لا تسمع إذا دعيت، ولا تنفع ولا تضرّ من تعلق بها واعتمد عليها، لكن القوم كانوا عمياً صمّاً بكماً بلهاً مجانين، فهم مع إقرارهم بأنها لا تسمع ولا يأتي من قبلها نفع ولا ضر أصروا على عبادتها اعتماداً منهم على التقليد الأعمى لآبائهم، فلما رأى الخليل عليه السلام القوم متناهين في الضلال أشهر عداوته لأصنامهم ومعبوداتهم ومعبودات آبائهم القدامى، وبيّن لهم بكل جلاء ووضوح أن الذي يجب أن يعبد هو خالق الكائنات ومدبّرها الذي خلقه ويهديه ويوالي عليه نعمه وإمداداته، فيطعمه ويسقيه وإذا مرض يعافيه ويشفيه، والذي يميته ويحييه، والذي يطمع ويرجو منه أن يغفر له خطيئته يوم الدين.

❋ ❋ ❋

مناظرة الخليل مع الطاغية النمروذ

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

كان الخليل عليه الصلاة والسلام يعيش في عصر النمروذ الذي يقال إنه من الأربعة الذين ملكوا الأرض، وثانيهما بُخْتُنَصَّر، والثالث ذو القرنين، والرابع سليمان عليه السلام، اثنان مؤمنان، واثنان كافران، وكان النمروذ يدّعي الربوبية والألوهية، فلما بلغته دعوة إبراهيم عليه السلام سأله عن صفات ربّه الذي يدعو إلى عبادته، فأجابه بأن ربّي هو الذي يحيي ويميت، فهو تعالى منشىء الحياة وموجدها وهو الذي يسلب الحياة من ذوات الأرواح، لكن الطاغية المغتر بقوّته وملكه أجاب إبراهيم بأنه أيضاً يحيي ويميت، فقال له إبراهيم: وكيف ذلك؟ فأُتِيَ برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر، ولما رأى إبراهيم عليه السلام جنون هذا الطاغية ومغالطته المكشوفة وافتراءه على الحقيقة لم يسترسل معه في الجدال حول ما أدلى به من حجّته الواهية الساقطة، بل انتقل معه إلى حجّة أخرى لا يستطيع معارضتها أصلاً، وهي حجّة دامغة مفحمة فقال له: إن ربي الذي أعْبُده وأدعو إليه يأتي بالشمس من جهة المشرق، فخالفه وائت بها من قبل المغرب، فلما سمع الطاغية هذه الحجّة الدامغة بهت، أي: دهش وتحيّر ولم يجد جواباً، وبذلك انتهت المناظرة وانتصر الخليل وانهزم الكافر، قال تعالى في شأن دعوة إبراهيم ومحاججته قومه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِـۧمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

❋ ❋ ❋

تحطيم الخليل للأصنام وإلقاؤه في النار

قال تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ

جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ إلى أن قال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ الخ.

لقد مكث الخليل سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام بين قومه زمناً غير قليل يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وإفراده بالتوحيد والألوهية وحاورهم وردّ جدالهم وبيّن انحرافهم عن فطرة الله تعالى، وكشف لهم حقيقة أصنامهم التي يعبدونها ويظلون عاكفين عليها، وأنها لا تستحق العبادة لأنها مخلوقة مثلهم منحوتة بأيديهم ولا يصح في العقل أن يعبد المخلوق

مخلوقاً مثله، لا سيما وأنها جماد لا حياة فيها، لا تضرّ ولا تنفع، ولا تسمع ولا تجيب ولا تعقل... وأطال معهم في ذلك وأبدى لهم من الحجج على توحيد الله عزّ وجلّ وإبطال ما عداه من الأوثان والأصنام ما لا يبقى معه شك وارتياب، ولما أيس منهم ومن استجابتهم لدعوته تحيّن الفرصة لتحطيم آلهتهم، فحلف وأقسم لهم بأنه سيكيدها بعد تولّيهم عنها، كما قال تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾، يقال: إنه كان لهم عيد سنويٌّ يجتمعون فيه فاستدعوه لحضوره معهم، فنظر نظرة في النجوم على عادتهم في استخراج العلم من التنجيم فأراهم أنه علم من النجوم أنه سيمرض غداً، فقال: إني سقيم، أي: سأمرض كما ظهر لي في النجوم، فانصرفوا عنه معرضين، فخلا بآلهتهم ومال إليها وقد وضعوا بين أيديها أطعمة وأشربة، فناداها ساخراً منها ومستهزئاً بها: ألا تأكلون، ما لكم ساكتون لا تتكلمون؟ فمال إليهم بيمينه يضربها ويكسّرها فجعلها جذاذاً وقطعاً مفرقة ولم يترك منها إلا واحداً كان أكبرها، فلما جاء القوم ورأوا في آلهتهم ما هالهم وأفزعهم تساءلوا من فعل هذا بآلهتنا؟ إن فاعل ذلك لمن الظالمين المعتدين، فقال قائل منهم: إنا سمعنا فتى يذكر آلهتنا يقال له إبراهيم، قالوا فانظروا وأتوا به على مرأى من الناس حتى يروه ويشهدوا عقابه ويروا ما يصنع به، فأتي به فقالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا، يعني تمثالهم وصنمهم الأكبر الذي تركه بلا تحطيم، ثم سخر الخليل عليه السلام منهم قائلاً: فاسألوا أصنامكم عمّن حطمها إن كانوا يتكلمون، ولما عرفوا أنها لا تنطق رجعوا إلى أنفسهم وتفكّروا بقلوبهم، فقال بعضهم لبعض: إنكم أنتم الظالمون حيث عبدتم ما لا ينطق ولكنهم مع اعترافهم بأنهم لا ينطقون لجوا في طغيانهم وأصروا على عنادهم، وهنا وجد إبراهيم عليه السلام الفرصة في إقامة الحجّة عليهم، فأخذ يوبّخهم ويعنّفهم على عبادتهم من لا ينطق ولا يستجيب ولا يدفع عن نفسه ولا يضرّ ولا ينفع، ثم تأفّف منهم ومن أصنامهم فقال لهم بكل صراحة وشجاعة: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: قبحاً لكم ولأصنامكم التي عبدتموها من دون الله.

ولما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب عدلوا إلى البطش واستعمال القوّة والتنكيل به، فأخذوه وحكموا عليه بالإحراق في النار، فقالوا: حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، وقالوا اقتلوه أو حرقوه، وقالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾، فأنجاه الله من النار، وقال: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾، وفي هذا المشهد الجلل جاءه جبريل عليه السلام فقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حين قيل له: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، رواه البخاري وتقدم في التفسير ويأتي في السيرة.

فخرج من النار سالماً ولم تصب منه إلا الوثاق الذي كان موثقاً به، وسيأتي لهذا الموضوع مزيد في الفوائد والعبر.

❋ ❋ ❋

هجرة الخليل من العراق إلى فلسطين

قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية.

وقال عز من قائل: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ

وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

كل ما جرى بين الخليل على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام وبين أبيه وقومه ومحاججتهم إياه ومناظرته طاغيتهم النمروذ وما آل إليه أمره معهم بعد إقامته الحجّة عليهم وتحطيمه أصنامهم مع إلقائه في النار، كل ذلك وقع بالعراق، ولما بلغ بهم الأمر المنتهى وأرادوا الانتقام منه وإحراقه ونجّاه الله تعالى منهم خرج من بين ظهرانيهم فاعتزلهم وهجر ديارهم وبلادهم وتوجه إلى بيت المقدس، ولم يكن معه مؤمناً في رحلته إلا زوجته سارة التي كان قد تزوجها ببابل أو بحرّان، وابن أخيه لوط عليهم السلام.

فوهبه الله عزّ وجلّ الأولاد الصالحين إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام، وجعل تعالى في ذرّيته النبوة والكتاب، فكل نبيّ بعث بعده فهو من ذرّيته، وكل كتاب نزل من عند الله على نبيٍّ من الأنبياء من بعده فعلى أحد بنيه وعقبه إكراماً من الله عزّ وجلّ له وخلعة منه تعالى عليه حيث ترك بلاده وأهله وأقاربه وهاجر إلى بلد الغربة التي بارك الله فيها للعالمين، وهي أرض فلسطين من الشام، فكانت بعده دار الأنبياء ومحط القداسة ونزول أصل الديانتين اليهودية والنصرانية، وكوّنت للبشرية تاريخاً طويلاً، وستأتي أخبار بنيه الصالحين لاحقاً إن شاء الله تعالى.

قال أهل السّير والأخبار: إن الخليل سكن فلسطيناً مدة، ثم جاءت مجاعة حملته على الهجرة إلى مصر فدخلها وكان بها ملك جبار لا يسمع بامرأة حسناء إلا أخذها، وكانت سارة امرأة الخليل عليهما السلام قد أُوتيت حسناً وجمالاً، فكان ما تقدم في حديث أبي هريرة من أخذه إياها ومحاولته مسّها، فغطّ واختنق مراراً ثم تركها وأخْدَمَها هاجر، وردَّ الله كيدَه في نَحْرِهِ.

❋ ❋ ❋

ولادة إسماعيل من هاجر عليهما السلام

قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

رجع الخليل عليه السلام من مصر مصحوباً بزوجته سارة وخادمتها هاجر القبطيّة التي وهبها لها ذلك الجبار فرعون وقته، فاشتاق الخليل إلى ولد صالح يحنّ إليه ويساعده على دعوته، وكانت سارة عقيماً فوهبته هاجر فواقعها فبشّره الله عزّ وجلّ بأنه سيولد له غلام حليم، فحملت به هاجر ولما وضعته غارت منها سارة.

❋ ❋ ❋

مهاجرة إبراهيم بهاجر وابنها إسماعيل إلى مكة

ولما اشتدّ الأمر بينهما على عادة الضرائر، وكادت سارة أن تبطش بهاجر أمر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام أن يهاجر بهذه مع ابنها إلى جبال فاران، وهي مكة المكرمة.

فخرج بهما حتى أنزلهما عند شجرة قرب زمزم الحالي، فانقلب راجعاً وتركهما في أرض ليس بها أنيس ولا ماء ولا زرع ونادته: لمن تتركنا، فلم يلتفت إليها ولما علمت أن ذلك بأمر من الله قالت: إذاً لا يضيعنا، ثم دعا الخليل ربه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ الخ، فانصرف وبقيت هاجر ورضيعها، فنفد ما كان معهما من الزاد وجعلت تتطلع عند صخرات الصفا والمروة وتسعى بينهما علّها تجد من يُغيثها، فلم ترَ أحداً وبعد إتمامها سبعة أشواط جاءتها البشرى بنبع زمزم بجناح جبريل عليه السلام، فكان غذاءهم وشرابهم حتى ترعرع إسماعيل وماتت هاجر عليها السلام وتزوّج إسماعيل من الجراهمة الذين كانوا قد سكنوا معهم، وكان الخليل عليه السلام يتردّد إلى أهله ويتفقدهم المرة بعد المرّة ثم ينصرف، إلى آخر ما تقدم في حديث ابن عباس الطويل، وسيأتي في الفوائد بعض عبره إن شاء الله تعالى.

❋ ❋ ❋

رؤيا إبراهيم ذبح ولده إسماعيل عليهما السلام

قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

كان إسماعيل عليه السلام أول مولود لإبراهيم عليه السلام وبكره، ولما شبّ وصار يسعى في مصالحه أراد الله عزّ وجلّ أن يبتلي خليله بذبح ولده العزيز عليه فأمره بذبحه، فامتثل أمر الله وسارع إلى طاعته ثم عرض ذلك على ولده الضحية ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه، فبادر الغلام الحليم إلى موافقة ما أمر به والده، فقال له: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، فلما استسلما لأمر الله عزّ وجلّ وعزما على ذلك وألقاه على وجهه ليذبحه من قفاه فلا يشاهده في ذبحه، فعند ذلك نودي من الله عزّ وجلّ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أي: قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك لأمر الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾، وأي بلاء أعظم من أن يؤمر الإنسان بذبح ولده، وفداه الله عزّ وجلّ بذبح وكبش عظيم، فذبحه بدلاً عن ولده، وبذلك انتهى هذا الامتحان الذي ليس وراءه امتحان إلا ما شاء الله عزّ وجلّ.

والقول بأن إسماعيل هو الذبيح هو قول أكثر العلماء، وهو ظاهر القرآن والتاريخ، فالقول بأنه إسحاق غلط.

* * *

بناء بيت الله الحرام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ

يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ الآية.

وقال جلّ علاه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۖ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

كان الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم بعد أن هاجر بإسماعيل وأُمّه إلى مكّة، وهي جبال قاحلة لا ساكن بها ولا أنيس ورجع إلى بيت المقدس حيث كانت زوجته سارة، وكان يتفقد أهله بمكة فيأتيهم الآونة بعد الآونة، وتقلب الزمان، وكبر إسماعيل عليه السلام وتزوّج وتوفيت والدته هاجر، والخليل يأتيهم المرة بعد المرة من الشام على البراق، وفي إحدى زياراته لإسماعيل عليهما السلام بوّأه الله مكان البيت، أي: أرشده إلى موضعه، وكان ربوة من الأرض مرتفعة، كذلك خلقه الله منذ خلق السمٰوات والأرض، كما قدمنا في حديث الصحيحين: **«إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السمٰوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة»**، فأمر الله عزّ وجلّ خليله ببناء بيت في تلك الربوة بمساعدة ولده إسماعيل عليه السلام، فرفعا قواعده وبنياه. واتفق جمهور العلماء على أن خليل الله إبراهيم عليه السلام هو أوّل من بنى هذا البيت، قال ابن كثير في البداية: ولم يجىء في خبر صحيح

عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسّك في هذا بقوله تعالى: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه المقدّر في علم الله المقرّر في قدرته المُعَظّم عند الأنبياء موضِعُه من لدن آدم عليه السلام إلى زمن إبراهيم، فكان هذا البيت أوّل مسجد وضع في الأرض لعبادة الله تعالى، وكان أول من بناه الخليل وولده إسماعيل وهما يدعوان عند ذلك بما جاء في القرآن الكريم، وإخلاداً لأثر الخليل عليه السلام وإكراماً لهذا البيت العظيم أنزل الله عزّ وجلّ الحجر الأسود والمقام من الجنّة. أما المقام، فهو حجر مربّع كان يقوم عليه الخليل عندما ارتفع البناء، فكان له كالمصعد يرتفع وينزل به، وغاصت قدماه فيه معجزة وآية من آيات الله بقيت فيه كأثر لخليل الله عليه السلام ما بقيت الدنيا، وهو الموضوع الآن قبالة الكعبة داخل قبّة زجاجية شفافة يراها كل من يريدها من الطائفين بالبيت. أما الحجر الأسود، فوضع عند الركن اليماني الشرقي، وجعل هنالك كرمز لمصافحة الله، ولله المثل الأعلى تقدّس وتنزّه عن صفات المحدثات، ولما نزلا من الجنّة كانا ياقوتتين في الضياء، وتقدم في الحجّ حديث الحجر والمقام: «ياقوتتان من يواقيت الجنّة».

ولما بنى الخليل البيت أمره الله عزّ وجلّ بتطهيره من الأقذار الحسية والمعنوية للطائفين به والقائمين والراكعين الساجدين، كما أمره أن يؤذن في الناس بحجّه، وأن يأتوا من جميع الأقطار والجهات... وكان خطابه للأرواح إذ هي التي كانت موجودة، فأجابته: لبّيك اللّهمّ لبّيك... فكل من أجاب لا بدّ أن يأتي هذا البيت إما حاجّاً أو معتمراً.

❊ ❊ ❊

وفاة الخليل وقبره عليه السلام

لا يعرف على التحقيق كم عاش الخليل عليه السلام ولا كيفية موته. نعم ظواهر نصوص القرآن الكريم تدلّ على أنه خلف بعده إسماعيل

وإسحٰق ويعقوب ولوطاً عليهم الصلاة والسلام، وجمهور المؤرخين على أنه أقبر في مدينة الخليل المعروفة اليوم. قال ابن كثير في البداية والنهاية: فقبره وقبر ولده إسحٰق وقبر ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليهما السلام ببلد حبرون، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم، وهذا تُلُقّيَ بالتواتر أمة بعد أمّة، وجيلاً بعد جيل من زمن بني إسرائيل، وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة تحقيقاً، فأمّا تعيينه منها، فليس فيه خبر صحيح عن معصوم، فينبغي أن تراعى تلك المحلة، وأن تحترم احترام مثلها، وأن تُبَجَّل وأن تُجَلّ أن يداس في أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تحتها.

قلت: وقد زرت الخليل مرتين والحمد لله مرة عام (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤)، ومرة ثانية عام (١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م)، ورأيت هنالك قبوراً عدة يقال إنها قبور الخليل وإسحٰق ويعقوب ويوسف وزوجاتهم، فالله أعلم بالواقع والأمر، كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى.

❊ ❊ ❊

ثناء الله على الخليل والإشادة به

{٥٠٩} - عن جُنْدُب رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول قبل أن يموت بخمس: «**قد كان لي منكم إخوة وأصدقاء وإني أبرأ إلى كل خليل من خلّته، ولو كنت متخذاً خليلاً من أُمّتي لاتخذت أبا بكر خليلاً، وإن ربي اتّخذني خليلاً كما اتّخذ إبراهيم خليلاً**».

رواه مسلم في المساجد (١٣/٥)، والنسائي في الكبرى (٣٢٨/٦)، وفي الباب عن جماعة.

أبرأ أي: أمتنع، والخليل: الصديق والحبيب الخاص.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.

وقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وقال جل علاه: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وقال جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

وقال جل علاه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ﴾.

وقال جل ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

لقد أشاد الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز وعلى لسان نبيّه المصطفى عليه الصلاة والسلام برسوله إبراهيم عليه السلام، وأثنى عليه الثناء الجميل في كثير من الآي إما مفرداً وإما مع من سبقه كنوح عليه السلام، ومن تناسل منه من أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم.

فهو خليل الرحمٰن الذي ما حظي بهذه الصفة أحد غيره وغير نبيّنا سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليها وآلهما وسلم، وهو المصطفى في الدنيا ومن الصالحين في الآخرة، وهو الذي ابتلاه الله عزّ وجلّ بكلمات من تكاليفه الشاقة فوفى بها، وهو الذي جعله الله عزّ وجلّ إماماً للناس من جميع أهل الملل والديانات الإلٰهيّة، فالكل ينتمون إليه ويقتفون أثره ويفخرون باتّباعه... ويمدحونه ويثنون عليه ويؤمنون به، وهو الذي جعل الله

عزّ وجلّ في ذريته النبوّة والكتب والصحف، فكل من جاء بعده من الأنبياء ورسل الله عليهم السلام فمن نسله، وكل كتاب إلٰهيّ بعده نزل على أولاده وأعقابه.

وهو الذي أشاد الله به مع ولديه إسحٰق ويعقوب المبشّر بهما من قبل الله تعالى، الذين أخلصهم بخالصة ذكرى الدار وجعلهم من المصطفين الأخيار، فعليه وعلى نبيّنا وعليهم جميعاً أفضل الصلوات وأزكى التسليم.

❊ ❊ ❊

إسماعيل عليه الصلاة والسلام

{٥١٠} ـ عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم على قوم من أسلم وهم يَتَناضَلُون في السُّوقِ، فقال: «**ارْمُوا يَا بَنِي إسماعيلَ، فإنَّ أَبَاكم كان رامياً**» الحديث.

رواه البخاري وغيره، وتقدم في الجهاد رقم (٢٩٢).

يتناضلون أي: يترامون أيهم يسبق. في الحديث أن إسماعيل أبٌ لبعض عرب اليمن.

{٥١١} ـ عن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمّة ورَحِماً**». وفي رواية: «**إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمّة ورحماً**» أو قال: «**ذمةً وصهراً**».

رواه أحمد (٥/١٧٣، ١٧٥)، ومسلم في الفضائل باب وصية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأهل مصر (١٦/٩٦، ٩٧)، ورواه الحاكم (٢/٥٥٣)، والطحاوي في مشكل الآثار (٣/١٣٤) عن كعب بن مالك بلفظ:

«**إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمةً ورحماً**» وسنده صحيح.

القيراط: جزء من الدينار أو الدرهم، واستوصوا أي: اقبلوا وصيّتي فيهم، أو ليوص بهم بعضكم بعضاً، والذمّة أي: ذمّة الإسلام وعهده، وهي التي دخلوا بها أيام عمر عندما فتحت فإنها فتحت صلحاً، والرحم هنا لكَوْن هاجر أمّ إسماعيل عليهما السلام من مصر، كما تقدم في قصة إبراهيم وسارة مع ذلك الجبار.

أما الصهر، فإن مارية التي كان أهداها المقوقس للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كانت مصرية قبطية.

قد قدمنا أن نبيّ الله سيدنا إسماعيل عليه السلام كان بكر أبيه وأول مولود له، وكان من هاجر التي وهبتها له زوجته سارة، وكانت ولادته ببيت المقدس، ومنه هاجر به مع أُمّه إلى مكة المكرمة، وبها عاش وتوفي ودُفن كوالدته، وكان من جملة المرسلين بعث إلى عرب الجزيرة، ولم يأتِ نبيّ لهم بعده، حتى جاء الخاتم حبيبنا المصطفى صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم وحده مفرداً وأثنى عليه، كما ذكره مع والده في قصته في بناء البيت، وفي قصة ذبحه كما تقدم كما ذكره مع الأنبياء عموماً، قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

فقد وصفه الله عزّ وجلّ في هذه الآية بأربع صفات كل واحدة منها لها شأن:

أولاها: صدق وعده وعدم خلفه لذلك، ولا أوفى من صبره على الذبح وتسليمه نفسه لوالده طاعة لله ليذبحه امتثالاً لأمر الله تعالى بذلك.

ثانيها: وصفه بالنبوّة والرسالة، ويا لها من صفة.

ثالثها: كان يحض ويحثّ أهله على أداء شعائر الدين، وخاصة أمهاتها؛ كالصلاة والزكاة.

رابعها: نيله رضاء الله عزّ وجلّ، وهذا نهاية المدح، فإن الغاية القصوى التي يتطلع إليها كل عبد مؤمن، هي أن يكون عند الله مرضيّاً، ومن كان كذلك كان من الفائزين.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

فذكره مع هذين النبيين العظيمين ووصف الثلاثة بأنهم من الأخيار، والمراد: من أكابر الأخيار، وهم صفوة الخلق من أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

❊ ❊ ❊

من فوائد قصة إبراهيم وسارة وهاجر وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام

قصة الخليل عليه الصلاة والسلام من أروع القصص القرآنية، وفيها من العبر والذكريات والذكرى ما لا يخفى على من تدبّرها وأمعن النظر فيها، وإلى القارىء بعض ما يؤخذ منها؛ ففيها ما قام به من دعوة أبيه وقومه زمناً غير قليل يحاورهم في الله ويرشدهم إلى الإيمان به وترك التماثيل والأصنام، فردّوا دعوته وحاججوه وناظره طاغيتهم وهو في كل ذلك يقابلهم بالحكمة والنزاهة، إلى أن أيِسَ منهم، فضحى بحياته وقام بتحطيم أصنامهم وتكسيرها قطعاً قطعاً، فأخذوه وألقوه في النار، فأنجاه الله منها وجعلها عليه برداً وسلاماً.

وفيها مع معجزة عدم تأثير النار فيه: أن الحيوانات كلها كانت في صفه تدافع عنه بإطفاء النار حتى الضفدع، غير الوزغ، فإنها كانت في صف الكفار تنفخ النار، فلذلك أمرنا نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بقتلها، ورتّب على ذلك الأجر الجزيل، كما يأتي في الأدب.

وفيها هجرته من العراق مسقط رأسه إلى حران ثم الشام، وكان أول من هاجر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم توالت هجرة الأنبياء حتى خاتمهم سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وفيها إنعام الله تعالى عليه بالأولاد عوض ما فقده من أهل وأقارب في بابل.

وفيها دخوله مصر ولا ندري السبب في ذلك، علماً بأن الإسرائيليين يزعمون أن السبب كانت المجاعة التي نزلت ببلاد كنعان من الشام، فالله تعالى أعلم.

وفي قصته عليه السلام مع ذلك الطاغية في شأن زوجته سارة عِبَر ومعجزات خاصة، ففيها جواز الكذب للمصلحة مع التعريض، وفيها حفظ الله عزّ وجلّ لأوليائه الصالحين وزوجاتهم من كيد الكائدين وغيرته عليهم وحمايتهم مما يخدش كرامتهم وأعراضهم، وفيها فضل سارة وانتقام الله تعالى لها من ذلك العدوّ واختناقه كلّما أراد مسّها، وهذا من عظيم عناية الله تعالى بها واستجابته لها كلما صلّت ودعت، وفيها أن السيدة هاجر عليها السلام أصلها مصرية قبطية، وهو الذي صرّح به حديث مسلم عن أبي ذرّ الذي ذكرناه قريباً، وفيه: «**فإن لهم رحماً**»، والمراد بالرحم هي هاجر، فالمصريون الأقباط أخوال العرب، فينبغي البرور بهم والإحسان إليهم والتواصي بهم، ولا سيّما المسلمين.

وفي قصة هاجر مع سارة عندما ولد إسماعيل من هاجر عِبَرٌ أيضاً وفوائِدُ هامّة، فمنها بيان أن النساء مجبولات على الغيرة بينهنّ، وأن الضرائر مهما بلغن في الصلاح والتقوى لا يخرجن عن ذلك، وفي حياة أُمّهات المؤمنين نساء النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نماذج في ذلك، ولكنهن لم يصل بهنّ الأمر إلى ما بلغ من سارة مع هاجر، فإنها أرادت البطش بها، ولذلك أمر الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام أن يُهاجِرَ بها إلى جبال فاران بمكة، فلم يجتمعا بعد قط ولم يلتقيا.

ومنها ما كان عليه الأنبياء وذووهم من التوكّل والاعتماد على الله

تعالى والثقة به، وإلا فمن هذا الذي يترك امرأة في القفار بين جبال قاحلة ليس معها غير رضيعها، وأين توجد هذه التي تثِقُ وتصبر على الوحدة في تلك الأماكن، ولكنها الثقة بالله تعالى والتوكّل عليه مع العناية الإلٰهيّة والتوفيق الربّاني.

ومنها فضل السيدة هاجر وتمام يقينها ومعرفتها بالله وصبرها على الغربة وضيق العيش، ولذلك أكرمها الله تعالى بأن جعل آثارها شعائر للحجّ يَقْتَدِي بها فيها كلُّ من جاء بعدها من الأمم التي تدين بدين الإسلام، وخاصّة الأُمّة المحمدية، فالسعي بين الصفا والمروة أثر من آثارها جُعِل واجباً إسلامياً، وشَعِيرَةً من شعائر الحجّ والعمرة لا يصح واحد منهما إلا مع السعي بينهما إشادة بذلك البيت الطاهر وإخلاداً لذكراهم.

وقد اختلف العلماء في نبوّة هاجر كباقي النسوة الأُخريات، مثل حواء وآسية وأمّ موسى ومريم عليهنّ السلام، فذهب جماعة إلى نبوتهنّ، وبه قال أبو الحسن الأشعري وابن حزم وغيرهما، وذهب الجمهور إلى أن النبوّة خاصة بالرجال حتى قال سراج الدين الفرغاني في بدء الأمالي: وما كانَتْ نَبِيّاً قَطّ أُنثى، ولا عَبْدٌ وشَخْصٌ ذُو افتِعَال.

ومنها أن الملائكة قد تكلم الصالحين وتتراءى لهم وتبشّرهم بما هم له أهل، وفي ذلك أحاديث تشهد له، جمعها الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه «تنوير الحلك في إمكان رؤية النبيّ والملك».

ومنها فضل زمزم وأن ماءها أثر ضربة جبريل عليه السلام، وهي آية من آيات الله الباهرة عند بيت الله الحرام، وماؤها أشرف ماء على وجه الأرض، وهي عين معين عبر الأجيال والأعصار منذ انفجارها.

ومنها أن هذا الماء يكفي للتغذية وحده، وقد عاشت به هاجر وولدها مدة طويلة.

{٥١٢} ـ ولذلك جاء في الحديث الذي قدّمناه في الحج عن رسولنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في شأن زمزم: «**هي طعامُ طُعْم، وشفاءُ سُقْمٍ**»، رواه الطيالسي ومسلم وغيرهما، وسيأتي في قصة إسلام أبي ذرّ أنه

بقي بمكة شهراً ليس له غذاء إلا زمزم، رواه البخاري في المناقب.

ومنها دعاء الخليل مع أهله وذرّيته وسؤاله ربّه أن يخرج منهم رسولاً يتلو عليهم آياته فاستجاب الله دعاءه في ذلك كله، وفيها غير ذلك.

وفي حديث ابن عباس في صور إبراهيم وإسماعيل ومريم داخل الكعبة الخ، وأمره صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بمحوها وامتناعه من دخول الكعبة: مشروعية محو آثار الصور وإزالتها وعدم الدخول لمحلات وجودها، وقد قدمنا بعض هذا في اللّباس والزينة، ويأتي بقيّته في الأدب إن شاء الله تعالى.

* * *

سيدنا لوط عليه السلام

{٥١٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«يَرْحَمُ الله لوطاً لقد كان يأوي إلى رُكْنٍ شديدٍ، فما بَعث الله مِن بعده نبياً إلا في ذِروة من قومه»**، وفي رواية: **«إلا في ثروة من قومه»**، وفي رواية: **«إلا في مَنَعَة»**.

رواه أحمد (٣٢٦/٢، ٣٣٢، ٣٤٦، ٣٨٩)، والبخاري في الأنبياء (٢٢٦/٧) وفي التفسير، ومسلم في الفضائل (١٢٣/١٥)، والترمذي (٢٩١٤)، والنسائي في الكبرى (٣٦٩/٦) وغيرهم بألفاظ مطولاً ومختصراً.

ركن شديد أي: قوة، والمراد بالركن هنا جانب الله عزّ وجلّ، والذّروة ـ بكسر الذال وضمّها ـ أعلى الشيء، والثروة ـ بفتح الثاء ـ الغنى والسعة، ومنعة ـ بفتحات ـ هي القوة.

{٥١٤} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«مَنْ وَجَدْتُمُوه يَعْمَل عملَ قومِ لُوطٍ فاقتلوا الفاعلَ والمفعولَ بهِ»**.

رواه أحمد رقم (٢٧٢٧، ٢٧٣٢)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٣٢٥)، وابن ماجه (٢٥٦١)، والحاكم (٣٥٥/٤)، والبيهقي (٢٣٢/٨) بسند حسن صحيح وصححه الحاكم وأقرّه الذهبي.

قد قدّمنا أن سيدنا لوطاً عليه السلام هو ابن أخي سيدنا إبراهيم عليه السلام، فهو ابن هَارَان بن آزَرَ، وكان قد آمن بعمّه الخليل عليهما السلام وهاجر معه إلى حاران ثم إلى بيت المقدس، ومن ثم أرسله الله تعالى إلى مدينة سَدُوم حيث البحر الميّت اليوم، وموقع ذلك جنوب الأردن لجهة الغرب، وكان أهل سدوم أفجر الناس وأرذلهم وأسقطهم حيث كانوا يأتون الرجال في أدبارهم، فنهاهم عن ذلك، فأصروا على فاحشتهم حتى أهلكهم الله عزّ وجلّ كما فصّل ذلك في كتابه الكريم، وقد جاءت قصتهم مبسوطة في عدة سور، وهي كالآتي:

فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

وقال في هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

وقال في الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ ۖ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ۖ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وقال في الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾

وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

وقال في النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

وقال في العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقال في الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وقال تعالى في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام

عليم: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾.

قام نبيّ الله لوط عليه السلام يدعو قومه فخاطبهم أولاً بدعوة جميع الرسل عليهم السلام، فقال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾، فأمرهم بتقوى الله من كفرهم وفجورهم وأخبرهم بأنه جاءهم رسولاً مبعوثاً إليهم من عند الله أميناً على ما حمّله الله، ثم أنكر عليهم ثانياً ما يأتونه من تلك الفاحشة النكراء من إتيان الذكور في أدبارهم دون النساء والأزواج التي خُلِقْنَ لهم، وقال لهم: إنكم قوم مسرفون قد تجاوزتم ما جعله الله تعالى لكم من النساء إلى ما لا يحلّ لكم من الذكور، ولا يجمل بالعاقل أن يأتيه فأنتم قوم معتدون حيث إنكم تفعلون فاحشة ما سبقكم بها أحدٌ من العالمين مع ما أنتم عليه من قطع الطريق بالذكور وإتيانكم المنكر في ناديكم من اللواط الجماعي، فما كان جوابهم بعد هذه النصائح والإرشادات إلا أن قالوا: أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أُناس يتطهرون، فجعلوا المدح ذمّاً والقذارة والنجاسة طهارة وصارحوه قائلين: لئن لم تنته يا لوط عما تنهانا عنه وتدعونا إليه لتكوننّ من المخرجين من قريتنا ونطردك من بين ظهرانينا، وقالوا ساخرين به: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين.

فلما أصرّوا على كفرهم وتكذيبهم لنبيّهم وتماديهم على ما جُبِلُوا عليه من إتيان الرجال، قال لوط عليه السلام: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾، فبعث الله تعالى ملائكته المقرّبين، فمروا على خليل الله إبراهيم

عليه السلام فظن أنهم ضيوف من البشر، فبشّروه بالغلام العليم، ثم قالوا له: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾، فقال لهم إبراهيم: إن فيها لوطاً قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ فانصرفوا وأتوا لوطاً في صورة ذكور مُرْدٍ حِسَانِ الوُجُوه فأضافهم، فجاء القوم مسرعين فرحين يريدونهم فأحاطوا به وراودوه أن يسلّمهم إياهم، فحاورهم في شأن ضيوفه، فقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾، أي: ألم ننهك أن تضيف أحداً ممن جاءك من الذكور أو تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بما نريد منه.

قال: يا قوم اتركوا ضيوفي، وهؤلاء بناتي تزوّجوا بهنّ فإنهن أطهر لكم واتّقوا الله، أليس فيكم رجل رشيد عاقل يمنع القبيح، قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾، أي: ليس لنا فيهن رغبة ولا حاجة، وإنك لتعلم ما نريد، أي: أنك لتعلم غَرَضَنا وهَدَفَنا، كل هذا وهو يظنّ أن الملائكة رجال من البشر، ولما اشتدّ عليه الأمر وساءه ما رأى وضاق بذلك ذرعاً، وقال لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾، أي: لو كانت لي قوة أستطيع أن أدافع أذاكم بها، أو كانت لي عشيرة وأنصار تنصرني عليكم لبطشت بكم، فلما رأى الملائكة تَحَرُّج لوط وقَلَقَه، قالوا له: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾، فخرج لوط وأهله المؤمنون، ولم يكن فيهم بيت مسلم مؤمن غير بيته، فلما جاء أمر الله بعذابهم، وكان ذلك وقت الصبح أمَرَ الله تعالى أولئك الملائكة أن يرفعوا قرى أولئك الكَفَرة الفجرة إلى عنان السماء، ثم يقلبونها، فأصبح ما كان عاليها سافلها، وأتبعوها بحجارة من سجيل، أي: طين صُلْبٍ مَشْوي بالنار متتابعة معلمة بعلامة من يرمي بها، فأهلكهم الله جميعاً ولم ينجِ منهم أحد غير لوط وأهل بيته المؤمنين. أما زوجه، فكانت من الهالكين، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾،

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وهنا انتهى أمرهم، فكانت العاقبة للوط وأهله المؤمنين والدمار والعذاب والخزي للقوم الكافرين الفاسقين.

❊ ❊ ❊

من فوائد قصة لوط عليه السلام

في هذه القصة عدة فوائد وعِبَر نجملها في الآتي:

فمنها: أن لوطاً عليه السلام لم يكن من نسب قومه أهل سدوم، وإنما هو من أهل العراق من نسب إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما تقدم.

ومنها: أن الأنبياء قد يتوافرون في وقتٍ واحد، وهذا لا يحتاج إلى استدلال، فإن ذلك من اليقينيات.

ومنها: أن الأنبياء بعد لوط كانوا يبعثون في قوّة ومنعة من قومهم ليؤيدوهم وينصروهم.

ومنها: شفقة الخليل عليه السلام على لوط ومن معه حيث تحاور مع الملائكة في إنزال العذاب بقوم لوط...

ومنها: أن اللّواط أول من أحدثه قوم لوط، كما هو نصّ القرآن الكريم.

ومنها: أن مدينتهم أصبحت بحيرة منتنة على مرّ العصور والأجيال حتى يومنا هذا، وفي ذلك عبرة لمن يتعاطى هذه الفاحشة.

ومنها: جفاء قوم لوط وقسوتهم الشديدة، وأنهم لم يؤمن منهم أحد غير بيت لوط.

ومنها: أن الملائكة قد تتشكل في صفات بني آدم، وفي هذا أدلّة كثيرة.

ومنها: أن من أحبّ شيئاً أعماه وأصَمّه وتعلّق به، ودافَعَ عنه، ولو كان في مُنْتَهى السقوط والنذالة والقذارة.

ومنها: أن الضيافة من سنن الأنبياء، وكان الخليل إمامهم فيها، وتبعه ابن أخيه لوط عليهما السلام.

ومنها: كفر زوجة لوط وانحيازها إلى قومها الكَفَرة حتى أهلكها الله مع الكافرين، ولم ينفعها إيمان زوجها لوط ونبوّته كما حصل ذلك قبلها من زوجة نوح عليه السلام، كما ضرب الله المثل بهما في القرآن للكفار؛ كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

فخانتاهما، يعني: أنهما كفرتا وكانتا تبلغان قومهما أخبار زوجيهما... وفي ذلك عبرة أي عبرة.

ومنها: استدلّ جماعة من أهل السلف وغيرهم بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾، بأن الإيمان والإسلام شيء واحد؛ لأن المؤمنين المخرجين هم المسلمون الموجودون، وقد قدمنا البحث في هذا في الإيمان، فارجع إليه.

ومنها: اختلف العلماء في حدّ اللوطي، فالأئمّة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد أنه يقتل مطلقاً كالمفعول به، وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفى في الحدود، فارجع إليه.

❊ ❊ ❊

إسحق، يعقوب، يوسف عليهم الصلاة والسلام

{٥١٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أكرم الناس يوسف نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن**

نبيّ الله ابن خليل الله»، وفي رواية: **«إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم»**.

رواه البخاري ومسلم بالرواية الأولى، وأحمد والترمذي والنسائي وغيرهما بالرواية الثانية، وتقدم في قصة الخليل وفي الإيمان.

{٥١٦} ـ وعن أبي ذرّ رضي الله تعالى عنه أنه سأل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن أول مسجد وضع للناس أول، قال: **«المسجد الحرام»**، قلت: ثم أيّ؟ قال: **«المسجد الأقصى»**، قلت: كم كان بينهما؟ قال: **«أربعون عاماً»**...

رواه أحمد والشيخان، وتقدم في التفسير وفي قصة إبراهيم.

إسحٰق ويعقوب جاء ذكرهما في القرآن الكريم في غير ما سورة، وبشر الله بهما خليل الرحمٰن بواسطة الملائكة في طريقهم إلى إهلاك قوم لوط، كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

وقال عزّ من قائل في شأن إسحاق وحده: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾، في صَرَّة: أي صيحة وضجة. فصكّت وجهها أي: لطمته بيدها تعجباً.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ الآية.

وقال تعالى فيهما أيضاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾...

فهذه الآيات كلها سيقت لبشارة الخليل وسارة بابنيهما العظيمين إسحٰق ويعقوب، وأنهما هبة لهما من الله عزّ وجلّ، وقوله: نافلة أي: زيادة زاده الله تعالى إياه على إسحٰق.

فقد كان الخليل إبراهيم على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام قد تقدم في السن كزوجته سارة، ولم يولد لهما شيء، ولما أُهديت له هاجر دعا الله عزّ وجلّ أن يهب له ولداً صالحاً، فبشّره بغلام حليم، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾، فكان إسماعيل عليه السلام، ولما غارت سارة من هاجر وذهب بها وبابنها إبراهيم عليهم السلام إلى جبال فاران، ورجع بشرهما الله تعالى بغلام آخر من سارة وزادهما ولداً آخر حفيداً لهما، فجاء إسحٰق ثم عاش فتزوج وجاء ثانياً يعقوب وولدا معاً في حياة سيدنا إبراهيم وزوجه سارة عليهم السلام، وكان ذلك من آيات الله الباهرة ورحمته وبركاته على بيت النبوّة حيث وهب الله تعالى له إسماعيل وإسحٰق على كبر سنّه، كما قال جلّ ثناؤه عنه وهو يحمده على ما أعطاه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾.

وكان كل من إسحٰق ويعقوب وإسماعيل كالخليل ونوح قبله والخاتم بعده من كبار الأنبياء الصالحين الذين أكرمهم الله عزّ وجلّ بوحيه الإلٰهي؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ الآية.

وكانوا من جملة الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم وبما نزل عليهم من الكتب والصحف، كما قال جلّ علاه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ الآية.

وأثنى عليهم سبحانه وتعالى الثناء الجميل بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

وقال: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾.

وجاء ذكر الجميع في وصية إبراهيم ويعقوب بنيهما، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾، وسيأتي ذكر يعقوب عليه السلام في قصة ابنه يوسف عليه السلام مراراً.

❊ ❊ ❊

من فوائد وعبر قصتي إسحاق ويعقوب عليهما السلام

أولاً: إسحٰق ويعقوب من أكابر الكرماء أباً عن جد، والكرم هنا هو النبوّة والعلم والدين والشرف، ولا أكرم من ذلك عند الله عزّ وجلّ.

ثانياً: في حديث أبي ذرّ دليل على أن أول بيت أسّس في الأرض لعبادة الله تعالى هو بيت الله العتيق بمكة المكرمة، وأن أوّل من بناه الخليل كما قدمنا، ثم كان بعده المسجد الأقصى، وكان بينهما أربعون عاماً، وجمهور العلماء والمؤرخين أن بانيه الأول يعقوب عليه السلام، وليس سليمان عليه السلام كما قيل، فإن هذا كان جدّده فقط، كما يأتي في ترجمته.

ثالثاً: إن كلاً من إسحٰق ويعقوب عليهما السلام ولدا ببيت المقدس في حياة إبراهيم وسارة عليهما السلام.

رابعاً: من إكرام الله عزّ وجلّ للخليل وأولاده إسماعيل وإسحٰق ويعقوب عليهم السلام أن جعل عزّ وجلّ النبوّة والكتاب في أولادهم، فما من نبي جاء بعدهم وهم أُلوف الآلاف إلاّ كان من ذرّيتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

خامساً: إسرائيل الذي تنتسب إليه اليهود هو يعقوب عليه السلام، وهو أبو الأسباط الذين تفرّعوا من أولاده الإثني عشر.

سادساً: لقد امتحن يعقوب امتحاناً عظيماً بفقدان ولده يوسف عليهما السلام، كما يأتي عقب هذا، فصبر وبكى حتى عمي.

سابعاً: في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ هو كالنص في أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام؛ لأنه من المستحيل الذي ينزه الله تعالى عنه أن يبشّر خليله بولد وولد لهذا ثم يأمره أن يذبح الولد الأول، فهذا يجل عنه مولانا العظيم.

ثامناً: الجمهور أن قبر إسحٰق ويعقوب عليهما السلام مع إبراهيم في مدينة الخليل.

❊ ❊ ❊

يوسف عليه السلام

{٥١٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**يرحمُ الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لَبِثْتُ في السِّجْنِ ما لَبِثَ يوسف ثم أتاني الداعي لأجَبْتُه**».

رواه البخاري في الأنبياء (٧/٢٢٩).

وتقدم حديث ابن عمر: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام**»، رواه البخاري وغيره.

{٥١٨} ـ وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال لها: «**مري أبا بكر يصلّي بالناس**»، قالت: إنه رجل أسيف متى يقم مقامَك رقَّ، فعاد فعادت، فقال في الثالثة أو الرابعة: «**إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر**».

رواه البخاري في الأنبياء (٧/٢٢٨) وفي مواضع.

قد قدمنا أن أكرم الناس من الأقدمين هؤلاء الأربعة الذين منهم يوسف وكَرَمُهم هو النبوة والعلم والتقوى وشرَفُ النسب، وكانوا جميعاً من أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم.

وسيدنا يوسف عليه السلام قصته عجيبة وغريبة من نوعها ليس لها مثيل في قصص القرآن لا في أسلوبها، ولا في معناها ولا في ذكرها.

وقد جرت عادة القرآن أن يذكر كل قصص الأنبياء مفرّقة في عدة سور بألفاظ وأساليب مطوّلة ومختصرة حسب الذكرى والعظة والعبرة وتسلية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وتثبيت قلبه الشريف.

أما قصة يوسف عليه السلام فجاءت مفردة في موضع واحد، وسورة خاصة أطلق عليها سورة يوسف.

ويتجلّى فيها شدة البلاء الذي أصاب يوسف وأباه يعقوب عليهما السلام، فقد فَقَدَ يعقوب ولده العزيز وبكى عليه حتى عمي وذهبت عيناه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾، وطال بلاؤه عدة عقود، لكنه لم ييأس من روح الله، فإنه كان متيقّناً بالفرج ورجوع ولده إليه واتّصاله به. أما يوسف عليه السلام، فتوالت عليه سلسلة من البلايا والنكبات والمحن: بلاء حسد إخوته وكيدهم، وبلاء إلقائه في الجبّ، وبلاء بيعه بثمن بخس، حتى أصبح عبداً وغلاماً لعزيز مصر وبلاء تعلق قلب امرأة العزيز به وعشقها إياه، وبلاء مراودتها عن نفسه بشتى طرق الإغراء، وبلاء اعتقاله وسجنه، فلقي كل ذلك بالثبات والصبر حتى جاءه الفرج والأنس والطمأنينة كوالده يعقوب عليهما السلام الذي قال الله تعالى عنه؛ ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

* * *

بداية قصة يوسف عليه السلام

كان لنبيّ الله يعقوب عليه السلام اثنا عشر ذكراً عشرة منهم أشقّاء،

واثنان من الأب هما يوسف وبنيامين، وكان يوسف عليه السلام أحبّهم إلى أبيه فغاظ ذلك إخوته العشرة، فتآمروا عليه فيما بينهم وأرادوا إقصاؤه عن أبيه ولو بالقتل... وكان من العوامل التي زادتهم حسداً رؤيا يوسف عليه السلام أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فحذّره والده من قصّها على إخوته، فيكيدوا له كيداً، وبيّن له بأنه سيكون له مستقبل زاهر، وأن الله سيصطفيه بالنبوّة ويعلّمه تفسير الرؤيا وسيتمّ نعمته عليه وعلى آل أبيه كما أتمّها على إبراهيم وإسحٰق، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ إلى قوله؛ ﴿ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

فتآمر الإخوة على يوسف عليه السلام وبيّتوا له ولأبيه كيداً، فأتوا أباهم وطلبوا منه أن يرسله معهم إلى المراعي ليلعب ويمرح ويتمتّع بالأكل والشرب معهم، وأكّدوا له أنه لن يصيبه ما يكره في حقّه، فأجابهم يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣﴾، فأجابوه بما طمأنوه من مكرهم وكيدهم، فلما سلمه لهم وغابوا عنه قال بعضهم: نقتله، وقال أعقلُهم: ألقُوه في أسفل الجبّ وغَوره، فلعلّ قافلة تلتقطه منه وتحمله معها فألقوه في الجبّ، فأوحى الله إليه وهو في الجب: لتخبرنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون.

ولما نفذوا مؤامرتهم عمدوا إلى قميص يوسف ولطّخوه بدم كذب، فأتوا أباهم مساء متظاهرين بالبكاء والحزن، وقالوا: يا أبانا إنا مضينا نستبق في الجري والرمي وتركنا يوسف عند متاعنا، فأكله الذئب... فأجابهم أبوهم قائلاً: بل زيّنت لكم أنفسكم أمراً خطيراً فأنا صابر عليه الصبر الجميل، ومن الله تعالى وحده أطلب العون.

وفي هذه الجمل يقول تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ إلى أن قال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

اطمأنّ يوسف عليه السلام في غور الجبّ ترعاه عناية الله عزّ وجلّ، فكان من قدر الله أن مرّت قافلة تجارية قاصدة مصر فبعثوا واحدهم ليأتي لهم بالماء من البئر، فلما ألقى دلوه تعلق به يوسف عليه السلام حتى خرج من البئر، ففرح به الرجل الساقي وقال: يا بشراي هذا غلام، فأخفوه بين أمتعتهم وجعلوه من بضاعتهم، ولما وصلوا إلى مصر باعوه بدراهم قليلة، وكان الذي اشتراه عزير مصر ووزير الملك، فأرسله إلى بيته وأوصى زوجته به خيراً، ومكث يوسف في بيت الوزير من طفولته إلى أن ترعرع وشبّ، فآتاه الله تعالى حكماً وعلماً، اقرأوا قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

كان نبي الله الكريم يوسف عليه السلام قد أعطي شطر الحسن، كما جاء في حديث الإسراء.

{٥١٩} ـ فعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**أُوتيت بالبراق وهي دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه**... وفيه: **ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قال؛ ومن معك؟ قال؛ محمد، قال: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم، ثم ذكر السماء الثانية ثم الثالثة، قال: فإذا أنا بيوسف صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وإذا هو قد أعطي شطر الحسن**» الحديث، رواه أحمد والشيخان وتقدم في تفسير الإسراء مطولاً.

هذا هو الذي حمل امرأة العزيز على الافتتان بيوسف عليه السلام إنه الحسن والجمال في عنفوان الشباب، فرأت وشاهدت ما لم تصبر عليه، فراودته وطلبت منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وغلّقت الأبواب ونَادَتْهُ: تعال وهلمّ، فعاذ بالله من ذلك ثم همّت به عازمةً على الفاحشة لطغيان حبّه وعشقه على قلبها، وهمّ بها، أي: مالت نفسه إليها بمقتضى الطبيعة البشرية، وحدّثته نفسه بذلك دون عزم وقصد، فصرف الله تعالى عنه الفجور والمنكر لأنه من عباد الله

الذين أخلصهم لنفسه، ثم هرب منها يريد الباب فجرت وراءه وأخذته من ورائه وشقّت قميصه من دبرٍ، ووجد العزيز عند باب القصر فجأة، فعاين ما راعه، ولمهارة فائقة من المرأة قلبت التهمة على يوسف، فشكته إلى زوجها بأنه يريد السوء بأهله، وما جزاء فاعل ذلك إلا السجن أو العذاب، فدافع الكريم عن نفسه مع وجود الشاهد والقرائن، ولكن بدون جدوى، حصل هذا الحادث في بيت الوزير، فبلغ ذلك نساء المدينة، فتكلّمن في امرأة العزيز ولُمْنَها على ذلك، فبعثت إليهنّ وهيّأت لهن موضعاً للجلوس وقدمت لهن الأطعمة والفواكه والسكاكين، فلما أكلن وجعلن يقطعن الفواكه قالت ليوسف: اخرج عليهنّ، فلم يشعرن إلا ويوسف يمرّ من بينهنّ، فلما شاهدنه رأين ما بَهَرَهُنَّ من كمال الجمال الذي ما رأينَ مثلَه، فأعظمْنَه ودهشن وبدل أن يُقَطِّعْنَ الفاكهة جعلن يُقطعن أيديَهن ولا يشعُرن بذلك، فقلن: حاش لله، أي: تنزّه الله عن صفات العجز وتعالت عظمته في قدرته على خلق مثله، ليس هذا بشراً وما هو إلا ملك من الملائكة، قالت امرأة العزيز: وهذا هو الذي لُمْتُنَّنِي وعاتَبْتُنَّني في حُبّه وعِشقه، فانظرن ما لقيتُنَّ منه من الافتتان والدهش والإعجاب.

ثم سأل يوسف الكريم عليه السلام دخول السجن الذي هدّد به مؤثراً له على الوقوع في الفاحشة، فاستجاب الله تعالى له فصرف عنه كيد النساء، وفيما ذكرناه جاءت الآيات من قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ولما شاعت الفضيحة في أرجاء المدينة رأى الوزير أنه لا يخلصهم من هذا العار إلا إقصاء يوسف عن بيت الوزارة وإدخاله السجن إلصاقاً للتهمة به، رغم أنه ثبتت لديهم براءته وعفّته.

دخل يوسف عليه السلام السجن ظلماً ودخل معه فتيان من خدم الملك، وبعد زمن رأى كل منهما رؤيا كان يوسف عليه السلام هو معبرهما شاع بين المساجين فضل يوسف وعلمه وأنه من بيت عريق النسب، وجعل يدعوهم إلى الله تعالى ويبيّن لهم بطلان الإشراك بالله الذي لا يرتكز على برهان، اقرأوا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ

حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ إلى قوله: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

خرج الفتيان من السجن وصدقت رؤياهما، فمكث يوسف بعدهما سنين عدة، ولما أراد الله عزّ وجلّ الفرج عنه وإظهار فضله للعموم، رأى الملك رؤيا هالته وأفزعته عرضها على الكهنة والحكماء، فلم يعرفوا لتعبيرها معنى، فنمي إلى الملك بأن في السجن رجلاً له علم بالتعبير، فبعث إليه بالرؤيا فعبّرها أحسن تعبير، وكانت الرؤيا كالتالي: رأى سبع بقرات سمان وسبع عجاف، والعجاف يأكلن السمان، وسبع سنبلات خضر وسبع يابسات، وهذه السبع أيضاً تأكل الأُخريات الخضر.

فقال له: تأتيكم سبع سنين خصبة، ثم تأتي بعدها سبع شداد، ثم يأتي بعد السنين المجدبة عام خصب يغاث فيه الناس بالمطر وتجود الأرض بالغلّات الوفيرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾.

لما بلغ الملك تفسير الرؤيا أمر بإخراج يوسف من السجن وأن يأتيه، فأبى أن يخرج حتى يعلم الملك سبب سجنه وترتفع عنه التهمة ويستدعي النسوة مع زليخا ويستفسرهن في شأنه، فأرسل الملك إلى النسوة واستوضحهن حقيقة ما يعلمن عن يوسف، وكان ذلك بحضور امرأة العزيز، فبرأن ساحته وقلن ما علمنا عليه من سوء، وقالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق، أي: اتّضح وتبيّن.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولما وقف الملك على براءة يوسف وتحقق فضله وأمانته وعلمه استخلصه لنفسه، وجعله أميناً على الخزائن. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

خرج يوسف من السجن وأفرج عنه وأصبح ذا مكانة عند الملك، وصدق الله رؤيا الملك، وجاءت السنون المجدبة فأصابت المجاعة أهل كنعان الذين كان منهم يعقوب وأولاده، وسمعوا بوجود الخير والرزق في مصر، فطلب يعقوب من أولاده أن يذهبوا إليها ليأتوا بما يقتاتون به من قمح وشعير، دخلوا مصر وهم عشرة إخوة سلالة الكرام يملأون العيون، فدخلوا على يوسف فعرفهم وسألهم عن بلادهم وعائلتهم، فأكرم ضيافتهم وزوّدهم بالعطاء الوفير ووضع بضاعتهم في رحالهم، وطلب منهم أن يأتوه مرة أخرى بأخيهم الصغير، وأكّد عليهم بأنهم إن لم يأتوه بالأخ فلا حظّ لهم في الميرة وأن لا يقربوه، رجعوا إلى أبيهم وقصوا عليه خبر يوسف وما قابلهم به من حفاوة وإكرام، وأنه سألهم أن يأتوه بأخيهم وعرفوا والدهم بأنهم إن لم يصحبوه معهم فسيمنعون من الميرة، وطلبوا منه أن يسمح لهم بأخذ بنيامين معهم في الرحلة الثانية، وبعد أخذ وردّ سلّمه لهم وأخذ عليهم العهد أن يعيدوه وأن لا يمنعهم عن ردّه مانع إلا أن يهلكوا، خرجوا ومعهم بنيامين وقد زوّدهم والدهم بوصايا هامّة، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه وعرفه بأنه أخوه، فأكرم ضيافة إخوته، وكالعادة أعطاهم الميرة بدون مقابل، لكنه في هذه المرة احتال عليهم ليبقي بنيامين عنده، فأمر بوضع المكيال في رحل أخيه، ثم نادى منادٍ بأن العير سرقوا صواع الملك، فكانت النهاية تفتيش الأمتعة وحكم الإخوة بأن من وجد عنده أخذ في مقابله، فجعل الخدم يفتّشون، وكان آخر الرحال تفتيشاً رحل بنيامين، فاتّهم بالسرقة فأخذه يوسف رغم أن إخوته حاولوا أن يعطوه واحداً منهم بدله فأبى، انصرف الإخوة وقد تركوا أخاهم بنيامين محبوساً في مكيال الملك، وأخاهم آخر وهو الأكبر منهم امتنع من الرجوع إلى والده بلا أخيه وأوصاهم بأن يبلغوا أباهم أن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا.

وفي كل ذلك جاءت الآيات: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

رجع الإخوة إلى أبيهم بدون أخيهم بنيامين، فهيج خبرُ ما وقع لولده

أحزانه وضاعف آلامه لفقد ابنه الثاني، ولم يصدّقهم لأنه عهد منهم الكذب والمكر، فقال مقالته الأُولى في يوسف: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

ثم أمرهم أن يرجعوا فيبحثوا عن يوسف وأخيه وأن لا ييأسوا من روح الله، استجابوا لأبيهم فعادوا إلى مصر للبحث عن الأخوين مع الحصول على القوت والميرة، فدخلوا على يوسف فشكوه ما أصابهم من الضرّ وطلبوا منه إيفاء كيلهم والتصدّق عليهم، ولكنهم في هذه المرة فوجئوا بأن العزيز صاحب الخزائن الذي أكرمهم وأحسن ضِيافَتَهم ورِفْدَهُم المرّة بعد المرّة هو أخوهم يوسف عليه السلام، فذكّرهم بما فعلوا به وبأخيه في حالة جهالتهم فاستفهموه متعجبين: أئنك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتّق ويصبر فإن الله لا يضيّع أجر المحسنين، قالوا: تالله لقد آثرك الله وفضلك علينا واعترفوا بالخطيئة بقولهم: وإن كنا لخاطئين قال: لا تثريب، أي: لا عتب عليكم ولا عقوبة اليوم يغفر الله لكم وهو منه زيادة تكريم لما فرط منهم في جانبه ثم أعطاهم قميصه وأمرهم أن يلقوه على وجه أبيه ليرجع بصره بإذن الله تعالى، وقبل مجيئهم إلى والدهم شمّ يعقوب عليه السلام ريح ولده يوسف، فقال: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون، أي: تنسبوني إلى الفند والخرف، فلما جاء البشير بالقميص ألقاه على وجهه فارتدّ بصيراً قال: ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون، وهنا توجّهوا إلى أبيهم يسألونه الاستغفار من الله لما فرط منهم واعترفوا له بالخطيئة، فأجابهم الوالد الرؤوف الحليم إلى ما سألوا، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

❋ ❋ ❋

نهاية القصة

جمع يعقوب عليه السلام أولاده وحفدته وكل من يتعلق به من أهله، فغادروا بلاد كنعان فلسطين، وتوجّهوا إلى مصر حيث يوجد يوسف الكريم

عليه السلام الذي أصبح عزيزاً ذا سلطة ورئاسة قد مكّنه الله في أرض مصر بعد محنٍ وبلايا ورِقّ وسجن، فلمّا دخلوا عليه ضمّ إليه أبويه وآواهما وأحسن إليهما ووضعهما على العرش، فخرّ جميعهم له سجداً تصديقاً للرؤيا ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

❋ ❋ ❋

فوائد وعبر من قصة يوسف عليه السلام

لما كانت هذه القصة من أروع القصص القرآنية وأحسنها وأحلاها، كان لذلك فيها فوائد وعبر جمّة، ففيها ذكر الأنبياء والملائكة والصالحين والإنس والجنّ والرجال والنساء وكيدهن، وذكر الأنعام والطير، وذكر التوحيد والدعوة إليه والفقه والسير والسياسة والممالك والتجارة، وغير ذلك مما ذكر فيها.

وفيها عظيم صبر يعقوب ويوسف عليهما السلام وتحمّلهما البلاء وتوكّلهما على الله وتفويض أمرهما إليه تعالى، وفيها وجوب الحذر من الحَسَدة، ولو كانوا أقارب وأحبّ الناس إلى الإنسان، وفيها أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء كما قيل؛ لأن الأنبياء لا يصدر منهم كبار الذنوب كما صدرت من هؤلاء، فهم عقّوا والدهم وكذبوا عليه وأقدموا على قتل أخيهم وألقوه في الجبّ وسعوا في الأرض بالفساد وحسدوا حبيب والدهم، وكلّ هذا من كبار الذنوب التي تنافي عصمة الأنبياء. نعم قد عفا عنهم يوسف واستغفر اللَّهَ لهم والدُهم.

وفيها بيان أن يوسف لما أخذه إخوته كان لا يزال صغيراً يخاف

عليه من أكل الذئاب، وفيها وحي الله إلى أنبيائه في صغرهم كما حصل ليوسف وهو في الجبّ، وكما يأتي في قصة مريم وعيسى عليهم السلام، وفيها لطف الله تعالى بأحبائه وإكرامهم وعطف القلوب عليهم، وفيها بيان أن الله تعالى جرت عادته أن يمنح أنبياءه النبوّة والعلم والحكمة عند بلوغهم أشدّهم كالأربعين سنة ونحوها، وكذلك يفعل بالمحسنين من عباده، وفيها أنّ ما صدر من امرأة العزيز مع الكريم عليه السلام بيانٌ أن الشهوة الجنسية إذا هاجت، ولا سيما إذا كان لها مغريات لا يُستطاعُ مُقاومَتُها، وفيها ما وقع من النسوة من الافتتان بيوسف عندما رأينه وأنهن ذُهلن وذهبت عقولهنّ لحسنه وجماله حتى قطعن أيديهن ولم يشعرن، ووافقن امرأة العزيز في الشغف به لمجرد نظرة واحدة، وفيها تلك المعجزة الباهرة في شهادة شاهد يوسف لبراءته، يقال: إنه كان طفلاً رضيعاً، وفيها مضار اختلاط الذكر بالأُنثى وأن له آثاراً خطيرة في الفتنة والوقوع في الفاحشة والفساد، ولذلك جاءت شريعتنا بالتشديد في ذلك وسدّ كل أبواب الفتنة بالنساء من تحريم الخلوة بهنّ، والدخول عليهنّ، والنظر إليهنّ والاختلاط بهنّ وسَفَرِهِنَّ وخدَهُنَّ ووجوب احتجابهن وتحريم إمامَتِهِنّ في الصلاة أوفي الحكم إلى غير ذلك من الأحكام والاحتياطات المتعلقة بهنّ، وجاء الإنذار النبوي يقول: **«ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء»**، ويقول محذّراً: **«اتقوا الدنيا واتّقوا النساء، فإنّ أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء»**، وكِلاَ الحديثين في الصحيح.

وفيها درس أيُّ درس في عفّة يوسف وتغلّبه على شهوته العارمة وهو الشاب القوي أمام جميع المغريات. وفيها إيثار يوسف السجن والبلاء على معصية الله وإتيان الفاحشة، وفيها أنه أول من دخل السجن من الصالحين، فمن سجن فليتسلّ بيوسف الذي سجن مظلوماً مع ظهور براءته.

وفيها مشروعيةُ مواصلة الدّاعِية دَعْوَتَه إلى الله تعالى ولو في السجن، بل هو حري بذلك؛ لأن السجن يجمع الصالح والطالح، والمساجين أقرب الناس إلى قبول الدعوة والرجوع إلى الله تعالى، لأنهم في وقت محنة

وبلاء، ولذلك انتهز يوسف دعوة السجناء إلى الله تعالى، وفيها تعريف الإنسان بنفسه وأصله وعلمه وفضله إذا رأى في ذلك مصلحة دينية، وفيها علم يوسف بالتعبير وتفسير الرؤيا، وأن الله عزّ وجلّ خصّه بذلك من بين سائر الأنبياء الأقدمين، وتعبيره لرؤيا الملك والفتيين أصبحت أصلاً من أصول التعبير في القرآن الكريم، وفيها حسن عاقبة الصابرين المحسنين، وفيها عفو يوسف وحلمه وحسن خلقه، كيف وهو الكريم ابن الكرام، وفيها هجرة إسرائيل وبنيه من فلسطين بلاد كنعان إلى مصر، وكان بذلك أول من سكن مصر مع بنيه حتى عَهْدِ موسى عليه السلام كما يأتي في قصة موسى، وفيها تصديق رؤيا يوسف التي كان قد رآها في صغره وامتحن من أجلها، فها هم الآن أبواه وإخوته يسجدون له كما سجدت له الكواكب والشمس والقمر، وأخيراً في قول النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لَوْ لَبِثْتُ في السجن ما لَبِثَ يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته»**، هو من باب تواضعه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فإنه قد أعطي من الصبر والجلد... ما لم يعطه نبي، خاصة وأنه سيّد أولي العزم من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لعائشة: **«إنكن صواحب يوسف»** يعني بذلك: أن النساء يتشابهن في إخفاء ما لا يظهرن، فكانت عائشة تظهر رقّة أبي بكر وبكاءه إذا قام يصلّي مقام النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولكنها كانت تبطن تخوّفها من تشاؤم الناس بأبي بكر رضي الله تعالى عنه.

يبقى في الأخير أين توفي يعقوب ويوسف... لا يعرف في التاريخ أنهما رجعا إلى فلسطين، وقد شاع أن يعقوب مدفون مع والديه إبراهيم وإسحٰق، ويقال: إن يوسف دُفِن بمصر ونقله موسى إلى فلسطين، والله تعالى أعلم، فإنه ليس هنالك من الأخبار إلا الإسرائيليات، وعليها اعتمد المؤرخون كابن كثير وغيره.

* * *

خاتمة

لم يذكر الله تعالى عن يوسف رسالته إلى قومه إلا في آية واحدة ضمن كلام مؤمن آل فرعون مع قومه، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾.

فالظاهر أنه بُعث إلى المصريّين ومن كان معه من آل يعقوب عليهما السلام.

❊ ❊ ❊

سيدنا شعيب عليه السلام

هذه القصة ليست من شرط كتابنا هذا لأنني لم أجد ذكراً لشعيب عليه السلام في حديث ما ثابت عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في شأنه، غير أني أحببت أن لا يكون كتابي هذا عارياً عن ذكر نبيّ مشهور مثل سيدنا شعيب عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام.

وقد تضاربت أقاويل المؤرخين في نسب شعيب عليه السلام، وحتى ابن كثير في البداية والحافظ في الفتح... لم يجزما بشيء يعتمد عليه في نسبه. والمشهور بين عامّة أهل العلم أنه عربي وجاء في شأنه مع غيره حديث ضعيف رواه ابن حبان في صحيحه (ج١/ رقم حديث ٣٦١) مطولاً، وفيه في ذكر الأنبياء «**أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذرّ**»، كما جاء فيه حديث عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم إذا ذُكر شعيباً قال: «**ذاك خطيب الأنبياء**»، ذكره ابن إسحٰق، ومن طريقه الحاكم في المستدرك (٥٦٨/٢) ولا يصح أيضاً.

وشعيب عليه السلام مشهور ذكره في القرآن مع قومه أهل مدين المطففين، وجاءت قصّته معهم مفصّلة في مواضع من السور: في الأعراف، وفي هود، وفي الحجر، وفي الشعراء.

فقال تعالى في الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

وقال جلّ علاه في سورة الحجر: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ إلخ.

وقال عزّ من قائل في سورة العنكبوت، وهي أطولهنّ ذكراً لقصته: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ إلخ.

فهذه جملة ما ذكره القرآن في تفصيل قصة شعيب عليه السلام مع قومه، ويلاحظ أنه تعالى ذكر قصته في هذه السور كلّها عقب قصة قوم لوط، وذلك لقرب زمنهما ومكانهما.

قال المؤرخون: كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين، وهي قرية من أرض معان... ومعان الآن في حدود الأردن مع الحجاز بينها وبين تبوك أكثر من مائتي كيلو، وهي قريبة من بحيرة قوم لوط. قال المؤرخون: وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بهم قالوا: هم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانوا كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارّة ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك حولها غَيْضَةٌ مُلْتَفَّةٌ بها، وكانوا من أسوإ الناس مُعاملة يَبْخَسُون المِكْيال والميزان ويُطَفِّفُون فيها يأخذون بالزائد، ويدفعون بالناقص، فبعث الله عزّ وجلّ فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي أفاعيلهم القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم في سبلهم وطرقاتهم،

فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم حتى أحلّ الله بهم بأسه الذي لا يردّ ولا يطاق، وكان عذابهم بأنواع من العذاب. قال العلماء: إنهم أصابهم حَرٌّ شديدٌ فخرجوا من البيوت فأظلّتْهُم سحابةٌ، فاجتمعوا تحتَها يستظلّون بها فرجفت بهم الأرض من تحتهم، وأخذتهم الصيحة من فوقهم، وفي عذابهم بهذه الأنواع الثلاثة، يقول تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾، ويقول: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾، ويقول: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، هذه هي خلاصة القصة.

❋ ❋ ❋

من فوائدها

جمهور المؤرخين أن قوم مدين والأيكة واحد خلافاً لمن قال غير ذلك، كما رجّحه ابن كثير والحافظ وغيرهما، وفي القصة أن المعصية أيّاً كانت تعتبر إفساداً في الأرض، ولذا كان الكفر والظلمُ وإظهار الفجور وكبار الذنوب إفساداً أيّ: إفساد، وأنّ مُغَيِّرِيهَا مصلحون، وفيها وجوب شكر نعمة الإيجاد والاستخلاف في الأرض وتكاثر البشرية، وفيها الاعتبار بمن سبق من الأُمم المهلكين المعذّبين فمن لم يتّعظ بغيره فهو والبهيمة العجماء سواء، فالعاقل من وعظ بغيره.

وفيها وجوب عمل العالم الداعية بعلمه، وأن لا يأمر بشيء أو ينهى عنه، ثم يأتي خلافه، فإن ذلك يوجب المقت من الله تعالى، فالداعية يجب عليه أن يراعي في سلوكه أشدّ المراعاة كل كلمة أو تصرف يصدر منه، ولن يكون لدعوته أيّ أثر في نفوس قومه، إذا لم يكن أول العاملين بما يدعو إليه، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، ويقول: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾، وفيها وجوب أداء أمانات الناس وعدم خيانتهم وغشّهم بأيّ طريق من طرق الخداع، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يشمل

كل الأشياء الحسّية من كافّة المعاملات، والمعنوية من تقدير الناس واحترامهم والاعتراف بما حباهم الله من الشرف والعلم والفضل، والله وليّ التوفيق.

❋ ❋ ❋

نبي الله أيوب عليه السلام

{٥٢٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**بَيْنَا أيوبُ يغتسلُ عُرياناً خَرَّ عليه رِجلُ جرَادٍ مِن ذَهَبٍ فجَعَلَ يَحُثُّ في ثوبه فنادى ربُّه: يا أيوب ألم أكن أغنيتُكَ عما تَرى؟ قال: بلى يا ربِّ ولكني لا غِنَى لي عن بَرَكَتِكَ**».

رواه البخاري في الأنبياء (٢٣٢/٧) وغيره، والنسائي.

{٥٢١} ـ وعنه في رواية عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لما عافَى الله أيوبَ أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعلَ يأخذُه بيده ويجعلُه في ثوبه، فقيل له: يا أيوب أما تَشْبَعُ؟ قال: ومن يشبع من رحمتك**».

رواه الحاكم (٥٨٢/٢) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

{٥٢٢} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إنّ أيُّوبَ لَبِثَ به بلاؤه ثمانَ عَشْرة سنة فرفضَه القريبُ والبعيدُ إلا رجلين من إخوانه كانا من أخَصِّ إخوَتِهِ، قد كانا يَغْدُوَانِ إليه ويَرُوحَانِ، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: نعلمُ والله لقد أذْنَبَ أيوب ذنباً ما أذنبه أحدٌ، قال: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشر سنة لم يرحمه الله فيكشف عنه ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجلُ حتى ذكر له ذلك، فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله تعالى يعلم أني كنتُ أمُرُّ بالرجلين يتنازعان يذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكتْ امرأتُه بيدِهِ حتى يَبْلُغَ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليه فأوحى الله تعالى إلى أيوب في مكانه: أن**

اركُضْ برجلك هذا مُغْتَسَلٌ بارد وشرابٌ، فاستبطأته فتلقّته وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبيّ الله المُبْتَلَى، والله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذْ كان صحيحاً، قال: فإنّي أنا هو، قال: وكان له أندَرَانِ: أندَرٌ للقمح، وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورقِ حتى فاض».

رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن حبان (١٥٧/٧، ١٥٩)، والحاكم (٥٨١/٢، ٥٨٢) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي. قال الحافظ في الفتح: وهو أصحّ ما ورد في قصّته، وعزاه في المجمع (٢٠٨/٨) لأبي يعلى والبزار، وقال: ورجال البزار رجال الصحيح.

كان أيوب على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام من ذرّية عيص بن إسحٰق بن إبراهيم عليه السلام، ولم يكن من ذرّية يعقوب عليه السلام، وكان من الأنبياء الذين أوحى الله تعالى إليهم وذكر في جملتهم في آيتين في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ الخ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ﴾.

وفي هذه الآية نصّ في أنه من ذرّية إبراهيم؛ لأن الضمير في قوله: ومن ذرّيته عائد على إبراهيم في القول الصحيح من قولي المفسّرين.

وذكرت قصته في بلائه في سورتين من القرآن: في الأنبياء، وفي صٓ.

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

وقال جلّ علاه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ

وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: ٤١ ـ ٤٤].

لم يذكر الله تعالى عن أيوب عليه السلام رسالة له، ولا ذكر له قوماً ولا دعوة، وإنما الذي ذكره في هذه الآيات هو أنه أُصيب بضرّ، وأن الشيطان مسّه بنصب وعذاب، وأنه التجأ إلى الله تعالى فدعاه في كشف ضرّه، فاستجاب الله دعاءه وأمره أن يركض برجله، وقال له: هذا مغتسل بارد وشراب، فشفاه الله تعالى ووهب له أهله ومثلهم معهم، ثم أمره أن يأخذ ضغثاً، أي: حزمة من قضبان ويضرب بها زوجته ولا يحنث، وأخبر تعالى أنه وجده عند هذا البلاء صابراً فنعم العبد إنه أواب كثير الرجوع إلى الله تعالى. هذا ظاهر ما جاء في القرآن من قصّته، وقد جاءت مفصّلة بعض التفصيل في حديث أنس الذي ذكرناه آنفاً، وجاء أكثرها عن الإسرائيليّات، وفيها الصحيح المقبول، وفيها الباطل المرفوض، وهذه خلاصة قصّته. قال المفسّرون وعلماء التاريخ: كان أيوب عليه السلام قد أعطاه الله عزّ وجلّ ثروة واسعة وأموالاً كثيرة من سائر الأنواع، وكان له أهلون كثر وأولاد، وسلب كل ذلك، وابتلي في جسمه ابتلاء شديداً فتلقّى كل ذلك بالصبر الجميل وطال ابتلاؤه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا زوجته، فكانت تخدمه وتقوم به وتصلح من شأنه، وأساءت مرة فحلف أن يجلدها، وكان له أخوان من أخصّ أصحابه، كانا يغدوان ويروحان إليه، فتذاكرا فيما بينهما بأن أيوب أذنب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فإنه منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله، فذكر ذلك أحدهما لأيوب، فعند ذلك توجّه إلى الله تعالى بالدعاء، فأمره عزّ وجلّ أن يضرب الأرض برجله، فضرب فنبعت عين بماء بارد حلو، فأمره أن يغتسل منها ويشرب، ففعل فشفاه الله فصار أحسن ما كان، فلما جاءته امرأته لم تعرفه، فسألته: هل رأيت نبيّ الله هذا المبتلى، فأجابها إني أنا هو، وكان له أندران إحداهما للقمح والأخرى للشعير، فجاءت سحابتان فأمطرت إحداهما ذهباً والأخرى فضّة، ثم ردّ الله تعالى عليه أهله وأولاده وما كان قد سلبه، ثم

أمره الله تعالى أن يبرّ بيمينه فيضرب امرأته العدد الذي حلف عليه، ولطفاً من الله تعالى بتلك الزوجة البارّة بزوجها والصابرة على خدمته أمره تعالى أن يضربها بضغث ضربة واحدة، والضغث ـ بكسر الضاد وسكون الغين ـ هو حزمة من قضبان وأعواد، ونهاه أن يحنث في يمينه.

هذه هي خلاصة القصة المعقولة في شأن أيوب عليه السلام. أمّا ما ذكره بعض المفسّرين والمؤرخين من أنه أنتن وأصابه الدود وأنه ألقي على مزبلة بعيداً عن العمران في أمثال هذه الخرافات والأكاذيب هو مما لا يليق نسبته للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ولا وصفهم به، ولا يجوز ذكره والتحدّث به إلا لبيان بطلانه.

❋ ❋ ❋

من فوائد قصة أيوب عليه السلام

فيها أن أيوب عليه السلام لم يكن من أنبياء بني إسرائيل، بل هو جدّ الروم، وذلك أن نبيّ الله إسحٰق عليه السلام ولد له عيص ويعقوب، فيعقوب تناسل منه الأسباط: وهي قبائل بني إسرائيل، فاليهود ينسبون إلى جدّهم إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام. أما عيص: فهو جدّ الروم وهم بنو الأصفر الذين كانوا في القديم يحكمون الشام وتركيا وغيرها من البلاد العربية، وهم الرومان المعروفون، فأيوب من ذرّية عيص.

وفيها أن أيوب عليه السلام كان ذا ثروة واسعة وغنًى عريض ويؤيّده حديث أبي هريرة المذكور في الباب، حيث إن أيوب كان يغتسل عرياناً فسقط عليه رجل جراد من ذهب، فأخذه وجعل يحثيه في ثوبه، فناداه الله تعالى: ألست قد أوسعت عليك وأغنيتك عن مثل هذا؟ فأجابه أيوب: إنه ليس لي غنى عن بركتك ورحمتك، وفي هذا الحديث مع تصريحه بغنى أيوب دليل على جواز التبرّك بالآثار المنسوبة إلى الله تعالى، ومثل هذا الحديث الصحيح في كشف النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذراعه للمطر، فلما قيل له في ذلك قال: **«إنه حديث عهد بربّه»**، ومعناه: أن فيه

بركة ورحمة لأنه حديث العهد بخلق الله تعالى إيّاه، والخلق ناشىء عن القدرة فأثرها فيه بركة، وهكذا الشأن في كل المخلوقات الجدد، وفيما ذكرناه ردٌّ على منكري التبرّك بالآثار الفاضلة

وفي حديث أبي هريرة الثاني دليل على أن سقوط ذلك الرجل على أيوب كان بعد شفائه، وأنه كان قد ردّ الله تعالى عليه ما كان له من مال وأهل وأولاد.

وفي قصة أيوب وما أصيب به من البلاء العظيم في جسمه وماله وأهله ومقابلته كل ذلك بالصبر الجميل والتحمّل مع مفارقة كل الناس له درسٌ بالغُ الأهمية للمؤمنين في الصبر وتحمّل البلاء، فإن البلاء لا ينجو منه أحد، فكلنا معرّضون له في كل آنٍ وساعة، وقد قدّمنا حديث: **«لا يزال البلاء في المؤمن في أهله وماله ونفسه»** إلخ.

وحديث: **«أشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»** إلخ، وسيأتي ذلك مرة أخرى.

وفيها أن نزول البلاء والمحن والنكبات لا يدلّ على شقاء الإنسان، فإن البلاء كما يصاب به الكافر والعاصي يصاب به المؤمن المتّقي الطائع لربّه.

وفيها درس في وجوب الالتجاء إلى الله عند نزول الضرّ والشدّة، وأنه لا يكشف ذلك إلاّ الله. وفيها مشروعية التداوي والعلاج وخاصة بالماء غسلاً وشرباً، فإن سيدنا أيوب عليه السلام تعالج بالغسل بالماء البارد وشربه.

وفي هذا العلاج الذي أشار إليه القرآن بالماء إعجاز علمي للقرآن الكريم، فإن مثل هذا التداوي لم يكن يعرفه الناس حتى جاءت هذه العلوم التجريبية في هذا العصر، وتقدم علم الطب، فوجدوا أن الماء يعالج به كثير من الأمراض شرباً للأمراض الداخلية، كالمعدة والكلى والأمعاء.. كما

يعالج به الأمراض الخارجية الجلدية من حكّة وجرب وقروح... وبالأخصّ إذا كان الماء من معدن كبريتي كما هو موجود في كثير من الأقطار العربية والأجنبية.

وفي شأن أمر الله تعالى أيوب ضرب زوجته بالضغث موافَقةٌ لما جاء في شرعنا، ففي حديث الأنصاري في المريض الذي وقع على جارية، فخيف عليه إن أُقيم عليه الحد، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«خذوا له عثكالاً فيه مائة شمراخ ثم اضربوه به ضربة واحدة»** ففعلوا، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وتقدم في الحدود.

وقوله تعالى: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ بنصب - بضم النون وسكون الصاد وفتحهما - وغير ذلك، ومعناه: مسّني بإعياء وتعب وألم، وقد اختلف المفسّرون في معنى مسّ الشيطان هنا، ولم أجد في ذلك ما تطمئنّ إليه النفس من تلك الأقاويل، فالله أعلم بمراده بذلك.

* * *

يونس عليه السلام

{٥٢٣} - عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«ما ينبغي لعبدٍ أن يقول: إنّي خيرٌ من يُونُسَ بن مَتَّى»**، ونسبه إلى أبيه. وفي رواية: **«أن يقول: أنا خيرٌ من يونس»**.

رواه البخاري في التفسير وفي الأنبياء (٧/٢٤٠، ٢٦٢)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٣٣، ١٣٤) ورواياه أيضاً عن أبي هريرة، ورواه البخاري أيضاً في التفسير وفي الأنبياء (٧/٢٦٢) عن ابن مسعود بلفظ: **«لا يقولن أحدكم إني خير من يونس بن متى»** وللحديث ألفاظ.

{٥٢٤} - وعن سعيد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إذ دَعَا وهو في بطنِ الحوتِ: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنّه**

لم يَدْعُ بها رجلٌ مُسْلِمٌ في شيء قطّ إلا استجاب الله له».

رواه أحمد رقم (١٤٦٢)، والترمذي في الدعوات (٣٢٧٦) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٦/١٦٨)، والحاكم (١/٥٠٥) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

يونس عليه السلام بن متّى - بفتح الميم والتاء المشدّدة - من نسل الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولا يعرف نسبه إليه إلا من ذكره مع الأنبياء الذين تناسلوا منه كما يأتي، وكان من أهل نينَوَى من الموصل العراقية، ونينوى - بكسر النون الأُولى ثم ياء ساكنة ثم نون مفتوحة آخره ألف مقصورة -.

قال المفسّرون والمؤرخون من السلف وغيرهم: بعث الله عزّ وجلّ يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ فكذّبوه وتمرّدوا، فلما طال ذلك عليه، خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث، فخرج عنهم مغاضباً لهم، فلما رأوا آثار ذلك خضعوا وتضرّعوا وآمنوا، فرحمهم الله تعالى فكشف عنهم العذاب وذهب يونس فركب سفينة فلَجَّجَتْ به فاقترعوا فيمن يطرحونه فوقعت القرعة عليه ثلاثاً، فالتقمه الحوت فنادى الله تعالى في بطنه: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجاب الله له ونجّاه من الغمّ والكرب فنبذه الحوت في العراء، ثم أرسله إلى قومه وكانوا أكثر من مائة ألف، فآمنوا به واتّبعوه، فمتّعهم الله تعالى إلى حين آجالهم. هذه خلاصة قصّته كما جاءت عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف، وهي معنى ما جاء في القرآن الكريم، فقد ذكر الله عزّ وجلّ قصّته في ثلاث سور: في يونس وفي الأنبياء وفي الصافات.

فقال في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ

يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾. أبق: هرب، الفلك: السفينة، المشحون: المملوء، المدحضين: المغلوبين، فالتقمه: ابتلعه، مُليم: أتى ما يلام عليه.

فأخبر تعالى عنه هنا بأنه أحد رسل الله المرسلين لهداية قومه، وأنه هرب من قومه إلى السفينة المملوءة بالرجال، فقارع أهل السفينة، أي: ضرب معهم القرعة أيهم يلقى في البحر، فكان من المدحضين المغلوبين بالقرعة، فألقوه في البحر فابتلعه الحوت وهو آت بما يلام عليه من تخلّيه عن المهمة التي أرسله الله بها وتركه قومه مغاضباً لهم وخروجه بغير إذن من ربّه، فلولا أنه كان من الذاكرين لله عزّ وجلّ كثيراً في حياته لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ولكنه سبّح الله واستغفره وناداه في بطن الحوت، فاستجاب الله نداءه فألقاه من بطن الحوت على الساحل بالأرض الفضاء التي لا شجر ولا ظلّ بها وهو سقيم مما ناله من الكرب، وأنبت عليه شجرة القرع تظلّه وأرسله بعد ذلك إلى قومه الذين فرّ منهم فصدّقوه، فمتّعهم الله تعالى في الدنيا إلى انقضاء آجالهم.

وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـْٔجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

فأخبر عنه تعالى هنا بأنه فرّ من قومه مغاضباً لهم ظنّاً منه أن الله عزّ وجلّ لن يضيق عليه، فنادى الله تعالى في الظلمات. قال العلماء: ظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة بطن الحوت، فاستجاب الله له فأنجاه من الغمّ والكرب الذي كان فيه، وهكذا يفعل بالمؤمنين.

وقال في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

فأخبر تعالى عن القرى التي أهلكها أنها لو كانت تابت عن الكفر وأخلصت لله تعالى عند معاينة العذاب لنفعها إيمانها، لكنها لم تفعل إلا قوم

يونس فإنهم لما شاهدوا أثر نزول العذاب آمنوا، فرفع الله عزّ وجلّ عنهم عذاب الخزي في هذه الحياة وأخّرهم إلى انتهاء آجالهم.

هذا جملة ما جاء في قصة هذا النبيّ الكريم المبتلى، وقد ذكره الله عزّ وجلّ في معرض تحذير النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم من أن يكون مثله في الفرار من قومه وتخلّيهم وما اختاروا، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

مكظوم أي: مملوء غيظاً وغضباً، وقوله: لنبذ بالعراء أي: لطرح بالفضاء، وهو مذموم أي: غير محمود على ما أتى من الفرار من قومه.

وذكره تعالى في جملة الأنبياء المُوحَى إليهم، فقال في سورة النساء: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ﴾ إلخ، كما ذكره عزّ وجلّ في الأنبياء الذين تناسلوا من خليل الرحمٰن عليه السلام الذين فضّلهم على سائر العالمين، فقال في سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

❋ ❋ ❋

من فوائد هذه القصة

في هذه القصة فوائد وعبر هامة نجملها في الآتي:

أولاً: في حديث ابن عباس وما معه دليل على أنه لا يفضل بين الأنبياء ولا بين غيرهم، لكن القرآن يعارض ذلك؛ فالله تعالى يقول؛ ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ويقول؛ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. أما غيرهم فيقول تعالى؛ ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا﴾، ويقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ في آي أُخر، وعلى هذا فما قاله النبيّ

صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم جاء منه على سبيل التواضع، أو قال ذلك في شأن يونس لئلا يستهان بمقامه حيث فرّ من قومه مغاضباً لهم فيهضم حقّه ويقصر عما حَبَاهُ الله تعالى من الاصطفاء. أما تفضيل غير الأنبياء عليه، فهذا لا يحتاج إلى النهي عنه، وستأتي بقية في قصة موسى عليه السلام.

ثانياً: كان خروج يونس من بين قومه مغاضباً لهم من غير إذن من الله خلاف الأَولى، وليس معصية، وإنما جاء ابتلاؤه بالتقام الحوت إياه نظراً لمقامه، فإن الأكابر يؤدّبون من الله تعالى على خلاف الأولى، وفعل المباح من باب حسنات الأبرار سيئات المقرّبون كما يقولون، ومن هنا جاء اللوم فكان الأولى في حقه أن يصبر حتى يحكم الله تعالى بينه وبين قومه.

ثالثاً: في قصته جواز القرعة على الشيء المجهول، وجاءت أيضاً في قصة مريم كما يأتي في قصتها وقصة زكريا، ووردت في شريعتنا في عدة أحاديث تقدم بعضها، ويأتي بعضها في السيرة.

رابعاً: فيها فضل ذكر الله تعالى والدوام عليه في اليسر والعسر، وأنه سبب للنجاة من الغموم والنكبات وتفريج الكربات، فقد نصّ الله عزّ وجلّ على أن يونس إنما نجّاه تعالى لكونه كان من المسبّحين، ولولا ذلك لبقي في بطن الحوت إلى يوم البعث، وكفى بذلك فضلاً ومزية لتسبيح الله تعالى وذكره.

خامساً: في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، معناه: أنه ظنّ أن لن يضيق الله تعالى عليه فيما فعل، ولا يجوز أن يفسّر بعدم القدرة عليه لأن ذلك يلزم منه جهل نبيّ من أنبياء الله تعالى بصفات الله عزّ وجلّ، وهذا مستحيل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

سادساً: في قوله تعالى عن يونس: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، جمع في هذا الدعاء ثلاثة آداب من أدب الدعاء: الاعتراف بالأُلوهية والتوحيد، ثم تنزيه الله عزّ وجلّ عما لا يليق به من النقائص وسمات الحدوث، ثم الاعتراف بالذنب والمخالفة، فهي آداب حريٌّ بمن دعا بها أن يُستجاب له، ولذلك قال تعالى عقب الآية: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾، وزاد ذلك

بياناً قوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لم يَدعُ بها رجلٌ مسلم في شيء قطّ إلا استجاب الله له»**، لا يقال كم من واحد يدعو بهذه الآية، فلا يرى للاستجابة أثراً، والجواب أن للاستجابة شروطاً لا بدّ من توفّرها، وقد ذكرناها في المجلد الثاني في الأدعية... ثم لا يلزم من الاستجابة أن يقع تنفيذ المطالب، فإنه قد تقع الاستجابة من الله تعالى فيختار للداعي ما هو خير له إما أن يكفّر عنه سيئات سبقت له، وإما أن يدفع عنه بلاء... كان ينتظره، وإما أن يدّخر له أفضل ما يريده لآخرته، فالدعاء له أثره على كل الأحوال نسأله تعالى أن يلهمنا رشدنا.

سابعاً: في رفع العذاب عن قوم يونس خاصية لهم، فإنهم ما آمنوا حتى رأوا أثر العذاب، وفي هذه الحالة لا يقبل معها إيمان ولا توبة؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ﴾، والله أعلم.

ثامناً: لما نُبِذَ يونسُ بالعَراء من بطن الحوت أنبتَ الله عليه شَجَرةَ اليَقطين وهي القرع، قال المفسّرون: وذلك ليستظلّ بها من حرّ الشمس وليتحفّظ بها من الذباب، لأنه لا ينزل على القرع، وهو يدلّ على أنه لم يبق لثوبه أثر عليه، وأن جلده أصبح ضعيفاً مما يدلّ على أنه مكث مدة في بطن الحوت.

تاسعاً: في قوله تعالى خطاباً لنبيّه أبي القاسم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ الخ، درسٌ له صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وللدعاة والعلماء من أُمّته بأن يصبروا على الدعوة وما يَلْقَوْن من سوء آداب المَدْعُوّين وتتابع إذايتهم إياهم، وأن لا يضجروا ويتسخطوا ويفروا عنهم ويتركوهم لذئاب المنحرفين والشياطين يلعبون بهم.

عاشراً: قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، وقوله: ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يدلاّن على أن الحوت يطلق على النون والعكس، والنون حيوان مائي طويل شبيه بالحيّة غير أنه عريض، وقد أضاف الله عزّ وجلّ نبيّه يونس إلى هذا الحيوان، وجعله صاحباً له لالتقامه إياه وسكناه في بطنه زمناً ما.

حادي عشر: في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾، يدفع عنه ما قد يقع في بعض قلوب ضعاف الإيمان من النظر إلى يونس بعين الانتقاص، فجاءت الآية الكريمة تبيّن لنا أنه مع ما صدر منه وما ابتلي به هو من المصطفين عند الله عزّ وجلّ الصالحين، وأنه مفضّل على سائر العالمين كباقي إخوانه الأنبياء كما سبق في آية الأنعام: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

❋ ❋ ❋

موسى وهرون عليهما السلام

{٥٢٥} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال؛ اسْتَبَّ رجلان رجلٌ من المسلمين، ورجلٌ من اليهود، قال المُسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فَرَفَعَ المسلمُ يدَه عند ذلك فلطَم وجهَ اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فأخبره بما كان من أمْرِهِ وأمر المسلم، فدعا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم المُسلمَ فسأله عن ذلك فأخبرَه، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم؛ **«لا تُخَيِّرُوني على مُوسَى، فإن الناسَ يَصْعَقُون يوم القيامة فأُصْعَقُ معهم فأكون أوَّلَ من يَفيق، فإذا موسى باطشٌ جانِبَ العرش فلا أدْرِي أكان فِيمَن صَعِقَ فأفاق قبلي، أو كان ممّن اسْتَثْنَى الله»**، وفي رواية: **«فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بُعِث قبلي»**.

رواه البخاري في الأنبياء (٢٥٤/٧، ٢٥٥)، ومسلم في الفضائل (١٣٠/١٥)، ويأتي في المناقب.

{٥٢٦} ـ ونحوه عن أبي سعيد وفيه: **«لا تُخَيِّروا بين الأنبياء... فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أكان في من صعق أم حُوسب بصعقته الأُولى»**.

روياه أيضاً.

{٥٢٧} ـ وعن أبي هريرة أيضاً عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«كانت بنو إسرائيل يغتسلون عُراةً ينظر بعضُهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحدَه، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسلَ معنا إلا أنه آدَرُ، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر فَفَرَّ الحجرُ بثوبه فخرج موسى في إثْرِه يقول: ثَوْبي يا حجرُ، حتى نظرتْ بنو إسرائيل إلى موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بَأْس، وأخذ ثوبه فطفِقَ بالحجر ضرباً»**، فقال أبو هريرة: والله إنه لنَدَبٌ بالحجر ستة أو سبعة ضرباً بالحجر. وفي رواية: **«إن موسى كان رجلاً حيياً مستتراً ما يُرى من جلده شيءٌ استحياءَ منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل»**.

رواه أحمد (٣١٥/٢)، والبخاري في الغسل وفي الأنبياء (٢٤٧/٧، ٢٤٨) وفي التفسير، ومسلم في الفضائل (١٢٦/١٥، ١٢٧)، وفي الحيض (٣٢/٤، ٣٣).

حيياً أي: متصفاً بالحياء، آدار، الأُدْرَةُ انتفاخ الخصيتين، فجمع موسى بأثره أي: ذهب مسرعاً خلفه، لندب ـ بفتحات ـ أي: أثر الضرب.

{٥٢٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«جاء ملكُ الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربَّك، قال: فلطَمَ موسى عليه السلام عينَ ملك الموت ففقأها»**، وفي رواية: **«فلما جاء صكّه فرجع إلى ربّه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فردّ الله عليه عينه وقال: ارجع فقل له يضع يده على متْنِ ثور فله بكل ما غطَّتْ به يده بكل شعرة سنة، قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن فسأل الله أن يُدْنِيه من الأرض المقدسة رَمْيَة بحجر»**، قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«فلو كنتُ ثَمَّ لأَرَيتُكم قبرَه إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»**.

رواه البخاري في الأنبياء (٢٥٢/٧)، ومسلم (٢٣٧٢).

صكّه: ضربه في وجهه، الكثيب: الرمل.

{٥٢٩} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله

تعالى عليه وآله وسلم قال: «**رأيت ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة**».

وفي رواية: «**وأما موسى فرجل آدم جَعْد على جمل أحمر مخطوم بِخُلْبَةٍ كأني أنظر إليه إذ انحدر في الوادي يلبّي**»، وفي رواية: أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مرّ بوادي الأزرق فقال: «**أيُّ وادٍ هذا**»؟ فقالوا: هذا وادي الأزرق، قال: «**كأني أنظر إلى موسى عليه السلام هابطاً من الثنيّة وله جؤار إلى الله بالتلبية**»، ثم أتى على ثنية هرشى قال: «**كأني أنظر إلى يونس بن مَتّى عليه السلام على ناقة حمراء جعدة عليه جبّة من صوف خطام ناقته خُلْبَةٌ وهو يلبّي**».

رواه البخاري (٣٢٣٩، ٥٩١٣، ٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٨، ١٦٩، ٢٧٠).

خلبة - بضم الخاء وسكون اللام ثم باء مفتوحة - حبلٌ من ليف ونحوه.

{٥٣٠} - وعن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مررتُ على موسى ليلةَ أُسْرِيَ بي عند الكَثِيبِ الأحمر وهو قائم يصلّي في قبره**».

رواه مسلم رقم (٢٣٧٥).

{٥٣١} - وعنه أيضاً أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾، قال حماد: هكذا، وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة اليمنى فساخ الجبل وخرّ موسى صعقاً.

رواه أحمد والترمذي (٢٨٧٦)، وابن جرير (٥٣/٩)، وابن أبي حاتم (١٥٦٠/٥)، والحاكم (٣٢٠/٢)، وحسّنه الترمذي وصححه هو والحاكم ووافقه الذهبي.

صَعِقَ أي: غُشِيَ وأُغْمِي عليه، وساخ الجبل أي: غاص في الأرض.

{٥٣٢} - وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خرج إلينا رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذات يوم فقال: «**عُرِضتْ عليَّ**

الأُمَمُ فجعل يمُرّ عليَّ النبيُّ معه الرجلُ، والنبيُّ معه الرجلان والنبيّ ليس معه أحدٌ، والنبيّ معه الرَّهْطُ، فرأيت سواداً كثيراً فرجوتُ أن تكون هذه أمّتي، فقيل لي: هذا موسى وقومُه، ثم قيل لي: انظر، فرأيت سواداً كثيراً قد سدَّ الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سواداً كثيراً، فقيل لي: هذه أُمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب».

رواه أحمد (٢٧١/١)، والبخاري في الطب وفي الرقاق (١٩٨/١٤، ٢٠٤)، ومسلم في الإيمان (٩٣/٣، ٩٤) ويأتي في الرقاق مطولاً إن شاء الله تعالى.

عرضت عليّ أي: مرّ بهم بين يدي وأنا أنظر إليهم، سدّ الأفق أي: غطّى الجهة... والرهط: الجماعة من الناس ما دون العشرة.

وتقدم ويأتي حديث الإسراء وما فيه من الكلام على موسى وهارون عليهما السلام، وحديث قصّة الخضر تقدم في التفسير مطولاً.

سيدنا موسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام ابن عمران من سلالة سيدنا يعقوب عليه السلام، هو نبيّ الله ورسوله وكليمه وزعيم أنبياء بني إسرائيل وصاحب التوراة إحدى الكتب الأربعة العظيمة، وخامس الرسل أولي العزم صلوات الله وسلامه عليهم، أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم، فقد ذكر مائة ونيفاً وثلاثين مرة.

وقصّته أطول قصص القرآن وأكثرها تكراراً في القرآن الكريم، وجاءت مفرّقة في السور المكية والمدنية معاً.

ولتشعّب هذه القصة العظيمة وطولها سنلخص منها مقاصدها مرتّبة حسب حياته بداية من ولادته حتى موته.

قد كان بنو إسرائيل يعيشون بين المصريّين مضطهدين، فكان المصريون يستخدمونهم في جميع الأشغال الشاقّة والمهن المستهجنة بذكورهم وإناثهم، وكان طاغيتهم وقتئذ فرعون الذي طغى وتمرّد على الله تعالى، فقال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

* * *

ابتلاء بني إسرائيل بذبح غلمانهم وإبقاء إناثهم

ويقال: إن الكهنة أخبروه بأن زوال ملكه سيكون على يد مولود لبني إسرائيل، فأصدر أمره بقتل كل ذكر من أولادهم حتى لا يكثر عددهم وأسرع الموت في الشيوخ منهم، فأمر أن يقتل الغلمان سنة، ويتركوا سنة، حتى يبقى منهم من يخدم فرعون وقومه. وكان من قدر الله تعالى أن ولد هارون عليه السلام في العام الذي ترك القتل فتربّى في أحضان والديه عادياً. وأما موسى، فقد صادفت ولادته عام قتل الغلمان، فحفظه الله تعالى حملاً وولادة ولم يتسرّب خبره لفرعون وقومه.

وفي محنة ذبح الغلمان من بني إسرائيل يقول الله تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾، طائفة منهم هم بنو إسرائيل.

ويقول ممتناً على بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩﴾ [البقرة؛ ٩٤].

ويقول عن موسى في تذكيره اليهود نعمة الله عليهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ [إبراهيم: ٦].

يسومونكم أي: يذيقونكم، وقوله: يستحيون نساءكم أي: يتركونهنّ أحياء...

❋ ❋ ❋

موسى في رضاعه وإيوائه إلى قصر فرعون

ولد موسى عليه السلام، فخافت عليه والدته فأوحى الله إليها: (أرْضِعِيه فإذا خفت عليه فألقيه في البحر، ولا تخافي عليه ولا تحزني) عليه

إنا سنرده عليك وسنجعله من المرسلين، فهيّأت له صندوقاً وألقته فيه، ثم ألقته في بحر النيل، وكان الماء يمرّ وسط قصر فرعون، فأُخِذ القِمَطْر ورُفع إلى آسية، فلما فُتح وجدوا فيه غلاماً لم يُرَ مثلُه جمالاً ونوراً، فألقى الله حبّه في قلب آسية فأراد فرعون قتله فدافعت عنه امرأته وقالت له: دعه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وأصبح قلب أم موسى فارغاً من كل شيء إلا من ولدها، حتى كادت أن تظهر أمرها في شأن الولد، لولا أن الله ربط على قلبها فأمرت ابنتها أن تسأل عن الولد وتتبع أثره فبصرت به، فأتت والدتها فأخبرتها عنه. أما الولد، فبحث له عمّن يرضعه، فأتي بكل امرأة مرضعة فلم يقبل أيَّ ثدي، فأتتهم أخته فقالت لهم: أنا أدلّكم على أهل بيت طيبين يقومون بكفالته وهم له ناصحون، فأُخِذ ورُدّ إلى أمه وجعل فرعون ينفق عليها في مقابل كفالتها للولد، وفي جملة هذا يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾، ويقول عزّ وجلّ ممتناً عليه السلام ليلة كلمه: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝٣٨ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝٣٩ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ۝٤٠ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝٤١﴾.

❋ ❋ ❋

تربية موسى وبلوغه أشدّه وإيتاؤه الحكم والعلم وقصته مع الإسرائيلي والقبطي

ظلّ موسى عليه السلام في كفالة أمّه ثم ردّ إلى بيت فرعون فتربّى مع آسية بنت مزاحم التي عادت عليها بركة هذا الولد الميمون، فختم الله عليها بالشهادة، وكانت من النسوة الكاملات كما يأتي، ولما بلغ عليه السلام أشدّه واستوى في قوّته وعقله آتاه الله الحكم والعلم شأنه تعالى مع المحسنين.

وموسى عليه السلام كان عارفاً بأنه إسرائيلي وأنه تربّى في بيت أجنبي عنه، ومن الطبيعي أن يحبّ الإنسان أهل جنسه بل أقاربه، ويكون لهم عوناً ونصيراً، ولذا نرى سيدنا موسى عليه السلام خرج مرة من قصر فرعون ودخل المدينة فجأة دون أن يعلم أحد بذلك، فوجد رجلين يتقاتلان أحدهما إسرائيلي والآخر قبطي من عدوّه، فاستغاثه الإسرائيلي فضرب موسى القبطي فسقط ميتاً من ساعته فندم على ما فعل وعدّ ذلك من عمل الشيطان واستغفر ربّه مما حصل منه وتضرع إليه أن يتوب عليه، وسأله بما أنعم عليه أن لا يكون معيناً للمجرمين، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

* * *

افتضاح أمر موسى والتآمر عليه وخروجه من المدينة خائفاً داعياً ربه

أصبح موسى بعد قتله القبطي في المدينة خائفاً مما فعل بالأمس، فإذا بذلك الإسرائيلي الذي نصره بالأمس يتقاتل مع قبطي آخر فاستغاثه أيضاً

على ذلك الفرعوني، فغضب موسى عليه السلام على الإسرائيلي من كثرة خصامه ومشاكسته، فلما أراد أن ينصره ويتدخل بينهما ظن الإسرائيلي أن موسى يريد قتله فخاطبه: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾، فلم يكد القبطي يسمع هذا الإقرار الصريح حتى وافى قومه بخبر القتيل الذي كانوا في حيرة من قاتله، فتألّب القوم وراحوا يبحثون عن موسى ليقتلوه، فسمع بذلك رجل مخلص وجاء من أقصى المدينة فأخبر موسى بأن القوم يتآمرون عليك ويدبّرون للفتك بك، فاخرج من المدينة وفرّ بنفسك فإني لك ناصح، فامتثل موسى نصيحة الرجل وخرج متخوّفاً داعياً ربه أن ينجيه من القوم الظالمين، يقول الله تعالى في هذا الشأن:

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ أي: يستنصره ويستغيث به، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: إنك لبيّن الغواية والضلال، قوله: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: ينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه.

* * *

هجرة موسى إلى أرض مدين وإقامته عند الشيخ يرعى له غنمه ليزوجه ابنته

خرج نبيّ الله موسى عليه السلام من مصر خائفاً على نفسه من فرعون وملائه، فتوجه إلى مدين فقطع قفاراً وفيافي من الصحاري والرمال داعياً ربّه

هدايته سواء السبيل، ووصل إلى مدين فصادف جماعة من الناس يسقون مواشيهم عند بئر وعلى مقربة من الماء فتاتان تكفان غنمهما عن الماء، سألهما موسى ما شأنكما؟ قالتا: إننا لا نسقي حتى ينصرف الرعاة وذلك لكثرة الزحام، ثم بينتا له الحامل لهما على الرعي دون الرجال بأن أبانا شيخ كبير لا يستطيع مزاولة هذا العمل، ولذلك احتجنا إلى مباشرته بأنفسنا، فتقدم وزاحم الرعاة وسقى لهما ثم اتّجه إلى الظل ليستريح من تعب السفر سائلاً ربه أني محتاج إلى فضلك وإحسانك وإلى الطعام الذي أسدّ به جوعي، فذهبت الفتاتان إلى أبيهما سريعتين فحدثتاه بما كان من أمر الرجل، فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل، قالت له: إن أبي يدعوك ليعوّضك عن أجر السقاية لغنمنا، فأجابها وقام معها، فلما أتى الشيخ وذكر له ما كان من أمره وسبب هربه من مصر قال له الشيخ: لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطة لفرعون عليه وقد نجّاك الله من القوم المجرمين، ثم تقدمت إحدى الفتاتين فقالت لوالدها: يا أبت اتخذ هذا الرجل أجيراً على غنمنا، فإن خير من تستأجره من كان قوياً أميناً، علمت قوّته وأمانته مما لمسته من تصرفاته عند السقي وعند المشي معها إلى البيت... عندئذ قال الشيخ: إني أريد أن أزوّجك إحدى ابنتي هاتين بشرط أن تكون لي أجيراً على غنمي ثمان سنين، فإن أكملت عشر سنين فذلك تفضّل منك، وما أُريد أن أوقعك في المشقّة باشتراط العشر، ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة ليّن الجانب وفيّاً بالعهد، قال موسى: إن ما قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه، وأي: المدتين أدّيتها لك الثمان أو العشر فلا إثم ولا حرج عليّ، والله شاهد على ما تعاهدنا وتوافقنا عليه، وفي كل ذلك يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ

أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٢ ـ ٢٨].

❋ ❋ ❋

رجوع موسى من مدين وتكلُّم الله معه بجانب الطور الأيمن

قضى نبيّ الله موسى عليه السلام عشر سنين في أرض مدين مع الشيخ يرعى له غنمه وزوّجه ابنته، بعد هذه المدة أراد الرجوع إلى مصر فخرج بزوجته فبلغ به سفره إلى جبل الطور وضلّ الطريق في ليلة مظلمة شاتية، فأبصر عن بعد ناراً، فقال لزوجته: امكثي فلقد أبصرت ناراً سآتيكم منها بشعلة من نار لعلكم تستدفئون من البرد، ولعلّي أجد عندها هادياً يدلّني على الطريق، فلما أتاها نُودِيَ من جانب الوادي الأيمن في المكان المبارك من ناحية الشجرة وقيل له: بورك وتقدّس من في النار ومن حولها فتقدس وتنزّه رب العزة، يا موسى إني أنا ربك الذي أكلّمك فاخلع نعليك وتأدّب، فإنك بالوادي المطهر المبارك المسمّى طُوى، إنني أنا الله العزيز الحكيم ربّ العالمين، إني اصطفيتك للرسالة فاستمع لما أوحيه إليك، فلقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهّب له واجعل كل عقلك مصروفاً إليه إنني أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدني وحدي وأطعني وأقم الصلاة لتذكرني.

ولما قدم الكليم من مدين صحب معه عصا، فقال الله عزّ وجلّ له في ذلك المشهد: وما هذه التي بيمينك يا موسى، قال: هي عصاي أعتمد عليها في حال المشي وأهزّ بها الشجر وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي، ولي فيها مصالح ومنافع أُخر، قال الله عزّ وجلّ:

اطرحها من يدك، فألقاها فصارت في الحال بإذن الله تعالى حيّة عظيمة تنتقل وتتحرك بسرعة فولّى مدبراً منها لم يرجع ولم يلتفت لما هاله من الخوف والفزع منها، قال له ربّه عزّ وجلّ: خذها يا موسى ولا تخف منها فسنرجعها إلى ما كانت عصا لا حيّة، فأمسكها فانقلبت كما كانت، ثم ناداه تعالى: أدخل يدك تحت إبطك ثم أخرجها تخرج نيّرة مضيئة من غير عيب ولا برص، وذلك لنريك بذلك بعض آياتنا العظيمة مع باقي الآيات التسع التي ستبعث بها إلى فرعون وملائه، وقد جاء الكلام على هذا المشهد الذي خصّ به سيدنا موسى عليه السلام في ثلاث سور، في طه في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣﴾ [طه: ٩ ـ ٢٣].

آنست: أبصرتُ، بقبس أي: شعلة، وقوله: وأهش بها أي: أضرب وأخبط بها على الشجر.

وفي النمل قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢﴾ [النمل: ٧ ـ ١٢].

شهاب قبس أي: شعلة مقتبسة من النار، وقوله: تصطلون أي: تستدفئون، وقوله: تهتزّ أي: تتحرك، وقوله: ولم يعقب أي: لم يلتفت ولم يرجع.

وفي القصص في قوله جلّ علاه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ۝٣١ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٣٢﴾ [القصص: ٢٩ ـ ٣٢]، وأشار تعالى إلى هذا الموضوع في قوله تعالى من سورة القصص أيضاً: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝٤٤﴾، وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ الآية، وقال في النازعات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾.

قوله: جذوة من النار أي: جمرة ملتهبة، والشاطىء هو الجانب، وقوله: اسلك يدك في جيبك أي: أدخله في جيب قميصك واضممها إلى جناحك.

❋ ❋ ❋

رسالة موسى وهرون عليهما السلام

بعد أن أبان الله عزّ وجلّ لنبيّه موسى عليه السلام معجزتي العصا واليد أمره أن يذهب بهما إلى فرعون ليبلغه الرسالة الإلهيّة لأنه قد جاوز الحدّ في الطغيان والجبروت، وبما أن فرعون كان جباراً شديد البطش ومواجهة مثله تحتاج إلى رباطة الجأش والشجاعة سأل موسى ربّه أن يوسع له صدره ليتمكّن من مواجهة فرعون وقومه، كما سأل ربّه أن يرزقه الفصاحة

والبيان، وأن يجعل له أخاه هـٰرون وزيراً مساعداً له في أداء رسالته، فأجاب الله دعاءه وأعطاه كل ما سأله.

ثم أمرهما معاً أن يذهبا بآياته تعالى إلى فرعون لأنه طغى، وتجاوز الحدّ في الكفر وظلم العباد واستعبادهم مع ادّعاء الربوبيّة والألوهيّة، وتلكم هي النهاية في الطغيان، وقال لهما: لا تَنِيَا ولا تُقَصِّرَا في ذكري ولا تفترا واذهبا إلى فرعون إنه بالغ في الطغيان، وقولا له قولاً لطيفاً رفيقاً لعلّه يتَذَكَّرُ عظمة الله تعالى أو يخاف عقابه، فيرتدع عن طغيانه، يقول تعالى في ذلك:

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾، ويقول جلّ علاه: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

عَظُم على موسى وهارون مواجهة فرعون، فشكيا إلى الله تعالى خوفهما من طغيانه، فطمأنهما سبحانه وتعالى بأنه حاضر معهما يسمع ويرى فهو حافظهما، وقال لهما: فائتياه وعرفاه بأنكما رسولا الله إليه، فليبعث معكما بني إسرائيل ولا يُعذّبهم باستخدامهم في أشقّ الأعمال وإنّنا قد أَتَيْنَاكَ بآية من ربك.

وقال له موسى عليه السلام: يا فرعون إني رسول من رب العالمين جدير على أن لا أقول على الله إلا ما هو حق وقد جئتكم ببيّنة من ربكم.

يقول تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾، ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا

بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾، ويقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾، ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

رِدْءاً أي: مُعيناً، قوله: سنشد عضدك الخ أي: سنقوّيك ونعينك بأخيك.

❋ ❋ ❋

المحاورة التي دارت بين موسى عليه السلام وبين فرعون في شأن الربوبية ورسالة موسى عليه السلام

نفّذ موسى وهـٰرون أمر ربهما، فذهبا إلى فرعون وبلّغا له رسالة الله تعالى، فأجابهما بالآتي:

قال لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

قال له ممتناً عليه: ألسنا قد ربّيناك في بيتنا صغيراً وأقمت عندنا عدة سنين وقتلت الرجل القبطي وفررت منا وجحدت نعمتنا، قال له موسى: فعلت ذلك قبل أن يوحى إليّ وقبل أن أعرف حكم إراقة الدم وفررت منكم لما خفتكم، فوهب لي ربّي حكماً وجعلني من المرسلين، وهذه النعمة التي تمنّ بها علي من التربية والإحسان إليّ أنا وحدي وقد استخدمت شعب بني إسرائيل واستعبدتهم في أعمالك وأشغالك؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾، ثم جعل يحاور نبيّ الله عليه السلام في شأن

الربوبية وأظهر إنكار الخالق الصانع، فقال: وما رب العالمين الذي تزعمان أنه أرسلكما، فأجابه موسى قائلاً: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾، فربّ العالمين هو خالق هذه الأجرام العلوية والسفلية وما بينهما من المخلوقات المتجدّدة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوان التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، وأنها لا بدّ لها من موجد وخالق، فكان جوابه عن هذا أن ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ من الأمراء والوزراء والوجهاء متهكّماً على موسى متنقصاً له؛ ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ما يقول هذا المجنون، قال موسى مخاطباً له: هو ربكم ورب آبائكم الأولين، أي: هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة، قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وصف نبيّ الله عليه السلام بالجنون تعمية على قومه خوفاً من ظهور أمره وكذبه في قوله الذي حكاه الله تعالى عنه بقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾، وبقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وكل ذلك منه لعنه الله عناد وجحود، فقد كان يعلم كما يعلم كل عاقل أنه مخلوق لخالق عليم قدير مريد حكيم حي سميع بصير، ولكنه جحد واستكبر؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾، وكما قال عزّ وجلّ: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

وذكر الله تعالى عنه في آية أخرى إنكاره الخالق بأسلوب آخر، فقال عنه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ الذي تدعوان إليه ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ أي: ربنا الذي نعبده وندعو إلى عبادته وحده هو الذي خلق هذا الخلق وقدّر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً، وكتب ذلك عنده في كتاب ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدّره له، قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾، أي: إذا كان ربك هو ما ذكرت فما شأن أهل القرون السابقة عبدوا غير الله وأشركوا به، فألّهوا الكواكب والأصنام والأنداد. قال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ

رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ يعني: فهم وإن عبدوا غير الله فليس ذلك بحجّة لك لأنهم جهلة ضلال مثلك، وربّي لا يضلّ ولا ينسى، ثم ذكره بنعم الله تعالى التي لا يستغني عنها حيّ، فقال: ربّي هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

فهذه النعم والآيات هي آثار قدرة ربي العظيم خلق الأرض وجعل فيها طرقاً وسخّر السحاب والمطر والنبات والزروع والثمار رزقاً للإنسان والأنعام، فتلك آيات وعلامات دالّة على وحدانية الله تعالى يعرفها ويتحقّقها أهل العقول، ولما غُلِبَ فرعونُ بالحجج القواطع وانسدّت أمامَه كلُّ التّمويهات لم يجد ما يحاجج به موسى إلا الطعن فيه بأنه ساحر كذّاب، لا يكاد يبين كما وصفه بالجنون وقال: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾، وهمّ بقتل موسى، وقال: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ الآية.

وقال عزّ وجلّ: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ الآية.

وقال جلّ علاه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾... ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ الآية.

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ الآية.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ الآية.

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾، هذه خلاصة ما أجاب به فرعون وملأه وأشياعه رسول الله موسى وأخاه هارون عليهما السلام.

* * *

ظهور معجزات موسى عليه السلام وإيمان السّحرة

بعد أن عجز فرعون عن مقاومة حجج موسى عليه السلام عدل إلى التهديد واستعمال القوّة وسطوته، فقال لقومه تمويهاً عليهم: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ الخ، وخاطب موسى بقوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾.

يقول لعنه الله: لئن جعلت إلهاً آخر تعبده دوني لأجعلنك من جملة السجناء، وهٰهنا جاءت الفرصة لإظهار المعجزة الكبرى لموسى عليه السلام بإذنٍ من الله الواحد القدير، فقال له: أتسجنني ولو أتيتك ببرهان واضح بيّن، قال الطاغية اللّعين الجاهل: فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى موسى عصاه وطرحها على الأرض فإذا هي قد انقلبت ثعباناً مبيناً، أي: عظيم الشكل ذا هول فظيع باهر ونزع يده ووضعها في جيبه تحت إبطه، فإذا هي بيضاء تتلألأ للناظرين لها شعاع بهر الأبصار، فكان هذان برهانان من الله تعالى أيّده الله بهما، وهما العصا واليد، ومع ظهور هذين الخارقين العظيمين لم ينتفع فرعون لعنه الله بشيء من ذلك، بل أصرّ على كفره وعناده وأظهر لقومه أنّ هذا كلّه سحر وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته، ومن في دولته، كما أشار إليه بذلك الملأ من قومه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾

يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾، قالت جماعته: إن موسى لساحر ماهر في السحر يحاول إخراجكم من أرضكم بسحره، قال لهم: بماذا تشيرون عليّ أن أفعل بهذا، قالوا: أخّره وأخاه وأرسل إلى أنحاء المملكة جامعين يجمعون لك كل ساحر ماهر في سحره، فأجمعوا مع موسى عليه السلام على موعد يجتمع فيه السحرة معه لِمُبَارَاتِهِ في سحره، فجاءوا واجتمعوا في يوم خاص، وذلك يوم الزينة وكان يوم عيد لهم، وذلك وقت ضحوة النهار ليظهر الحق أبلج، ووعد فرعون السحرة بمبالغ عظيمة من المال إن هم تفوّقوا على موسى وهزموه وغلبوه، فحضر الجميع في مشهد عام حضره فرعون وملؤه وأعوانه وخدمه وجيوشه وحشد من عامّة الناس، فتقدم السحرة وقالوا لموسى في إعجاب وكبرياء: إما أن تلقي أو نكون نحن الملقين، قال: ألقوا فألقَوا حبالهم وعصيهم فانقلب الجميع أفاعي وثعابين وجاءوا بسحر عظيم أخافوا الناس بذلك وأرهبوهم حتى موسى أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله تعالى إليه: لا تخف، فألق ما في يمينك فألقى عصاه فإذا هي تبتلع كل ما افتروه من الشعوذة والباطل، فانتصر موسى عليه السلام وانقلب السحرة وأنصارهم أذلاّء منهزمين، فلما عرف السحرة أن هذا ليس سحراً وقعوا ساجدين، وقالوا: آمنّا برب العالمين ربّ موسى وهارون، فعاتبهم فرعون وهدّدهم بالقتل وقال لهم: إن هذا - يعني موسى - هو أستاذكم الكبير الذي علّمكم السحر... أجاب السحرة المؤمنون: لا ضرر علينا ولو صلبتنا إنّا إلى ربنا لمنقلبون، إننا نرجو أن يغفر لنا ربنا خطايانا حيث كنا أول المؤمنين.

وفي هذا المشهد العظيم والانتصار الباهر تأتي الآيات الآتية:

قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾

فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ الآية.

وقال في الأعراف: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم﴾ إلى قوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾.

وقال في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَاۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقال في الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾﴾. إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾، وهي كآيات الأعراف تماماً إلا في بعض الألفاظ.

فهذه جملة ما جاء في القرآن من مشهد مباراة موسى عليه السلام مع السَّحرة وظهوره عليهم وانهزامهم وإيمانهم وما هدّدهم به فرعون وعذّبهم به...

❋ ❋ ❋

إصرار فرعون وقومه على طغيانهم وإرسال أنواع من العذاب عليهم والانتقام منهم لعلهم يرجعون

لما انتصر الكليم عليه السلام على السَّحرة وانهزم فرعون وجنده وظهر الحقّ وزهق الباطل، رجع فرعون والأقباط إلى إذاية موسى وبني إسرائيل، وقال الملأ من قومه: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾، قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾، فضجَّ بنو إسرائيل بالشكوى إلى نبيّهم موسى عليه السلام مما أصابهم من الظلم قبله وحينه، طمأنهم وأمرهم بالصبر وضبط النفس والاستعانة بالله على احتمال هذا البلاء، ووعدهم بحسن العاقبة إن اتّقوا الله تعالى، وأنه تعالى عسى أن يهلك عدوّهم ويجعلهم خلفاء في الأرض، يقول تعالى في ذلك: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ فأصيبوا بالجدب والسنين ونقص من الثمار، فلم يزدهم ذلك إلا عتواً وطغياناً وكفراً ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: فلسنا بمصدقين بك ولا بسحرك، فعند ذلك سلّط الله تعالى عليهم بعض جنوده التي يعذّب بها من

يشاء من عباده، يقول الله عزّ وجلّ في ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

أرسل عليهم طوفان الماء غمر مزارعهم وممتلكاتهم والجراد تأكل مزروعاتهم والقمل، وهو حشرة تفسد ثمارهم وتؤذي الإنسان والحيوان والضفادع التي انتشرت في كل مكان يسكنون فيه، فنغّصت حياتهم وأفسدت عليهم صَفاء عَيْشهم، كما بعث عليهم الدم يمتزج بمياه آبارهم وعيونهم، وربما سال من أنوفهم وأفواههم.

وكانوا كلما حلّ بهم العذاب يفزعون إلى موسى متضرّعين إليه أن يدعو ربّه بكشف العذاب عنهم ويعِدُونه بالإيمان إن هو كَشَف عنهم العذاب، فإذا رُفِعَ عنهم رجعوا إلى ما كانوا عليه، يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

❋ ❋ ❋

خروج موسى ببني إسرائيل من مصر وهلاك فرعون وقومه بالغرق في البحر

كان من المقاصد التي بعث بها موسى عليه السلام تحرير بني إسرائيل من أيدي الأقباط والذهاب بهم إلى بلاد أجدادهم فلسطين، ولما طالت إذاية الأقباط لهم مع عتوّ فرعون وطغيانه وتجبّره واستكباره وعدم تذكّره رغم ما أصابه وقومه من أنواع البلاء، دعا الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام عليه وعلى قومه وعلى أموالهم بالعذاب والدمار الشامل، فأجاب الله دعاءهما وأمرهما بالاستقامة وترك سبيل أولئك الكفرة الجَهَلة، وقال موسى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

مضت مدة غير قليلة على هذا الدعاء ثم جاء الأمر الإلهيّ بخروج

موسى وبني إسرائيل من مصر ليلتحقوا ببلاد أجدادهم إبراهيم وإسحٰق ويعقوب وهي فلسطين، فخرجوا متسترين ليلاً متّجهين إلى البحر الأحمر ليخرجوا إلى صحراء سيناء، ثم إلى فلسطين، بلغ فرعونَ خروجُهم فجمع جموعه وجنوده وأتبعوهم معجبين بقوّتهم وكثرة عددهم، فلما لحقوا موسى وقومه وتراءى الجمعان خاف بنو إسرائيل وقالوا لموسى: لقد أدركونا فها هم وراءنا، وهذا البحر أمامنا فأجابهم موسى الموقن: إنّ معي ربي سيدلّني على المخرج من هذا البلاء، فأوحى الله تعالى إليه: أن اضرب بعصاك البحر فضرب فصار البحر فلقتين وانفتحت الطريق وسطه فخرجوا للشاطىء سالمين، ثم اقتحم فرعون وقومه الطريق، فلما توسّطوا جميعهم البحر انطبق عليهم فأغرقوا جميعاً، وعندما عاين فرعون الموت قال: إني آمنت أنه لا إلٰه إلاّ الذي أمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، فقيل له: الآن تؤمن حيث لا ينفعك الإيمان وقد كنت قبل من المفسدين الجبّارين، وكان هذا هو الفاصل بين موسى وقومه وبين فرعون والأقباط، فتركوا وراءهم القصور المزخرفة والفروش الفارهة وأنواع الزروع والجنان والعيون والنعم التي كانوا فيها فاكهين، فاندحروا واندثر جمعهم، وما بكت عليهم السماء والأرض.

وقد ذكر الله عزّ وجلّ مشهد هلاك فرعون وقومه ونجاة موسى وبني إسرائيل في عدّة سور وبأساليب مختلفة وألفاظ متباينة لتكون عبرة وذكرى للذاكرين.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٧].

وقال جلّ علاه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ

كَرِيمٍ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان: ١٧ ـ ٣١].

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢].

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٧ ـ ٧٩].

وهكذا دمّرهم الله عزّ وجلّ وحاق بهم سوء العذاب، فحينما أغضبوه تعالى أغرقهم جميعاً وجعلهم مَضْرِبَ الأمثال للآخرين، ولم يكن أمر فرعون برشيد، وسيأتي يوم القيامة أمام قومه موردهم النار، واتّبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين.

قال تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال جلّ علاه: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٧ ـ ٩٩].

وقوله: شرذمة أي: جماعة قليلون منقطعون، وقوله: مشرقين أي: وقت شروق الشمس، وقوله: تراءى الجمعان أي: لحق فرعون موسى ورأى بعضهم بعضاً، وقوله: كالطود أي: كالجبل، قوله: وأزلفنا أي: قربناهم وقوله: فغشيهم أي: غطاهم من البحر ما غطاهم، وقوله: وحاق بآل فرعون أي: نزل وحلّ بهم.

* * *

توجه موسى ببني إسرائيل إلى فلسطين وتمرّدهم عليه وما وقع له ولهم من عجائب في التيه
بنو إسرائيل يسألون ربهم أن يجعل لهم صنماً

لما أنعم الله تعالى على موسى وقومه بإنجائهم من فرعون وملإه وإغراق هؤلاء عن آخرهم توجّه موسى سائراً ببني إسرائيل إلى البلاد المقدّسة فمرّوا في طريقهم على قوم عاكفين على أصنام لهم يعبدونها، فسأل بنو إسرائيل موسى أن يجعل لهم صنماً يكون لهم إلهاً كما لأولئك الوثنيين، فأجابهم موسى: إنكم قوم جهلة أتريدون أن تكونوا مثل هؤلاء وهم قوم مُدَمَّرٌ هَالِكٌ ما هم فيه من الدّين الباطل! أأطلب لكم معبوداً غير الله؟ والحال أنه تعالى فضّلكم على غيركم من أهل زمانكم بالنعم الجليلة.

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

وقد صدر من صحابة رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حادثة شبيهة بما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام.

{٥٣٣} ـ فعن أبي واقد الليثيّ رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قِبَلَ حُنَيْنٍ فمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فقلت: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، فقال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**الله أكبر**»، وفي رواية: «**سبحان الله هذا كما قالت بنو إسرائيل اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لَتَرْكَبُنَّ سُنَّة من كان قبلكم**».

رواه أحمد (٥/٢١٨)، والحميدي (٨٤٨)، والترمذي في الفتن (٢٠١٠)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٩٩) وغيرهم بسند صحيح.

ذات أنواط: اسم شجرة كان المشركون يعلقون بها أسلحتهم، وقوله: لتركبُن أي: لتتبعن طريق من سبقكم من اليهود والنصارى.

وفي الآية كالحديث تحريم الاقتداء بالكفار والتشبّه بهم، وقد جهل المسلمون هذا الموضوع أو تجاهلوه اليوم،فأصبحوا يلهثون وراء الكفار في الائتساء بهم ولو في التوافه وشؤون المجانين.

❊ ❊ ❊

تيه بني إسرائيل في الصحراء عقاباً لهم لعصيانهم نبيّهم

تابع كليم الله عليه السلام مسيرته ببني إسرائيل، ولما قارب بيت المقدس عَلِمَ أن فيها قوماً جبّارين، فأمر جماعة من قومه أن يذهبوا إليهم للتجسّس عن أحوالهم وشؤونهم، فذهبوا ثم رجعوا وقد رأوا من القوم ما هالهم وأخافهم، فحذروا القوم من الدخول عليهم فامتنع جميعهم من الذهاب لقتال الجبارين، إلاّ رَجُلَيْنِ ممن أنعم الله عليهما بالإيمان الصادق والإخلاص والاستسلام لله ولرسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم. أما

الباقي، فامتنعوا وأساءوا الأدب مع الله ومع رسوله، فقالوا كلمة تتفطّر منها السموات وتشقّق الأرض: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، فعاقبهم الله تعالى فحرَّم عليهم دخولَ بيت المقدس مدّة أربعين سنة، وتيههم في الصحراء فكانوا لا يهتدون للخروج منها.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٦].

قال المفسّرون: روي أنهم كانوا يسيرون الليل كلّه، فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في الموضع الذي كانوا فيه، ولنقارن بين مقالة هؤلاء اليهود لنبيّهم، وبين ما قاله الصحابة لرسولنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عند غزوة بدر حينما استشارهم.

{٥٣٤} ـ فعن عبدالله قال: جاء المِقداد رضي الله تعالى عنهما يومَ بدر وهو على فَرَس له، فقال: يا رسول الله إنّا لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكنه امْضِهِ ونحنُ معك، فكأنّه سُرِّي عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

رواه البخاري في التفسير (٩/٣٤٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٣٣) وغيرهما.

{٥٣٥} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سار إلى بدر فاستشار المسلمين، فأشار عليه أبو بكر ثم

مَلَلُ بني إسرائيل من أكل اللحم والعسل وطلبهم البقولات ونحوها

رغم أن الله عزّ وجلّ أتمّ على بني إسرائيل النعمة وأكرمهم بالغذاء الطيّب الفاخر، وهم في صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا نبات، فها هم يطلبون من موسى استبدال ذلك بالمأكولات العادية، وهذا من سخافة عقولهم وسقوطهم وكفرهم نعمة الله تعالى عليهم.

قال تعالى في هذا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ الآية.

وهكذا استبدلوا الخسيس بالنفيس، فضّلوا البصل والثوم والبقول على المنّ والسلوى.

❋ ❋ ❋

موعد لموسى مع ربّه ليعطيه التوراة وما صدر من بني إسرائيل من فتنتهم بعبادة العجل في غيبته

كان موسى عليه السلام قد أخبر بني إسرائيل وهم لا يزالون بمصر وبشّرهم بأن الله سيهلك فرعون، وأنه سينزل عليهم كتاباً من عنده فيه التشريعات التي ينبغي أن يسيروا عليها، فلما أهلك الله فرعون سأل موسى ربّه ما وعده به من الكتاب، فأمره أن يذهب إلى جبل الطور ويمكث فيه ثلاثين يوماً صائماً متعبّداً لله عزّ وجلّ، فلما أتمّ الثلاثين أمره باستئناف صيام عشرة أخرى لتتمّ له أربعون يوماً ليكون مستعِدّاً أو مُؤَهَّلاً لتلقّي الكتاب وسماع كلام الله الكريم، وكان موسى عندما غادر بني إسرائيل جعل أخاه هارون خليفة عليهم وأمره بالإصلاح ونهاه عن اتّباع طريق المفسدين.

فلما أتمّ الأربعين يوماً كلّمه الله عزّ وجلّ بكلام لا ندري كيفيّته، وعندما سمع كلامه اشتاق لرؤيته، فسأل عزّ وجلّ أن يريه النظر إليه، فأجابه

تعالى بأنه لن يراه لأن بنيته البشرية لا تطيق رؤيته، ثم أخبره بأنه تعالى سيتجلى بنوره لما هو أشدّ وأقوى منه، فإذا استقرّ مكانه وأطاق التجلّي الإلٰهيّ له أمكنه رؤيته، وإلا فأحرى به أن لا يرى عظمة الله تعالى، فلما تظاهر سبحانه للجبل بشيء من نوره جعله دكاً مستوياً بالأرض، وعندئذٍ سقط موسى صعقاً مغشياً عليه لهول ما رآه، فلمّا أفاق قال: أنزّهك يا ربّ تنزيهاً يليق بجلالك وإني تائب إليك مما سألت، وأنا أول المؤمنين بعظمتك... فخاطبه الله عزّ وجلّ بأنه اصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه وأمره أن يأخذ التوراة التي أُوتيها وليكن من الشاكرين على ذلك، وأخبر تعالى بأنه كتب في الألواح كل ما يحتاجون إليه من الأحكام والمواعظ وأمره أن يأخذها بجدّ واجتهاد، وأن يأمر قومه الأخذ بأحسنها، وفي هذا المشهد جاءت الآيات.

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٢ ـ ١٤٥].

❋ ❋ ❋

بنو إسرائيل يعبدون العجل

لما ذهب موسى لموعد ربّه طال عهده ببني إسرائيل وتأخّر عنهم، فقام رجل منهم ماكر كافر يُدْعَى السَّامِرِيّ، فأخذ من بني إسرائيل ما كان عندهم من حلي فصاغ لهم منها عجلاً، فجعل يخور بما لا ندري كيفية ذلك، وقال لهم: هذا إلٰهكم وإلٰه موسى...

فنصحهم هارون ونهاهم عن عبادة ما لا يضرّ ولا ينفع وأفهمهم أنهم فُتِنُوا وجهد وتعب في ردّهم عن عبادة العجل، فلم يُفلح، فأصرُّوا على عبادته حتى يرجع إليهم موسى.

فعلم موسى بذلك بوحي من ربّه، فلما عاد إليهم وهو في أشدّ الغضب والحزن، ألقى الألواح من يده ووبّخهم وأنكر عليهم وأخذ بلحية أخيه هارون وناصيته وعاتبه على ما حصل، فاعتذر إليه أخوه بما يأتي في الآيات. ثم توجّه إلى عدوّ الله السامري الماكر قائلاً له: ما شأنك يا سامري؟ قال: عرفت ما لم يعرفه أحد من ضلالك، وكنت قبضت قبضة من أثر الرسول وطرحتها، كذلك زيّنت لي نفسي، قال له موسى: اذهب فإن الله تعالى عاقبك بأن تقول في حياتك لا مساس، فكان بعد ذلك يتألم من مَسّ أيّ إنسانٍ له، فمكث على ذلك وهام على وجهه حتى هلك، فأخذ موسى العجل وأحرقه وأذرى بقاياه في البحر.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۖ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ

فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤].

❋ ❋ ❋

اختيار موسى من قومه سبعين رجلاً ليذهب بهم لجبل الطور ليقدموا طاعة الله والتوبة مما فعلوا ثم سؤالهم رؤية الله تعالى وصعقهم وإحياؤهم

عرف بنو إسرائيل عِظَمَ الجريمة التي اقترفوا فندِمُوا على ما فعلوا فتعلّقوا بموسى، فقال لهم: إنكم ظلمتم أنفسكم فتوبوا إلى خالقكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم هو خير لكم، وقد تاب الله عليكم إنه تواب رحيم، فاختار منهم سبعين رجلاً من خيارهم ليذهبوا معه إلى الجبل الذي اعتاد أن يكلّمه الله تعالى عنده ليعتذروا مما فعلوا ويتوبوا إليه، فلما ذهبوا مع نبيّهم موسى عليه السلام وسمعوا كلام الله تعالى قال جماعة منهم: لن نؤمن لك أن هذا كلام الله حتى نراه جهرة فأخذتهم الزلزلة وصعقوا، فاعتذر موسى إلى الله مما طلبوا، وقال له: أتعذبنا بما فعل الجهلة منا، وتَشفّعَ فيهم وسأل ربه مغفرتَه ورحمته...

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقال عز وجل: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۚ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ

هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

❋ ❋ ❋

رفع جبل الطور فوقهم لامتناعهم من أخذ التوراة

تمرّد بنو إسرائيل على موسى عليه السلام وامتنعوا من الأخذ بما في التوراة، فهدّدهم الله عزّ وجلّ واقتلع جبل الطور ورفعه فوق رؤوسهم كأنه سقيفة أو ظلّة غمام حتى أيقنوا أنه ساقط عليهم، فقيل لهم: إن لم تقبلوها وقع عليكم فخرّوا ساجدين خوفاً من سقوطه، وقال الله تعالى لهم خذوا ما أعطيناكم بجد وعزيمة واذكروا ما فيه بالعمل لتكونوا في سلك المتقين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

❋ ❋ ❋

إذاية بني إسرائيل موسى ورميهم إياه بالأدرة

كان في بني إسرائيل جواز النظر إلى العورات والاستحمام الجماعي، فكانوا يغتسلون عراة غسلاً جماعياً، وكان نبيّ الله موسى عليه السلام يستحيي من الله عزّ وجلّ أن يراه مع الناس عرياناً مختلطاً بهم، فكان يغتسل منفرداً بعيداً عنهم، فطعنوا فيه ورموه بما هو بريء منه، فقالوا: إنه آدَرُ، يعنون: أن أُنثييه منتفختان، فلما أراد الله أن يبرئه، خلع ثيابه ووضعها على حجر فاستحمّ على عادته، فلما توجّه ليلبس ثيابه فر الحجر بملابسه حتى مرّ على بني إسرائيل وموسى وراءه يقول: أعطني ثوبي يا حجر، فرأى

بنو إسرائيل جسد موسى خالياً مما رموه به، وكان ذلك تبرئة له مما قالوا مع ظهور تلك المعجزة، والآية الخارقة؛ وفي ذلك يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

❋ ❋ ❋

قصة بني إسرائيل في البقرة

قال المفسّرون من السلف وعلماء التاريخ: إنه كان رجل في بني إسرائيل كثير المال وكان شيخاً كبيراً ولم يكن له وارث إلا أبناء أخ له وكانوا يتمنّون موته، فعمد أحدهم فقتله ليلاً، فلما أصبحوا رفعوا أمره إلى نبيّ الله موسى ليدلّهم على قاتله، فسأل الله تعالى في شأنه فأمره أن يأخذوا بقرة فيذبحوها ويضربوا الميت ببعضها، فلما أمرهم بذلك أنكروا عليه ما أمرهم به وقالوا له: أتسخر بنا وتضحك علينا؟ إنا نسألك أن تخبرنا بمن قتل صاحبنا وأنت تأمرنا بذبح بقرة، فأجابهم نبيّ الله عليه السلام: إني أعوذ بالله أن أكون من جملة الجاهلين السفهاء، ولما علموا أنه صادق وأن ما قاله هو أمر من الله عزّ وجلّ جعلوا يستفسرونه في شأن هذه البقرة، فسألوه عن صفتها، ثم عن لونها، ثم عن سنّها، فأجابهم عن الله عزّ وجلّ بما عزّ وجوده فقال لهم؛ هي لا كبيرة ولا صغيرة، بل وسط بين ذلك، وتكون صفراء فاقعة اللّون لا ذلول يحرث بها ويسقى الأرض عليها، ثم بعد ذلك تكون سليمة من العيوب، وهكذا شدّدوا فشدّد الله عليهم، كما جاء في حديث ضعيف.

وفي جملة هذه القصة يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ

إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧٣].

فلما ذبحوا البقرة أمروا أن يقطعوا منها قطعة فيضربوا الميت بها ففعلوا فأحياه الله تعالى، فقال: فلان ابن أخي قتلني، ثم رجع ميتاً، وكانت هذه أيضاً من أبهر المعجزات التي أظهرها الله على يد موسى عليه السلام على مرأى ومسمع من بني إسرائيل.

❋ ❋ ❋

قصة موسى مع الخضر عليهما السلام

قام نبيّ الله موسى عليه السلام يوماً خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي: الناس أعلم؟ فقال: أنا، فأوحى الله إليه: بلى عبدنا الخضر هو أعلم منك، فسأل الله السبيل إليه، فأمره أن يأخذ معه حوتاً فيجعله في مكتل فحيثما فقده هو ثم، فأخذ الحوت وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا صخرة ووضعا رؤوسهما فناما وأضرب الحوت فخرج فسقط في البحر، فاتخذ سبيله فيه سرباً فصار مثل الطاق، فلما استيقظا انطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت... قال: ذلك ما كنا نبتغي، فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجّى بثوب فسلّم عليه موسى، فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام، قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل، قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً

يا موسى، إني على علم من الله تعالى علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله تعالى علّمك الله لا أعلمه، فقال موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً، قال الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرّت بهما سفينة فحملوهما بغير أجر، فعمد الخضر إلى قدوم وجعل يقلع لوحاً من السفينة، فاعترض عليه موسى فقال له: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً، قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً، وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ رأسه بيده فاقتلعه فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ ۢ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ ثم فسّر له ما فعل من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، كما في القرآن الكريم، قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما**»، رواه أحمد والبخاري في نحو عشرة مواضع ومسلم وغيرهما، وقد تقدم مستوفى في التفسير وهو مشروح في كتابنا «عجائب الأقدمين».

❋ ❋ ❋

من فوائد قصة موسى وهارون وعِبَرها

في هذه القصة، قصة نبيّ الله وكليمه سيدنا موسى وأخيه سيدنا هارون على نبيّنا وعليهما الصلاة والسلام فوائد وعِبَر جمّة سنأتي على أبرزها بحول الله تعالى وعونه:

فمنها: أن كل نبيّ له عدوّ من المجرمين يعاديه ويخالفه ويناضل ضدّ دعوته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وكان لسيدنا موسى أعداء عدة من أبرزهم وأعتاهم: فرعون، وهامان، وقارون، وابن باعوراء، والسامري لعنهم الله تعالى وأخزاهم.

ومنها: ابتلاء بني إسرائيل وتسليط الأقباط عليهم واستعبادهم إيّاهم واستخدامهم كالرقيق، ومن أفحش وأعظم ما ابتلوا به قتل ذكورهم من الأطفال واستبقاء بناتهم.

ومنها: لطف الله عزّ وجلّ بِنَبِيَّيْهِ موسى وأخيه هارون عليهما السلام حيث أنجاهما الله تعالى من القتل عقب ولادتهما، رغم أنهما ولدا أيام الفتنة، وهكذا رحم عزّ وجلّ موسى فنشأ وتربّى وشبّ في بيت عدوّه فرعون حتى خرج عليه وهاجر لبلاد مدين.

ومنها في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ الخ، استدلّ به جمع من العلماء كأبي الحسن الأشعري وابن حزم وغيرهما أنّ هنالك من النساء من نَبِيّينَ كحواء وسارة وأم موسى وهاجر، وآسية، ومريم. والجمهور على أن النبوّة خاصة بالرجال، والله تعالى أعلم.

ومنها: أن الأنبياء عليهم السلام كباقي البشر تطرأ عليهم الأعراض البشرية من فرح وحزن وغضب ورضا وخوف... فما صدر من موسى من الخوف على نفسه وخروجه من مصر فارّاً خائفاً من فرعون وملائه لا يقدح في نبوّته ومقامه.

ومنها: أن من خصائص المرأة الخُلُقيّة الاستحياء والحشمة كما تجلّى ذلك في فتاتي شيخ مدين والحياء في المرأة شيمة وزينة لها، وما أحوج نساء عصرنا إلى هذا الخُلُق الكريم الذي قضى عليه أعداء الدين وجنود إبليس، فالله المستعان على ذلك.

ومنها: قد اختلف المفسّرون والمؤرخون في الشيخ الذي أقام عنده موسى عليه السلام، فالمشهور الجاري على الألسنة أنه شعيب عليه السلام، والصحيح خلافه فإن شعيباً كان قديماً جاء عقب لوط بمدّة وجيزة، ولوط

كان ابن أخي إبراهيم عليهما السلام، وبين عصر إبراهيم وعصر موسى قرون وقرون.

ومنها: أن رعاية النبيّ الغنم لا يقدح في منزلته، بل في ذلك بالنسبة للأنبياء حكمة ورفعة وليست منقصة كغيرهم، وسيأتي في السيرة حديث في رعاية نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم غنم قومه، وهنالك سنتكلم على الحكمة في ذلك.

ومنها: جواز عرض الرجل ابنته على غيره للتزوّج بها، وأنه لا غضاضة في ذلك، وقد تقدم هذا في النكاح والحمد لله.

ومنها: اختصاص الله تعالى موسى عليه السلام بالكلام مواجهة في الأرض بكلام سمعه موسى عليه السلام لا ندري كيفية ذلك، وتفصيل ما وقع بالتدقيق، فالله ليس كمثله شيء فذاته تعالى لا تشبه الذوات وصفاته لا تشبه الصفات، وحسبنا أن نؤمن بما جاء في القرآن مع تنزيهنا الله تعالى عن صفات خلقه.

ومنها: أن إرسال موسى وأخيه هارون إلى فرعون وهامان وقارون كان بدايته من جبل الطور حيث كلّمه الله تعالى لأوّل مرة.

ومنها: تدريب الله عزّ وجلّ موسى على معجزتي العصا واليد، فها هو تعالى يريه خرق العادة في قلب العصا أفعى تسعى، ويده بيضاء تتلألأ حتى يكون مستعداً لإظهار حجّته وصحة رسالته عند الحاجة، وقد كان الأمر كذلك، فقد أيّده الله عزّ وجلّ بها في غير موطن، وخاصة العصا فقد انتصر بها على السحرة وفرعون وجنوده، وقد ضرب بها البحر فانفلق أمامه فاجتازه وقومه وضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً... فكانت نعم المعين والنصير له.

ومنها: أن هارون كان وزيراً ومعيناً لأخيه موسى ورسولاً معه إلى فرعون وملائه نتيجة لما طلب موسى من الله عزّ وجلّ ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾...

ومنها: مشروعية الهجرة وأنها من سنن الأنبياء، وكان أوّل من هاجر منهم إمام الحنفاء سيّدنا إبراهيم، وابن أخيه لوط عليهما الصلاة والسلام، وقد قدمنا أحكام الهجرة في الجهاد والحمد لله.

ومنها: مشروعية الرفق والحكمة في الدعوة إلى الله تعالى وسلوك مسلك اللين في القول ومحاورة المدعويين أيّاً كانوا بالتي هي أحسن، وأن يبيّن للملحدين الذين ينكرون الصانع الخالق دلائل وجوده وآيات وحدانيّته وقدرته وعظمته، ودعوة موسى فرعون نموذج في ذلك.

ومنها: جهل فرعون بالله تعالى وغباوته في ادّعاء الربوبية والألوهية وهو يعلم من نفسه أنه مخلوق لغيره، وأنه لم يخلق نفسه ولا أحداً سواه.

ومنها: تأييد الأنبياء بإظهار الآيات والخوارق وظهور صدقهم، وقد جاء في الحديث الصحيح المشهور عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«ما من الأنبياء من نبيّ إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن عليه البشر»** الحديث، ويأتي في السيرة بإذن الله تعالى ومشيئته.

ومنها: عناية الله عزّ وجلّ بمن سبقت له السعادة، فهؤلاء السَّحَرة كانوا أكفر خلق الله وأفجرهم وأغرقهم في الانحراف عن الحقّ أصبحوا بين عشيّة وضحاها من أكابر المؤمنين شهداء سعداء، وذلك يدلّ على أن من سبقت له السعادة لا تضرّه الجناية، فالسعيد سعيد وإن عمل ما عمل، كما أن الشقيّ كذلك، ومثل هؤلاء السحرة الشياطين الذين بعثوا من عظيمهم للبحث في الأرض عن سبب الحيلولة بينهم وبين خبر السماء، فلما وصل الجماعة الذين ذهبوا إلى جهة الشرق وجدوا النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقرأ القرآن في صلاة الصبح، فآمنوا ورجعوا إلى قومهم منذرين، كما ذكره الله عزّ وجلّ في سورتي الأحقاف والجنّ، فالأعمال إذاً بالسوابق والخواتم.

ومنها: جريان سنّة الله تعالى في القوم المجرمين أنهم إذا أصرّوا على طغيانهم وعدوانهم وعدم رجوعهم إلى الله أنه تعالى ينتقم منهم بأنواع من العذاب والنكبات، كما فعل بفرعون وقومه، وكما صنع بمن قبله كعاد

وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم من السابقين واللاحقين، كما شرحت ذلك وأوضحته في كتاب «أسباب هلاك الأمم»، وهذه السنّة لا تتخلف أبداً فها نحن الآن لما كثر الانحلال والميوعة وانتشار الفجور وجميع أنواع الآثام وشيوع الظلم واعتداء القوي على الضعيف أصاب الله عزّ وجلّ العالم الحالي بمسلميهم وكافريهم بأنواع من النكبات والعقوبات، والحروب الطاحنة، والزلازل، والفيضانات، والرياح العاصفة المدمّرة، وكثرة الفتن، وأنواع الأمراض والعاهات المعضلة... ولا ندري ماذا يكون ويجري في الغد القريب.

ومنها: المعجزة العظمى التي لا مثيل لها في معجزات الأنبياء: انفلاق البحر لموسى حتى عبره هو وقومه، وإهلاك فرعون وجنوده المجرمين، وتلك آية فريدة يحق لكل مؤمن صادق أن يفاخر بها أهل الشرك والباطل من كل جنس كافر.

ومنها: هلاك فرعون وغرقه وأن ذلك محقّق، نطق به القرآن الكريم في غير ما آية، وأنه بقي على طغيانه حتى مات على كفره ولم ينفعه إيمانه عندما عاين الموت، حيث قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾، فأنكر الله تعالى عليه إيمانه وقت مشاهدة العذاب، وأنه كان عاصياً لله بكفره وطغيانه وجبروته مفسداً في الأرض، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، قال المفسّرون: إن الله تعالى ألقى جسمه بشاطىء البحر حتى رآه الناس وتحقّقوا موته، وحُفِظَ مُحَنَّطاً حتى يومِنا هذا، فهو بدار الآثار بالقاهرة مع فراعنة مصر.

وهو وقومه الآن يعرضون على النار صباحاً ومساء، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾، وسيكون أمام قومه يقودهم إلى النار؛ كما قال عزّ وجلّ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

ومنها: في سؤال بني إسرائيل نبيّ الله موسى عليه السلام أن يجعل لهم

إلٰهاً كما شاهدوه عند غيرهم، وإنكاره ذلك عليهم مع حديث أبي واقد اللّيثي: اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، دليل على تحريم اتّباع الكفار والمشركين وخاصة في مظاهر شعائرهم، وأنه يجب تجنّب التشبّه بهم والتنزّه عن الاقتداء بهم فيما يختصّون به، وقد جهل المسلمون هذا اليوم فأغرقوا في التشبّه بالكفار حتى ذابت شخصيتهم في شخصية أعداء الله وأعداء دينه حتى لم يبق لهم شيء يميّزهم عن الكفار، والله المستعان على هذه البلية.

ومنها: تمرّد بني إسرائيل على موسى ورفضهم طاعته وعدم امتثالهم أمر الله تعالى في قتال الجبّارين ودخولهم الأرض المقدّسة التي كتبها الله لهم وإساءتهم الأدب مع الله ومع كليمه، حيث قالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون.

ومنها: عقاب الله تعالى إياهم بالتيهان والضلال في الصحراء نتيجة عصيانهم، فمكثوا في الصحراء أربعين سنة حتى ماتوا وجاء من خَلَفَهم من أبنائهم الذين وُعِظُوا بآبائهم، فدخلوا الأرض المقدّسة مع يوشع كما يأتي.

ومنها: توالي نِعم الله تعالى على بني إسرائيل في التيه مدة بقائهم فيه ومشاهدتهم عجائب المعجزات ووقوع عدة أحداث فيه.

فقد وقع في التيه تفجير المياه من الحجر وتظليلهم بالغمام والإنعام عليهم بالمنّ والسلوى تغذية لهم، وسماعهم كلام الله وصعقهم، ثم إحياؤهم ونزول التوراة بصائر لهم وتوبة الله تعالى عليهم بعد عبادتهم العجل، ورفع الجبل عليهم، وقصة البقرة وإحياء الميت بضرب بعضها، إلى غير ذلك مما وقع لهم، فكل ذلك وقع وهم في التّيه بعد عبورهم بحر السويس متجهين لبيت المقدس كما وقع وشاهدوه من المعجزات والأحداث في حياتهم أيام موسى، قصة الخضر معه وطغيان قارون والخسف به وبداره وانسلاخ ابن باعوراء من آيات الله وكفره بعد إيمانه...

ومنها: كثرة معجزات سيدنا موسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، كانقلاب العصا ثعباناً واليد بيضاء لها شعاع، وتسليط جند الله تعالى على الأقباط من الطوفان والدم والقمل والضفادع... وتلقف العصا حبال وعصي السحرة وانتصارها عليهم، وانفلاق البحر حتى عبره، وتظليل الغمام على

بني إسرائيل، وإنزال المنّ والسلوى عليهم، وتفجيره المياه من الحجر، وتكليم الله موسى عليه السلام، وإحياء بني إسرائيل بعد صعقهم، وفرار الحجر بثياب موسى، وصكّه وجه ملك الموت، وإحياء الميّت ببعض البقرة، ورفع الجبل فوق بني إسرائيل إلى غير ذلك من الآيات والمعجزات التي أيّد الله تعالى بها موسى وشاهدها الإسرائيليون وغيرهم.

ومنها: استشكال بعض من لا تتّسع عقولهم للإيمان بكل ما جاء عن الله وعن رسوله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فطعنوا في حديث صكّ موسى وجه ملك الموت حتى فقأ عينه؛ فإن هذا لا إشكال فيه لأن ملك الموت جاءه في صفة إنسان يريد اغتياله ولم يعرفه، ولذلك لما جاءه مرة أخرى معروفاً استسلم لله تعالى في قبض روحه.

وفي هذه الحادثة بيان أن الله عزّ وجلّ يتجاوز عن أكابر عباده ما لا يتجاوز عن غيرهم، فإنه تعالى لم يعنف نبيّه موسى على ما صنع ولا عاتبه، بل زاده تكريماً بالخيار بين قبض روحه وبين أن يعيش عدد ما تقع يده عليه من شعر الثور، وهذا يدلّ على أن الله عزّ وجلّ يراعي مواقف عباده في الإيمان به وطاعته والدعوة إليه والدفاع عن دينه ونصره، فيتجاوز لهم عن هفواتهم ولو كانت كبائر ومظالم.

ومنها: أن الله تعالى كلّم موسى عليه السلام تكليماً حقيقة لا مجازاً، وليست الشجرة هي المتكلّمة ولا الملائكة، وأنه تعالى كلّم موسى عند قدومه من مدين في طريقه إلى مصر، كما كلّمه أيام التّيه مرتين: مرة بعد موعده بصيام أربعين يوماً، ومرة عند ذهابه للجبل بالسبعين نفراً ليعتذروا عن عبادة بني إسرائيل العجل، وقد تقدم ذلك.

ومنها: جواز رؤية الله تعالى في الدنيا بدليل طلب موسى إياها غير أنها لم تقع لأحد؛ لأن البنية البشرية لا تطيقها، ولذلك أمر تعالى موسى عليه السلام أن ينظر إلى الجبل ليرى عظمة أثر التجلّي الإلٰهي فيه، وضرب له مثلاً بذلك حتى يعلم ويتحقّق أنه لا يطيق رؤيته عزّ وجلّ، ولذا لما تظاهر الله تعالى ببعض نوره للجبل اندكّ وساخ في الأرض، فخر موسى مغشياً عليه لِما رأى من هول عظمة الله تعالى.

وقد اختلف في رؤية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ربّه ليلة الإسراء، وقد تقدم ذلك في التفسير.

ومنها: أن الأنبياء بعد انتقالهم من هذه الدار يصلون ويحجّون، ولا خلاف في هذا بين العلماء بدليل الحديثين المتقدمين في رؤية النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم موسى حاجّاً يلبّي ويصلّي في قبره، وتقدم ويأتي حديث الإسراء وأنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم صلّى بالأنبياء ببيت المقدس.

ومنها: أن أمّة سيدنا موسى كثيرة تلي الأُمّة المحمدية، وأن بني إسرائيل على ما كان فيهم من تمرد وطغيان... قد كان فيهم العلماء الربانيّون والمؤمنون الصالحون والعباد والزهّاد المتعبّدون، والقرآن أكبر وأصدق شاهد على ذلك.

ومنها: أنه لا يجوز التخيير بين الأنبياء الذي يؤدي إلى احتقار بعضهم أو الاقتتال وإثارة الفتن لأجل ذلك كما حصل بين الصحابي واليهودي... وفي قول النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق أو حوسب بصعقته الأُولى»**.

هو يدلّ على فضله وخصوصية له حيث إنه لم تصبه الصعقة العامة عند النفخة أو أصابته، ولكنه قام قبل كل أحد، حتى نبينا الذي يكون أوّل قائم وأول من يفيق، صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وعظم ومجد وكرم.

ومنها: قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهم السلام، وفيها من العلوم والحقائق والآداب والعبر ما لا يخفى على اللبيب، وقد شرحتها وذكرت لها من الفوائد والعبر نحواً من ستّ وعشرين فائدة في كتاب «الفوائد والعبر من عجائب الأقدمين»... فانظره ولا بدّ.

ومنها: أنه لم يؤمن بموسى من قوم فرعون إلا آسية بنت مزاحم زوجته، ومؤمن آل فرعون، وماشطةُ بنت فرعون.

أما آسية رضي الله تعالى عنها فعادت عليها بركة موسى عليه السلام

بحبّها إياه من صغره ودفعها عنه سوء فرعون، وتربيتها إياه وإحسانها إليه، فكان مآلها الإيمان به وبما جاء به، ثم الختم لها بالشهادة وقد أخبر عنها نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأنها من النساء الكاملات.

{٥٣٦} - فعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«كَمُلَ من الرجال كثير ولم يكمُل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**.

رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم، وقد تقدم في التفسير.

وقد ضرب الله بها مثلاً للمؤمنين الذين يوجدون مع الكفار وفي بيوتهم، وأن ذلك لا يضرّهم إذا كانوا مضطرين مضطهدين أخفوا إيمانهم أم أظهروه، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾.

فقد أخذها فرعون لعنه الله بعد أن علم بإيمانها، فجعل يعذّبها بأنواع من العذاب فصَمَدَتْ وثبتَتْ على إيمانها ودعت الله عزّ وجلّ بجواره في الجنّة، وأن ينجيها من فرعون وعمله السيّىء وينجيها من الأقباط الظالمين، فأعطاها الله ما سألت، وفي قصتها عبرة لكل مؤمن يعيش بين أقارب كفار أو منحرفين متفسخين، فهذه آسية من سيدات النساء كانت تحت أكفر أهل الدنيا ولم يضرّها ذلك.

وأما مؤمن آل فرعون، فقد ذكر الله تعالى إيمانه وإرشاداته لقومه في سورة غافر، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ

ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ
ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ
مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ
فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا
لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ
كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ
فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ
ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ
ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى
لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ
ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ
مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ
وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا
مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾.

وكان هذا المؤمن قبطياً ابن عم فرعون يُخفي إيمانه، فلمّا سمع توعّد فرعون موسى بالقتل... قام ينصح فرعون وقومه بما قصّه الله عزّ وجلّ علينا في تلك الآيات.

أما ماشطة بنت فرعون، فقصتها كالآتي:

{٥٣٧} ـ فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لما أسري بي مَرَرْتُ بي رائحةٌ طيّبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ قالوا: ماشطة بنت فرعون وأولادها سقط مشطها من**

يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنة فرعون: أبي، قالت: ربي هو ربك ورب أبيك، قالت؛ أوَ لك رب غير أبي؟ قالت: نعم، فدعاها فقال: ألك رب غيري، قالت: نعم ربّي وربك الله فأمر ببقرة من نحاس فأُحميت ثم أمر بها لتلقى فيها وأولادها فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: قعي يا أمه ولا تَقَاعَسِي فإنك على الحق، قال: وتكلم أربعة وهم صغار، هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جُريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام».

رواه أحمد (٣٠٩/١، ٣١٠)، والبيهقي بسند صحيح، وعطاء بن السائب سمع منه حماد بن سلمة قبل الاختلاط.

ولا تقاعسي أي: لا تتأخري.

وفي قصة هذه السيدة نَمُوذَجٌ من الإيمان الصادق والثبات عليه مع التعذيب حتى الموت، وما فيها يدلّ على أن من طبع الله تعالى على قلبه وأهّلَه للكفر والعذاب لا تنجع فيه موعظة ولا تؤثر فيه آية، فها هم فرعون وملائه شاهدوا آية تكلّم الرضيع بحقّية أمه وصدقها وباطلهم وضلالهم، ورغم ذلك لم يتّعظوا ولم يرعووا.

ومنها: أن الله عزّ وجلّ جعل قصة فرعون مثلاً للطغاة والجبابرة والملوك الظلمة العتاة، وجعل هامان وزيره مثلاً لوزراء السوء وبطانات الظلم والاعتداء، كما جعل قارون مثلاً للأثرياء الفجرة والأغنياء المتكبّرين المعجبين بأموالهم المغرورين بمظاهر هذه الحياة الصاخبة الفانية.

وجعل ابن باعوراء مثلاً لعلماء السوء الفَجَرة الذين أخلدوا إلى الدنيا وخالطوا أهلها، وركنوا إلى الملوك والأُمراء الفاسقين، ونبذوا علمهم وراءهم ظهرياً... فليعتبر كل صنف بسلفه.

وقصة قارون ذكرها الله تعالى في سورة القصص، فقال تعالى عنه: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٧٦، ٨١].

فكان من جملة قوم موسى، ويقال: إنه كان من أقاربه فأطغاه ماله وثراه وبغى وتكبّر وأعجب بنفسه وماله فخسف الله به وبماله...

أما ابن باعوراء، فذكره الله عز وجلّ في سورة الأعراف، فقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [١٧٥ ـ ١٧٦].

ومنها: وهي خاتمة هذه الفوائد أن موسى عليه السلام توفي وهو لا يزال وقومه في التيه، وقد سأل الله عزّ وجلّ أن يُدْنِيه من بيت المقدس برمية حجر فقبره هنالك، كما أخبر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث المتقدم في صكّه وجه ملك الموت، غير أنه لا يُعرف قبره بالتعيين، وما يوجد من الضريح المنسوب إليه عند وادي الأردن لا يصح لأنه بعيد من بيت المقدس بأكثر من عشرين كيلو، وهو يخالف الحديث في قوله قريباً من بيت المقدس برمية حجر...

أما أخوه هارون عليه السلام: المشهور أنه توفي بالتيه قبله بزمان، وهنالك دُفن. وبهذا تمّت قصة الكليم سيدنا موسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، وتركنا كثيراً من أخباره وأخبار قومه التي قصّها القرآن الكريم علينا.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه.

* * *

يوشع بن نون عليه السلام

يوشع بن نون عليه السلام من سلالة يعقوب عليه السلام، وكان فتى لموسى كما صرح به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾،

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾، وجاء مصرّحاً باسمه في الصحيحين في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، فإن في الحديث: وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون، وكان نبيّاً رسولاً بعد موت موسى وهارون عليهم السلام، وهو الذي فتح بيت المقدس ووقفت له الشمس عند القتال بعد عصر يوم الجمعة، وفيما يلي من الأحاديث تفصيل ما وقع له مع بني إسرائيل في ذلك، وما أُوتي من آيات.

{٥٣٨} ـ فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«غزى نبيٌ من الأنبياء فقال لقومه؛ لا يَتْبَعْني رجلٌ قد ملك بُضعَ امرأةٍ وهو يريد أن يَبْنِيَ بها ولمّا يبن ولا أحد بنَى بُيُوتاً ولم يرفع سقوفها، ولا آخر اشترى غنماً أو خلِفَات وهو ينتظر ولادها، فغزى فدنا من القرية حين صلاة العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللّهمّ احبسها علينا فَحُبِسَتْ حتى فتح الله تعالى عليهم فجمع الغنائم فجاءت، يعني النار، لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولاً فليُبَايِعْني من كل قبيلة رجلٌ، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول فلتبايعني قبيلتك فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب فوضعوها فجاءت النار فأكلتها، ثم أحلّ الله تعالى لنا الغنائم، ثم رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا»**، وفي رواية: **«فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأنّ الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا»**.

رواه عبدالرزاق (٩٤٩٢)، وأحمد (٣٨٨/٢)، والبخاري في الخمس (٢٩/٧، ٣٠، ٣١)، ومسلم في الجهاد (٥١/١٢، ٥٢)، وابن حبان في صحيحه (١٣٧/١١، ١٣٥).

{٥٣٩} ـ وعنه أيضاً قال؛ قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس»**.

رواه أحمد (٣٢٥/٢) بسند صحيح على شرط البخاري.

قوله: غزى نبيّ الخ، هو يوشع كما في الحديث الثاني، وقوله: بضع - بضم الباء - وهو فرج المرأة، وقوله: خلفات - بفتح الخاء وكسر اللام - هي الحوامل.

لما توفّي موسى عليه السلام ومات عامة من كان معه في التيه ممن عُوقبوا لامتناعهم من دخول بيت المقدس وقتال الجبارين أمر الله تعالى يوشع عليه السلام أن يذهب بمن معه من شباب بني إسرائيل الذين ولدوا وتربّوا في التيه إلى قتال الجبارين وفتح بيت المقدس وأخذها من يد أعداء الدين، فتأهّب لذلك وقام في بني إسرائيل وحضّهم على الجهاد والثبات، وأن تكون قلوبهم فارغة من شؤون الحياة بحيث لا يكون أحد منهم يريد الدخول بزوجته، أو يكون قصده إكمال بيت قد شرع في بنائه، أو يكون منتظراً نتائج مواشي له.

فخرج بهم، فلما قربوا من القرية عند وقت العصر، وكان يوم جمعة، وقد حرّم الله تعالى عليهم العمل، ومنه الجهاد ليلة السبت ويومه، وكان يوشع عليه السلام خشي إن استمرّوا في القتال ربما غربت عليهم الشمس قبل الفتح، فيضطرون لوقف القتال فينتصر عليهم أعداؤهم الجبارون، فخاطب الشمس قائلاً: أنت مأمورة بالسير وأنا مأمور بقتال الجبارين قبل غروبك، فَقِفِي حتى أمضي إلى ما أمرت به، ثم سأل الله عزّ وجلّ أن يحبسها فوقفت حتى انتصروا وفتحوا المدينة وجمعوا الغنائم، وكانت سنّة الله تعالى فيها أن تنزل نارٌ من السماء فتأكلها، فلما جمعوها وانتظروا نزول النار لم تأتِ فعلم يوشع أن فيهم غلولاً وسرقة من الغنيمة، فجمع قبائل بني إسرائيل وأمرهم أن يبايعه من كل قبيلة رجل فبايعوه، فلزقت يده بيد رجل فقال: لتبايعني قبيلتك، فلزقت يده بيد رجلين أو ثلاثة فاعترفوا بأنهم أخذوا مثل رأس ثور ذهباً فأتوا به فجاءت نار فأكلت الغنيمة.

وكان في هذه القصة معجزاتٌ عِدَّةٌ، إحداهما: حبس الشمس ووقوفها ليوشع عليه السلام، وهي من أبهر المعجزات وفرائدها، والحديث الثاني صريح في أن ذلك من خصائص يوشع وأنها لم تقف لغيره، غير أنه جاء

من حديث جابر رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم **«أمر الشمس فتأخرت ساعة من نهار»**، رواه الطبراني في الأوسط وحسّنه الحافظ في الفتح. وعن أسماء بنت عميس رضي الله تعالى عنها أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم **«دعا لما نام على ركبة علي ففاتته صلاة العصر فردّت الشمس حتى صلّى عليّ ثم غربت»**، رواه الطحاوي والطبراني وصححه غير واحد. قال الحافظ: وهذا أبلغ في المعجزة، وقد أخطأ ابن الجوزي بإيراده له في الموضوعات، وكذا ابن تيمية في كتاب الردّ على الروافض في زعم وضعه هي من الفتح (٢٩/٧).

ثانيها: تأخر النار عن نزولها لأكل الغنيمة، لما وقع من الغلول ثم نزولها بَعْدَ رَدِّ ما غُلَّ.

ثالثها: لزوق يد يوشع بأيدي أولئك الرجال الذين كان الغلول عندهم، فهي آيات وخوارق لا تعطى إلا لمن اجتباه الله عزّ وجلّ لرسالته ولولايته.

{٥٤٠} - وعن أبي هريرة أيضاً عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم، فدخلوا يزحفون على أستاهِهِمْ وبدلوا قالوا: حنطة، حبة في شَعْرَةٍ»**.

رواه أحمد (٣١٨/٢)، والبخاري في التفسير (٢٣١/٩، ٣٧٣، ٣٧٤) وفي الأنبياء، ومسلم آخر الكتاب (١٥٢/١٨)، والترمذي في التفسير (٢٧٦٤) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٢٨٦/٦).

قوله: حطة أي: طلبنا حطة أي: تحطّ عنا خطايانا، وقوله: يزحفون أي: يمشون على أدبارهم، وقوله: حبة في شعرة، في رواية: حبة في شعيرة، يعنون: حنطة حمراء قويّة فيها شعيرة سوداء، وهي معنى لغتهم «هطى سمقا».

لما فتح يوشع عليه السلام بيت المقدس أُمِرَ من قبل الله عزّ وجلّ أن يأمر بني إسرائيل الذين كانوا معه أن يدخلوا حرم الله تعالى خاضعين

متواضعين منحنين شكراً لله عزّ وجلّ على ما أولاهم من الظفر والنصر على عدوّهم، وأن يسألوا الله عزّ وجلّ حطّ ذنوبهم فبدلوا ما أمروا به تمرّداً على الله واستهزاء بأمره على عادتهم التي ورثوها من آبائهم، فعاجلهم الله تعالى بعقاب وعذاب من عنده، وهو كما قال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الآتي.

{٥٤١} ـ فعن أُسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**إن هذا الطاعون رجزٌ وبقيةُ عذاب عُذِّبَ به قومٌ**»، وفي رواية: «**الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل**»...

رواه مسلم (١٤/٢٠٣، ٢٠٧) وغيره وتقدم في الطب مطولاً.

فالحديث مبيّن للرجز الذي ذكره الله تعالى في هذا المعنى حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٢].

فهذه الآيات الكريمات جاءت في قصتهم عند فتح بيت المقدس وتمرّدهم ونزول الطاعون بهم عقاباً لهم على ما بدّلوا من قول وعمل، فأمروا أن يدخلوا ساجدين متواضعين فدخلوا يزحفون على أدبارهم كالكلاب، وأمروا أن يقولوا اغفر لنا خطايانا فقالوا: حبّة في شعرة..

هذا ما عرفنا وبلغنا عن نبيّ الله يوشع بن نون عليه السلام من كتابنا، وحديث نبينا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، والكلام على بني إسرائيل

كثير وطويل وقد كتب عنهم بعض المعاصرين كتاباً خاصّاً بهم، وبما جاء في القرآن عنهم.

❊ ❊ ❊

قصة داود عليه السلام

لما فتح يوشع بن نون مع بني إسرائيل بيت المقدس وسكنوا الأرض المقدّسة وراح يوشع يسوسهم إلى أن توفي، فولي الأمر بعده قضاةٌ، حكموا فترةً من الزمن دون أن يكون لبني إسرائيل ملِكٌ ذو سَطْوَة وعِزَّة وكانوا عُرضةً لغزوات الأُمم المجاورة لهم وخاصة العمالقة، وكانت عادة بني إسرائيل إذا خاضوا حرباً مع أعدائهم قدموا تابوت العهد أمامهم يستنصرون به، فكان من قدر الله تعالى أن هزمتهم العمالقة في حرب لهم معهم، فقتلوا منهم بشراً كثيراً وسبوا نساءهم وذراريهم وأخذوا منهم التابوت، وذلك نتيجة جرائمهم وطغيانهم كما هي عادة الله تعالى.

فلما انهزموا وقهرهم الأعداء سألوا نبياً لهم وهو شمعون أو شمويل، وكان نبياً وقاضياً أن يختار لهم ملكاً يجتمعون تحت رايته ليقاتلوا أعداءهم، فأجابهم نبيهم: لعلكم إذا فرض عليكم القتال أن تجبُنوا ولا تقاتلوا، فأجابوه: كيف ذلك وأعداؤنا قد أخرجونا من ديارنا وأبنائنا... فاختار لهم نبيهم ملكاً يسمى طالوت وذلك طبعاً بأمر من الله تعالى، فأنكروا أن يكون طالوت ملكاً عليهم، وقالوا: إنهم أحق بالملك منه، لأنه ليس له سعة من المال فأجابهم نبيهم: هذا هو ملككم، فإن الله عزَّ وجلَّ اختاره عليكم بالعلم الغزير والقوة الجسمية، والله تعالى يعطي ملكه من يريد من عباده.

ثم طمأنهم نبيُّهم وأراد إقناعهم على استحقاق طالوت الملك، فأخبرهم بأن علامة صحة ملكه أن يأتيهم التابوت الذي كان قد أُخذ منهم، وفيه الطمأنينة والوقار، وفيه بقية من آثار موسى وهارون، وهي العصا وبعض ألواح التوراة، فجاءت الملائكة تحمله حتى وضع بين يدي طالوت والناس ينظرون، فكانت آية للمؤمنين.

وعندما خرج طالوت بالجنود وانفصل عن بيت المقدس وجاوزه، وقد مروا على أرض قفرة فأصابهم حرٌّ وعطش شديد، فقال لهم: إن الله عزّ وجلّ سيختبركم بنهر فمن شرب منه فلا يصحبني، وأراد بذلك أن يمتحن إرادتهم وطاعتهم قبل أن يخوضوا غمار الحرب، ومن لم يشرب منه ولم يذق من مائه إلا غرفة قليلة ليبلَّ عطشه فإنه من جندي، فشرب جميعهم إلا فئة قليلة - وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر كما يأتي في حديث للبخاري في السيرة النبوية - صبرت وأطاعت أمر قائدها، فلما اجتاز النهر مع الذين صبروا على العطش... ورأوا كثرة عدوّهم اعتراهم الخوف وقال فريق منهم: لا قدرة لنا على قتال هؤلاء مع قائدهم جالوت، فنحن قلّة وهم كثرة، فقال الذين يوقنون لقاء ربهم وهم الصفوة الأخيار والعلماء الأبرار من أتباع طالوت: كثيراً ما غلبت الجماعة القليلة الجماعة الكثيرة بإرادة الله تعالى ومشيئته، فليس النصر عن كثرة العدد وإنما النصر من عند الله، فالله مع الصابرين بحفظه ورعايته وتأييده، ومن كان الله معه فهو منصور بحول الله وقوّته، ولما ظهروا في الفضاء المتسع وجهاً لوجه أمام ذلك الجيش الجرار العرمرم جيش جالوت المدرب على الحروب دعوا الله عزَّ وجلَّ ضارعين إليه بثلاث دعوات، أولاً: ربنا أفض علينا صبراً يعمّنا في جمعنا لنقوى على قتال أعدائك، ثانياً: ثبّتنا في ميدان الحرب ولا تجعل للفرار سبيلاً إلى قلوبنا، ثالثاً: انصرنا على من كفر بك وكذّب رسلك وهم جالوت وجنوده، فاستجاب الله دعاءهم فانتصروا عليهم وهزم جيش جالوت وجنوده وانكسروا رغم كثرتهم، وكان الذي قتل الطاغية جالوت: نبيُّ الله داود عليه السلام، وكان في جيش طالوت. يقول المؤرخون: إنه لما تواجه الجيشان خرج جالوت يطلب المبارزة فهابه جيش طالوت فخرج إليه داود عليه السلام وَبِيَدِه مِقْلاَعٌ فيه حَجَرٌ وتقدم فاستصغره جالوت واحتقره، فأخذ داود مقلاعه وضربه ضربة كان فيها حتفه ووقع صريعاً عن فرسه في الأرض، فانهزم جيشه وولوا هاربين.

وهنا ظهر أمر داود فأعطاه الله الملك والنبوَّة وعلَّمه مما يشاء.

ويُقَالُ: إن طالوت زوَّجه ابنته وأعطاه نصف ملكه، والله أعلم بذلك، فإنها إسرائيليات.

وفي هذه القصة التمهيدية لقصة داود جاءت الآيات الآتية، وهي:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾.

الملأ: هم الجماعة الذين يملأون العيون.

في هذه القصة الوجيزة عبر وفوائد نجملها في الآتي:

فيها: أن بني إسرائيل رغم أنهم كان فيهم الأنبياء والربانيون والملوك الصالحون كانوا هدفاً لاعتداء الأعداء عليهم ومحاربتهم إياهم حتى أنهكوهم وسبوا نساءهم وأبناءهم وأخرجوهم من ديارهم نتيجة ذنوبهم، وكثرة عصيانهم وتوالي آثامهم.

وفيها: أن الله عزَّ وجلَّ رحيم بعباده لطيف بهم إذا رجعوا إليه وتابوا مما صدر منهم، فبنو إسرائيل طالما تمرَّدوا على أنبيائهم وصالحيهم وعتوا وطغوا لكنهم كانوا إذا تذكروا وندموا على ما قدمت أيديهم قابلهم الله بألطافه وإحسانه.

وفيها: مشاهدة تلك المعجزة العظيمة وهي قدوم الملائكة بالتابوت المبارك حتى شاهده الناس.

وفيها: أن الخليفة الذي يسوس الناس لا بدَّ وأن يكون ذا علم واسع وصاحب قوة في الجسم.

وفيها: أن النصر ليس بكثرة العدد والعتاد، وإنما هو من عند الله تعالى، فمن كان مع الله بنصر دينه والدفاع عنه واحترامه وتعظيمه كان الله ناصره ومؤيّده، وإن اجتمعت عليه جيوش الدنيا وكفارها.

وفيها: ينبغي للمجاهدين أن يقدموا أمام قتالهم دعاء الله تعالى والتضرّع إليه بمثل ما دعا به أصحاب طالوت: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

❋ ❋ ❋

تفصيل أخبار داود عليه السلام

{٥٤٢} ـ عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سُدُسَه**».

رواه البخاري في الصلاة (٢٥٨/٢) وفي الأنبياء (٢٦٦/٧) وفي مواضع، ومسلم في الصيام (٤٦/٨) وتقدم.

{٥٤٣} ـ وعنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال له:

«**فصم صوم داود نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فإنه كان أعبد الناس كان يصوم يوماً ويفطر يوماً**» الحديث، تقدم.

رواه مسلم (٤٢/٨) في الصيام.

{٥٤٤} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**خُفِّفَ على داود عليه السلام القرآنُ فكان يأمر بدوابه فتُسْرَجُ فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده**».

رواه البخاري في الأنبياء (٢٦٥/٧).

{٥٤٥} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سجد في صٓ، وقال: «**سجدها داود عليه السلام توبة ونسجدها شكراً**».

رواه النسائي في الكبرى (٤٤٢/٦)، والبيهقي (٣١٩/٢) ورجاله ثقات.

وانظر ما سبق في التفسير من سورة صٓ.

{٥٤٦} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**لما خلق الله آدم عليه السلام مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذرّيته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأُمم من ذريتك يقال له داود، قال: رب وكَم جعلتَ عُمَره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة، قال: أوَ لم تُعْطِها لابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحد ذريته ونسي آدم ونسي ذرّيته، وخَطِأ آدم فخطِئت ذريته، فيومئذ أمر بالكتاب والشهود**».

رواه الترمذي في سورة الأعراف (٢٨٧٨) وفي المعوذتين (٣١٤٨) بتهذيبي، وابن خزيمة في التوحيد (٦٧)، وابن حبان (٤٠/١٤، ٤١)،

والحاكم (٦٤/١) و(٣٢٥/٣، ٥٨٥، ٥٨٦) و(٢٦٣/٤) وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم في المواضع الثلاث وأقرّه الذهبي.

قوله: وبيصاً أي: بريقاً ولمعاناً، عرضهم أي: أظهرهُمْ لَهُ، فجحد أي: أنكر.

كان سيدنا داود عليه السلام من ذرية يهوذا بن يعقوب عليه السلام، وكان في بني إسرائيل سبطان من أسباطهم: في أحدهما النبوّة، وفي الآخر الملك، فجمع الله عزَّ وجلَّ النبوّة والملك في داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾، وجعله خليفة بِبَيْتِ المقدس وأمره أن يقضي بين الناس بالحق، وأن لا ينساق مع الهوى فيضلَّ عن سبيل الله، وقوى ملكه بالهيبة وكثرة الجنود وزاده مع الحكمة الفصل في الخصومات الواقعة بين المتخاصمين بتمييز الحق من الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾، وكان داود عليه السلام من الأنبياء الأربعة أصحاب الكتب الكبيرة العظيمة وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، فكان الزبور كتاباً لداود عليه السلام، وقد أشار القرآن إليه في موضعين: في سورة النساء (١٦٣)، وفي الإسراء (٥٥)، فقال تعالى؛ ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾، وجاء الحديث الشريف المتقدم يخبر بأنه عليه السلام كان يقرؤه كاملاً قبل أن تسرج له دوابه وتلك معجزة له في ذلك، وكان قد أعطي صوتاً جميلاً لا يسمعه حيّ إلا أنصت ووقف إليه حتى الطير في الهواء كان يقف يُرَجِّعُ بترجيعه ويُسَبِّحُ بتسبيحه، وكذا الجبال كانت تجيبه وتسبح معه كلما سبح بُكرةً وعشياً. صلوات الله وسلامه عليه.

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾، معناه: جعلنا الجبال والطير تسبح مع داود إذا سبح، قال ابن كثير: وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور، فكان إذا ترنم بها تقف الطير في الهواء فتجاوبه وتردّ عليه الجبال تأويباً.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾، قال المفسرون: الفضل الذي آتاه هو النبوّة والزبور وتسخير الجبال والطير وإلانة

الحديد وتعليمه صنع الدروع، وقوله: يا جبال أوبي الخ، أي: وقلنا يا جبال سبحي معه ورجعي التسبيح إذا سبح وكذلك أنت يا طيور، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: وكانوا إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾، معناه: سخرنا الجبال لداود تسبح معه في المساء والصباح وسخرنا له الطير مجموعة إليه تسبح معه وكل من الجبال والطير رجاع إلى طاعة الله تعالى بالتسبيح والتقديس، وفي صوت نبيّ الله داود عليه السلام وحسنه جاء الحديث النبوي الذي سمَّاه مزماراً، وهو:

{٥٤٧} ـ فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمع رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم صوت أبي موسى وهو يقرأ، فقال: «**لقد أُوتي أبو موسى من مزامير آل داود**».

رواه أحمد (٣٧/٦، ١٦٧)، وابن حبان (١١٤٩) موارد، وسنده صحيح على شرط الشيخين.

{٥٤٨} ـ وتقدم لنا في فضائل القرآن من حديثه بلفظ: «**لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود**»، وهو في الصحيحين، وانظر ما سبق في الجزء الثاني رقم حديث (١٥٦٥).

وقوله: مزماراً أي: صوتاً حسناً جميلاً لذيذاً كصوت الزمارة، فإن صوتها جميل لذيذ.

وكان من خصائص داود عليه السلام أنْ ألان الله عزَّ وجلَّ له الحديد، وكان يصنع به الدروع والآلات الحربية بدون نار، وكان طوع يده كالشمع يتصرف فيه كما يشاء، فيعمل منه دروعاً محكمة النسج بحلقات متصلة بعضها ببعض بمقادير متساوية.

يقول الله تعالى في ذلك: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾، معناه: جعلنا له الحديد ليناً بين يديه حتى كان كالعجين والشمع، فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً أو

يضربه بمطرقة، وقوله: أن اعمل سابغات أي: اعمل الدروع السابغات التي تحفظ الإنسان شر الحرب، وقوله: وقدر في السرد أي: قدر في نسج الدروع وقسه على مقداره بحيث تتناسب حلقاتها فتكون كل حلقة مساوية أختها ضيقة لا ينفذ منها السهم لغلظها ولا تثقل حاملها، واجعل الكل بنسبة واحدة.

وقال تعالى: ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾، أي: علمنا داود صنع الدروع وهي الملابس الحربية تقي وتحفظ في القتال شر المقاتلين. قال قتادة: أول من صنع الدروع داود وكانت صفائح، فهو أول من سردها وحلّقها، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ معناه: اشكروا الله تعالى على ما أنعم به عليكم، فهو استفهام بمعنى الأمر، وهو كثير في القرآن الكريم.

ووصف الله عزَّ وجلَّ داود عليه السلام بالعبودية والقوة في الطاعة والنسك والقيام بما كلفه الله عزَّ وجلَّ به ومجاهدة النفس في دوام الصيام والقيام، فلا يعرف لأحد من الأنبياء ما كان يقوم به من الصيام والقيام، ولذا وصفه النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأنه كان أعبد الناس وأرشد ابن عمر إلى الاقتداء به عليه السلام كما وصفه الله تعالى بأنه أوّاب وكثير الرجوع إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، قوله: ذا الأيد أي: صاحب القوة، وقوله: أوّاب أي: كثير الرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ.

* * *

فتنة داود عليه السلام

ذكر المحققون الربانيون من المفسرين وعلماء التاريخ عن سيدنا داود عليه السلام أنه كان خصَّص بعض وقته لتصريف شؤون الملك وللقضاء بين الناس والدعوة إلى الله، وخصَّص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل الزبور وتسبيح الله تعالى في محرابه، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل عليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس، وفي ذات يوم فوجيء بشخصين

يتسوران المحراب الذي يتعبد فيه ففزع منهما وخاف وارتعد وأضمر في نفسه أن يبطش بهما لأنهما دخلا عليه بغير إذن، ومن غير الباب وفي وقت خلوته، فبادرا يطمئنانه وقالا له: لا تخش منا فنحن رجلان تخاصمنا في شيء واعتدى بعضنا على بعض، فاقض بيننا بالعدل ولا تجر ولا تظلم وأرشدنا إلى الطريق الحق الواضح، فقال أحد الخصمين: إن صاحبي هذا يملك تسعاً وتسعين نعجة - وهي أنثى الضأن - وأملك أنا نعجة واحدة، فقال لي: ملكنها واجعلها تحت كفالتي وغلبني في الخصومة وشدّد عليّ وأغلظ في القول، فقال له داود عليه السلام قبل أن يسمع كلام خصمه: لقد اعتدى عليك بهذا الطلب حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى المائة، وزاده قائلاً: إن الكثيرين من الشركاء ليتعدَّى بعضهم على بعض إلا المؤمنين الصالحين فإنهم لا يبغون وهم قليل، فتفطن داود عليه السلام وأيقن أن الله عزَّ وجلَّ اختبره بهذه الحادثة وتلك الحكمة، فالتجأ إلى الله عزَّ وجلَّ وسأله المغفرة ووقع ساجداً لله تعالى ورجع إليه بالتوبة والندم على ما فرط وصدر منه، وفي هذه القصة جاءت الآيات الكريمات، وهي:

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢١ - ٢٥].

هذا ظاهر القرآن الكريم وليس فيه شيء صريح يدلّ على موجب الاستغفار والإنابة، ولم يأتِ عن الصادق المصدوق رسولنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم شيء في ذلك لا صحيح ولا ضعيف، وإنما الذي ذكره بعض المفسّرين والمؤرخين عن الإسرائيليات ما خلاصته: أن داود عليه السلام كان يمشي على سطح داره فنظر إلى امرأة تستحم فأعجبته وعشقها وكانت زوجة أحد قواده يسمى «أوريا» فأراد أن يتخلص منه ليتزوجها فأرسله

في إحدى المعارك وحمله الراية وأمره بالتقدم، فانتصر فأرسله مراراً حتى قتل فتزوجها، فبعث الله إليه ملكين في صفة رجلين متخاصمين فحكم بينهما بما جاء في القرآن. وما ذكروه عن زوجة أوريا وما فعله داود كل ذلك كذب وافتراء يجلّ عنه مطلق المؤمنين الصالحين، فكيف بالأنبياء؟! ولا ينقضي عجبي من مثل القرطبي والخازن وأبي السعود والبيضاوي وابن جزي وغيرهم حيث ذكروا هذه الخرافة والفرية منسوبة إلى نبيٍّ كريم عظيم، وغاية الأمر إذا تنازلنا أن نقول كما قال ابن عباس وابن مسعود: ما زاد داود على أن قال للرجل: انزل لي عن امرأتك واكفلنيها، وظاهر الآية يشير إلى ذلك، فعاتبه الله تعالى على ذلك ونبَّهه عليه وأنكر عليه شغله بالدنيا. قال القاضي عياض: وهذا الذي ينبغي أن يُعَوَّلَ عليه من أمره... وقيل: جاءت الفتنة والعتاب من كون داود ظنَّ السوء بالخصمين وأراد الفتك بهما، وقيل: من قضائه للمدعي من غير أن يسمع كلام الخصم الآخر، وقيل: عوتب لحجبه نفسه عن الناس. ويعجبني هنا ما قال أبو حيان في البحر: والذي يدلّ عليه ظاهر الآية من أن المتسوِّرين المحراب كانوا من الإنس دخلوا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم، وأنه فزع منهم ظنّاً منه أنهم يغتالونه إذ كان منفرداً في محرابه لعبادة ربه، فلما اتَّضح له أنهم جاءوا في حكومة وبرز منهم اثنان للتحاكم، كما قصَّ الله تعالى فاستغفر من ذلك الظن وخرَّ ساجداً لله تعالى، قال: ونحن نعلم قطعاً أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطايا؛ إذ لو جوَّزنا عليهم شيئاً من ذلك لبطلت الشرائع ولم نثق بشيء مما يذكرون، فما حكى الله تعالى في كتابه يمرّ على ما أراده الله تعالى، وما حكى القصاص مما فيه غضّ من منصب النبوة طرحناه. وهذا الكلام وجيه سديد.

❋ ❋ ❋

من عبر هذه القصة وفوائدها

من فوائد القصة أن الله عزَّ وجلَّ اختصَّ نبيَّه داود عليه السلام بخصائص كجمعه له بين النبوَّة والملك، كابْنِه سليمان، وإلانة الحديد له،

وصنعه الدروع، وانتصاره على جالوت، وإعزازه بني إسرائيل، واختصاصه بالنور بين عينيه كما رآه سيدنا آدم عليه السلام، وكونه كان أعبد البشر وأعطي الصوت الحسن الذي لم يسمع مثله، وأن الجبال والطير كانت تجيبه وتسبح معه، وذلك حقيقة لا مجازاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وأن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم اقتدى به في سجود التلاوة، وأن الله تعالى لعن بني إسرائيل المعتدين على لسانه ولسان عيسى عليهما السلام، وفي قصته مع سيدنا آدم عليهما السلام في عالم الأرواح تكريم له من سيدنا آدم حيث زاده من عمره أربعين عاماً، فتمَّت له مائة سنة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ دليل على أن الأكابر من الأنبياء والصالحين قد يستغفرون من المباحات، ومن خلاف الأولى ومن الخطرات وذلك لعلوّ مقاماتهم وعظيم منازلهم عند الله تعالى، ولذا قال في نبيِّه داود عليه السلام: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾، أي: إن له لقربة وكرامة بعد المغفرة وحسن مرجع في الآخرة، وهو الدرجات العالية في الجنة لنبوَّته وعدله التامّ في ملكه.

❋ ❋ ❋

موت داود عليه السلام

{٥٤٩} - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة، والله لنفتضحن بداود فجاء داود، فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمنع من الحجاب، قال داود: أنت والله إذاً ملك الموت، مرحباً بأمر الله تعالى، ثم مكث حتى قبضت روحه،**

فلما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس فقال سليمان للطير: أظلّي على داود فأظلّته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: اقبضي جناحاً»، قال أبو هريرة: فطفق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يرينا كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية.

رواه أحمد (٤١٩/٢)، وقال ابن كثير: وإسناده جيد قوي رجاله ثقات.

والمضرحية: واحدها مضرحي وهو الصقر الطويل الجناح، ومعنى قوله: وغلبت عليه الخ، يعني أن الصقور الطوال الأجنحة غلبت على داود بالتظليل دون سائر الطيور.

وفي هذا الحديث بيان أن داود عليه السلام جاءه ملك الموت لقبض روحه عياناً في صفة رجل حتى شاهدته زوجة داود، وفيه ما كان عليه داود من الغيرة، وهي شيمة أهل الإيمان، وقد قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أتعجبون من غيرة سعد؟! أنا أغير منه، والله أغير مني**»، تقدم في التفسير وغيره، ويأتي. والغيرة بفتح الغين وسكون الياء الأنفة والحمية وثوران النفس على المحارم إذا اطّلع على ما لا يجوز وينبغي من الأجانب أو فعل بهنّ ما ينافي الآداب الإسلامية، والله تعالى أعلم.

* * *

قصة سليمان بن داود عليهما السلام

سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام من أنبياء بني إسرائيل العظام المشاهير الذي تفضل الله عزَّ وجلَّ عليه كأبيه، فجمع له بين النبوَّة والملك، واختص عن سائر الأنبياء بتسخير الطير والوحوش والجنّ والإنس، وكان قد ورث والده في الحكمة والملك دون سائر أولاده، وقام في قومه وعرفهم نعمة الله تعالى عليه، وأنه علمه الله عزَّ وجلَّ لغة الحيوان والطير، بالإضافة

إلى ما أُوتي من كل ما يحتاجه وجمع يوماً سليمان جنوده من الإنس والجنّ أوّلهم وآخرهم ومضى بهم حتى وصل إلى وادٍ فيه نمل كثير، فسمع عليه السلام نملة تقول لأخواتها: يا أيها النمل هذا سليمان وجنوده مارُّون في اتجاهكم فاختبئوا في جحوركم حتى لا يبيدوكم بوطئهم من غير أن يشعروا بكم، فسمع سليمان ما قالته النملة فسرَّ بذلك واغتبط لإلهام النملة أن تذكر ما وهب الله تعالى له من النبوَّة والعدل والرحمة وابتهج بما خصَّه الله عزَّ وجلَّ من الملك ومن إدراك كلام النملة الذي يخفى على البشر، فتبسَّم ضاحكاً وقال مناجياً لربّه: ربِّ اجعلني مداوماً على شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وعلى والدي ووفقني أن أعمل عملاً صالحاً ترضاه وأدخلني بفضلك ورحمتك في عداد الصالحين الذين نالوا رحمتك ورضاك، وفيما ذكرناه يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٥ ـ ١٩].

قوله: منطق الطير أي: فهم لغته، وقوله: وحشر أي: جمع، وقوله: يوزعون أي: يحبس أولهم حتى يلحقهم آخرهم، فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد. لا يحطمنَّكم أي: لا يصيبونكم فيكسرونكم، لا يشعرون أي: لا يعلمون بكم، أوزعني أي: ألهمني ووفّقني.

وبمناسبة ذكر النمل في هذا المقطع نذكر بعض ما جاء من الأحاديث النبويَّة التي تتحدَّث عنهم.

{٥٥٠} ـ فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**نزل نبيٌّ من الأنبياء تحتَ شجرةٍ فلدغَتْهُ نملةٌ،**

فأمر بِجِهازِهِ فأُخرِجَ من تحتها ثم أمر بها فأُخرِقَت فأوحى الله تعالى إليه فهلاَّ نَمْلَةً واحدةً»؟ وفي رواية: **«فأوحى الله تعالى؛ أفي أن قَرَصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أُمةً من الأُمم تسبِّح»**.

رواه أحمد (٣١٣/٢)، والبخاري آخر بدء الخلق (١٦٨/٧) وفي الجهاد، ومسلم آخر الطب (٢٣٨/١٤)، وأبو داود آخر الأدب (٥٢٦٥، ٥٢٦٦)، والنسائي في الصيد من الكبرى (٤٦٠٥).

قوله: نبيٌّ قيل: هو عزير وجزم القرطبي وغيره بأنه موسى، وقيل: سليمان ذكر ذلك الحافظ، فلدغته أي: قرصته وعضَّته، نملة أي: واحدة من النمل، والمراد به إذا أطلق، السليماني الكبير لا الذَّرُّ الصغير، قوله: بجهازه أي: متاعه، قوله: فهلاَّ نملة أي: فهلا أحرقت نملة واحدة نظراً للقصاص.

{٥٥١} - وعن أبي هريرة أيضاً أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«خرج سليمان عليه السلام يستسقي فرأى نملةً مستلقيةً على ظهرها رافعةً قوائمَها إلى السماء تقول: إنَّا خلقٌ من خلقك ليس بنا غِنًى عن سُقياك فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم»**.

رواه الحاكم (٣٢٥/١)، وصححه ووافقه الذهبي، ورواه عبدالرزاق (ج ٩٥/٣، ٩٦) موقوفاً على الزهري بسند صحيح.

{٥٥٢} - وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نَهَى عن قَتْلِ أربعٍ من الدواب: **«النملةِ، والنحلةِ، والهُدْهُدِ، والصُّرَدِ»**.

رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند صحيح، وتقدم في الأطعمة.

* * *

تسخير الريح والشياطين لنبيّ الله سليمان عليه السلام

كان نبيّ الله سيدنا سليمان عليه السلام قد دعا ربَّه أن يغفر له ويهب له ملكاً لا ينبغي أن يكون لأَحدٍ بعده، فأجاب دعاءه وأعطاه سلطاناً على الريح وقدرة عليها، فجعلها تجري بأمر الله عزَّ وجلَّ إلى المكان الذي

يريده، فكان له بساط مركب من أخشاب يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأَمتعة والخيول والجمال والأَثقال والرجال من الإنس والجنّ وغير ذلك من الحيوانات والطيور، فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أيِّ بلاد الله شاء، فإذا حمل هذه الأُمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت فرفعته فإذا استقلَّ بين السماء والأرض أمر الرخاء وهي الريح اللَّيِّنة، فسارت به فإن أراد أسرعَ من ذلك أمر الريح العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته في أيِّ مكانٍ شاء، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار ثم يروح في المساء فتردّه إلى بيت المقدس، وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾، أي: تجري بأمره لينة طيبة حيث قصد وأراد. وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾، أي: سخرنا له الريح العاصفة الشديدة الهبوب تسير بمشيئته إلى أرض الشام المباركة بكثرة الأشجار والثمار، وكانت مسكنه ومقرَّ ملكه.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، أي: وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره مسافة شهر في غدوة ومثلها في روحة، فتقطع به مسافة شهرين في أقل من يوم، وهو تسخير من الله عزَّ وجلَّ وآية له تعالى أجراها على يد نبيِّه سليمان عليه السلام، وكم لله من آيات في هذا الكون عبر العصور، وكما سخَّر له الريح تحمله إلى حيث شاء كذلك سخر له الجنَّ والشياطين عُمَّالاً بين يديه يعملون له بإذن ربِّه ما شاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته، ومن خرج منهم وعصى أمره عذَّبه ونكَّل به، وكان فيهم الغوَّاصون في الماء لاستخراج الجواهر واللآلىء وغير ذلك مما لا يوجد إلاَّ هناك، وفيهم من كان مُسَخَّراً في بناء الأبنية الهائلة العجيبة والقصور الشامخة، وصنع الصور والتماثيل العجيبة من النحاس والزجاج ولم تكن محرَّمة في شريعته، كما كانوا يصنعون له القصاع الضخمة تشبه

الحياض، ويعملون له القدور الكبيرة الثابتة في الأرض لا تتحرك لكبرها وفخامتها، ولا تتحوَّل عن أماكنها، إلى غير ذلك من الأشياء التي لا يستطيع الإنسان صنعها.

وكان الله عزَّ وجلَّ قد أمدَّه بعين من النحاس أنبعها له ليستعين بها على ما يريد... وكان إلى جانب هؤلاء الجنّ والشياطين الطائعين له شياطينُ أُخَرُ مَرَدَةٌ مَقَرَّنون مُوثَّقون في الأغلال مربوطون بالقيود والسلاسل لكفرهم وتمردهم على سليمان عليه السلام، وفي هؤلاء وأولئك يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٢ ـ ١٣].

ويقول جل ثناؤه: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٧ ـ ٣٩].

امتنَّ الله عزَّ وجلَّ عليه بذكر ما أنعم عليه وخيَّره فيما أعطاه بأن يعطي من يشاء ويمنع من يشاء لا حساب عليه؛ لأنه مطلق اليد فيما وهب له من سلطة ونعمة، وبما أن هذه نعم جلائل تستحق عظيم الشكر قال الله تعالى له ولأبيه: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.

وفي سؤال سليمان ربَّه ملكاً لا ينبغي لأحدٍ بعده جاء الحديثان التاليان:

{٥٥٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«إنَّ عِفريتاً من الجنّ تفلَّت عليَّ البارحة ليقطع عليَّ صلاتي فأمكنَني الله منه فأخذتُه فأردتُ أن أربطه على ساريةٍ من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلُّكم فذكرتُ دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فَرَدَدْتُهُ خَاسِئاً»**.

رواه البخاري في الصلاة وفي الأنبياء (٢٦٩/٧) وفي مواضع، ومسلم في الصلاة (٢٨/٥، ٢٩)، وتقدم في الصلاة (ج٣٨٨/١) وفي التفسير.

قوله: تفلت أي: تعرض لي فلتة وفجأة، وفيه تأدب النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع سليمان.

{٥٥٤} ـ وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«إن سليمان عليه السلام لمَّا بنى بيتَ المقدس سأل الله عزَّ وجلَّ خِلالاً: سأل الله حكماً يصادف حكمَه فأُوتيه، وسأل الله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأُوتيه، وسأل الله حينَ فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهَزُه إلا الصلاة فيه أن يُخرِجَه من خطيئته كيوم ولدته أمُّه، أما اثنتان فقد أُعطِيَهُما وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة»**.

رواه أحمد (١٧٦/٢)، والنسائي في المساجد (٢٨/٢) وفي الكبرى (٢٥٦/١)، وابن ماجه (١٤٠٨)، والحاكم (٣٠/١، ٣١) و(٤٢٤/٢) وغيرهم وسنده صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو عند ابن خزيمة (١٣٣٤)، وابن حبان (ج٥١١/٤، ٥١٢) أيضاً.

وقوله: حكماً يصادف أي: يوافق ويواطىء، وقوله: لا ينهزه أي: لا ينهضه ويدفعه إلى زيارته إلا الصلاة فيه.

وفي الحديثين فضل واضح ومزايا لنبيّ الله سليمان عليه السلام وخصائص خصَّه الله تعالى بها، والله يختصّ برحمته من يشاء وتأتي بقية في الفوائد.

❊ ❊ ❊

سليمان عليه السلام والخيل الجياد

كان الله عزَّ وجلَّ قد أنعم على عبده سليمان بخيل كثير، فعُرضت عليه عشية يوم من الأيام بعد العصر، وكانت خيلاً صافنات تقف على أطراف حوافرها سَاكِنةً مطمئنة، وجياداً بحيث إذا جرت كانت سراعاً في جريها، قال المفسِّرون: عرضت عليه آلاف من الخيل فأجريت بين يديه عشية فتشاغل بحُسْنِها وجَرْيِها ومَحَبَّتِها عن ذكر له خاص حتى غابت الشمس، واختفت عن الأنظار، فتنبَّه وقال: آثرت حب الخيل حتى شغلتني

عن ذكر الله عزَّ وجلَّ ثم أمر بردِّها عليه، فشرع يذبحها ويقطع أرجلها تقرُّباً إلى الله تعالى لتكون طعاماً للفقراء لأنها شغلته عن ذكر الله تعالى.

قال الحسن البصري: لما ردَّت عليه قال: لا والله لا تشغليني عن طاعة ربِّي ثم أمر بها فعقرت، وكذلك قال السدي، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبّاً لله وتكرمة، واختار هذا القول ابن جرير واستظهر آخرون القول الأول، ولذلك عوَّضه الله عزَّ وجلَّ ما هو خير منها، وهي الريح التي كانت له أسرع من الخيل، ويشهد لهذا القول حديث أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ قال: «**قطع سوقها وأعناقها**» رواه الطبراني في الأوسط (٦٩٩٣) بسند حسن فهو موافق لقول جمهور المفسِّرين، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

سليمان وداود يحكمان

تخاصم رجلان إلى داود عليه السلام؛ دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته، فلم تبقِ منه شيئاً، فقضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم، فخرج الرجلان على سليمان عليه السلام وهو بالباب فأخبراه بما حكم به أبوه، فدخل عليه فقال: يا نبيّ الله لو حكمت بغير هذا كان أرفق للجميع، قال: وما هو؟ قال: يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرها حتى يعود زرعها كما كان ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بألبانها فقال له داود: وفقت يا بنيَّ وقضى بينهما بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾، أي: اذكر قصة داود وسليمان حينما حكما في شأن الزرع وقت إذ نفشت، أي: رعت فيه غنم القوم ليلاً، وكنّا لحكمهم شاهدين، أي: كنا مطَّلعين على حكم كل منهما عالمين به، ففهمناها سليمان أي: علَّمنا وألهمنا سليمان الحكم في القضية، وكلاّ آتينا حكماً

وعلماً، أي: وكلاّ من داود وسليمان أعطيناه الحكمة والعلم الواسع مع النبوَّة.

وهذا الحكم الذي حكم به كل من النبيِّين الكريمين عليهما السلام يخالف قواعد شريعتنا؛ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، وانظر ما سلف في الجنايات رقم حديث (١٤٧) فهُنالِك بَيانُ حُكْمِ شَرِيعَتِنا فِيهِ.

{٥٥٥} - وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأُخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه فقال: إيتوني بالسكين أشقُّه بينكما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله تعالى هو ابنها، فقضى به للصغرى**».

رواه أحمد (٢/٣٤٠)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٧٥) وغيره، ومسلم في الأقضية (١٢/١٨) وغيرهما، وتقدم في التفسير وفي القضاء، وما جاء في هذا الحديث الشريف هو داخل في الآية الكريمة؛ لأن الله تعالى فهَّم الحكم والقضاء سليمان في هذه الحادثة. وسيأتي ما يؤخذ من هذا الحديث من فوائد.

❋ ❋ ❋

فتنة سليمان عليه السلام

{٥٥٦} - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين امرأة كلهنَّ تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله تعالى، فلم يقل إن شاء الله فلم تحمل منهنَّ إلا امرأة واحدة جاءت بشقّ رجل، والذي نفسُ محمد بيده لو**

قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».

رواه أحمد (٢/٢٢٩، ٢٧٥)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٧٠) وفي مواضع، ومسلم في الأيمان والنذور (١١/١١٩) وغيرهم.

قوله: لأطوفنّ أي: عليهن بالجماع في ليلة واحدة، وقوله: على مائة امرأة جاء في رواياتٍ تسعين وسبعين وستّين، وانظر الجمع بينهما عند الحافظ في «الفتح» (٧/٢٧١).

وقوله: بفارس أي: رجل مقاتل، وقوله: قال له صاحبه أي: الملك، وقوله: بشقّ أي: بنصف رجل، واستدلّ المحقّقون بهذا الحديث على أنه المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: امتحناه وابتليناه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، قال القاضي عياض: قال أصحاب المعاني: والشقّ هو الجسد الذي ألقي على كرسيه حين عرض عليه وهي عقوبته ومحنته، وقيل: مات فأُلقي على كرسيه ميتاً، وقيل: ذنبه: حرصه على ذلك وتمنيه، وقيل: لأنه لم يستثن لما استغرقه من الحرص وغلب عليه من التمني، وقيل غير ذلك. قال: ولا يصح ما نقله الإخباريون من تشبّه الشيطان به وتسلّطه على ملكه وتصرفه في أُمّته بالجور في حكمه لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا وقد عصم الأنبياء من مثله الخ، وكل ما ذكره المفسّرون والمؤرخون في ذلك خرافات وافتراءات تنافي مقام النبوة لا يجوز الالتفات إليها ولا اعتقادها ولا ذكرها إلاّ على سبيل الردّ عليها وإبطالها... والحديث تأتي فوائده.

❋ ❋ ❋

سليمان عليه السلام والهدهد وملكة سبأ

قدّمنا أن الله عزّ وجلّ سخّر لنبيّه سليمن كلّ شيء ومنها الطير ومن جملته الهدهد، وهو طير معروف له أجنحة وريش ملوّنة جميلة.

وأن سليمان عليه السلام تفقد الطيور فلم ير الهدهد مع الطيور فسأل عنه، وقال: إن كان غاب عني بلا استئذان سأعذّبه عذاباً شديداً أو سأذبحه

أو يأتيني بحجّة بيّنة، فلما جاء بعد برهة وجيزة وسأله عن غيابه قال له: إنني قد اطّلعت على ما لم تطلع عليه وعدت إليك من مملكة سبأ بخبرٍ صادق محقّق؛ لقد وجدت بها امرأة تحكم هذه المملكة وقد أعطيت كل ما تريد من أسباب القوة وألوان النعم، ولها عرش وكرسي عظيم محلّى بالجوهر واللآلىء، غير أنها رغم ما أفاض الله تعالى عليها من نعم وما أعطاها من ملك، فهي مشركة كقومها يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله عزّ وجلّ، فقد أغواهم الشيطان ومنعهم عن طريق الله فهم لا يهتدون إلى عبادة الله تعالى، ثم تابع الهدهد كلامه مع سليمان في شأن كفر القوم وعدم سجودهم لله الواحد الذي يخرج ويظهر ما تخبئه الأرض من النبات والسماء من المطر، وأنه يعلم السر والعلن من النوايا والظواهر، وأنه الله الذي لا إله إلا الله هو رب العرش العظيم، وهنا انتهى الهدهد من كلامه عن خبر سبإ، فأجابه سليمان عليه السلام: سوف نبحث فيما قلت لنتبين أأنت صادق في قولك أم كاذب، وعندئذ يكون الحكم بما يظهر لنا من الحقائق وفيما دار بين الهدهد وسليمان من كلام يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

❋ ❋ ❋

رسالة من سليمان إلى بلقيس

أراد سليمان عليه السلام كشف حقيقة ما حدّثه بِهِ الهدهد، فكتب رسالة

ودفعها إليه وأمره أن يلقيها بين يدي بلقيس وأوصاه أن يراقبها وقومها ويستمع إلى ما يجيبون ويردُّون به على الرسالة، طار الهدهد من بيت المقدس بالرسالة إلى اليمن وألقاها بين يدي بلقيس ملكة سبإ فأخذتها وفتحتها وقرأت ما فيها، ثم جمعت أشراف قومها وقادتهم وقالت لهم: يا قوم إنه قد أتاني وألقي إليّ كتاب كريم من الملك سليمان، جاء فيه بسم الله الرحمٰن الرحيم لا تتكبروا عليّ وائتوني منقادين خاضعين لله تعالى وحده، ولما قرأت الرسالة وجهت كلامها لمن حولها من رعيتها تستشيرهم في موضوع هذه الرسالة وقالت لهم: يا جماعة أشيروا عليَّ في هذا الأمر العظيم، فإني لا أنفِّذ أمراً ولا أبرم شيئاً إلا بمشورتكم وحضوركم، فأجابها القوَّاد والضباط وذوو سلطتها نحن أصحاب قوة وشجاعة شديدة، فالأمر أمرك فانظري ما تأمرين به فنحن تحت طاعتك، لمست بلقيس من قومها إرادة الحرب ومواجهة سليمان بالقوة لكنها كانت عاقلة مفكّرة تنظر إلى العواقب، فبيَّنت لهم أضرار الحرب وعاقبة المهزومين، وأن عادة الملوك إذا احتلوا قرية محاربين أفسدوا عمارتها وخرَّبوها وأتلفوا ما فيها وأهانوا أعزَّاءها، وهكذا سيفعلون بنا إن هم انتصروا علينا، ثم رأت بلقيس أن تبعث إلى سليمان بهدية عظيمة وستنظر بماذا يرجع المبعوثون، فلما جاء وفد بلقيس إلى بيت المقدس يحمل الهدايا وقد شاهدوا ملكاً عظيماً وجنوداً ليست مملكة سبإ إلى جانبه بشيء يذكر، وقدَّموا هداياهم أنكر ذلك سليمان عليهم لأنه لم يكتب إليها طمعاً في مال أو هدية، ولكنه طلب منها أن تأتي إليه لتؤمن بالله تعالى وحده وتتبع شريعته وتترك عبادة الشمس، فخاطب القوم منكراً عليهم: أتهدونني مالاً وقد أتاني الله خيراً مما آتاكم من النبوة والملك ولست مثلكم تفرحون بالهدايا لتعلقكم بالدنيا وحبّها والتمتع بها، ثم خاطب رئيس الوفد مهدداً له ولقومه: ارجع إلى قومك واردد عليهم هديتهم وأخبرهم بما شاهدت من ملكنا وقوَّتنا وعبادتنا لله تعالى، فإن آمنوا وأطاعوا نجوا، وإن أصرُّوا على شركهم وتمرُّدهم على الله، فوالله لنأتينهم بجنود من الجنّ والإنس لا طاقة لهم بمقاومتها، ولنخرجنهم من مدينة سبإ أسارى ذليلين.

وفي إرسال سليمان رسالته مع الهدهد إلى بلقيس وما أجابت به

وبعثت من الهدية وما أجابهم به سليمان عليه السلام من التهديد والغزو جاءت الآيات الكريمات، وهي قوله تعالى: ﴿اذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۖ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٢٨ ـ ٣٧].

❋ ❋ ❋

عرش بلقيس يُؤتى به من اليمن إلى فلسطين في طرفة عين

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لمَّا رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر، قالت: قد عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة، وبعثت إلى سليمان: إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك، ثم ارتحلت إلى سليمان في اثني عشر ألف قائد، فلما علم سليمان بقدومها أراد أن يريها بعض ما خصَّه الله تعالى به من العجائب والآيات الدالَّة على عظيم قدرة الله تعالى وصدقه في دعوة النبوّة.

فقال عليه السلام لأشراف من حضره من جنده من الجنّ والإنس: أيكم يأتيني بسريرها المرصع بالجواهر قبل أن تصل إليّ مع قومها مسلمين، قال مارد عظيم من مردة الجن: أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس حكمك، وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم، وغرضه أنه يأتي به في أقل من نصف نهار، وقال له: إني على حمله لقادر وأمين على ما فيه من الجواهر والدرر وغير ذلك، فقال الرجل الصالح الربّاني آصف بن برخيا في قول جمهور المفسّرين:

وكان من الصديقين يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب: أنا آتيك به بلمح البصر وقبل أن يرجع إليك طرفك، فأتى به كما قال، فلما نظر سليمان ورأى العرش حاضراً لديه قال: هذا من فضل الله وإحسانه إليّ ليختبرني أأشكر إنعامه أم أجحد إحسانه، فمن شكر فمنفعة ذلك لنفسه ومن جحد ولم يشكر فالله تعالى مستغنٍ عنه وعن شكره، كريم بالإنعام على من كفر نعمته.

وفي هذه الآية والكرامة يقول الله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠].

❋ ❋ ❋

بلقيس حاضرة عند سليمان مسلمة تشاهد آيات الله وعظيم قدرته

لما دنا وصول ملكة سبأ إلى فلسطين أمر سليمان عليه السلام أن يغير بعض معالم عرشها امتحاناً لها فقال: غيّروا بعض أوصاف عرشها وهيئتها لننظر إذا رأته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه أم لا، فلما أتت ورأت العرش قيل لها: أمِثْلُ هذا عرشُك؟ قالت: يشبهه ويقاربه، قال سليمان عليه السلام ـ تحدثاً بنعم الله تعالى ـ لقد أُوتينا العلم من قبل هذه المرأة؛ بالله وقدرته وكنا مسلمين لله من قبلها فنحن أسبق منها علماً وإسلاماً، ومنعها عن الإيمان بالله تعالى عبادتها القديمة للشمس بسبب كفرها ونشوئها بين قوم مشركين.

وكان لسليمان عليه السلام قصر فخم صُنِعَتْ أرضُه من زجاج شفَّاف مستوٍ أملس وأرسل الماء تحت الزجاج، فبَدَا البَهْوُ كأنه بركة ماء، ثم جلس سليمان في صدر البَهْو على سريره، وبعث إلى بلقيس لمقابلته في القصر، فقيل لها: ادخلي القصر العظيم الفخم، فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ظنَّت أرضه لجّة ماء وكشفت عن ساقيها لتخوض فيه، قال لها سليمان: إنه قصر

مملس من الزجاج الصافي وليس ماء كما ظننْتِ، ولما رأت بلقيس من إكرام سليمان الشديد لها ورأت الحقيقة الساطعة وشاهدت الآيات الباهرات أيقنت بأن سليمان نبيّ الله تعالى مؤيّد من عنده، فأشهرت إسلامها وقالت: ربي إني ظلمت نفسي بالشرك وعبادة الشمس وتابعت سليمان على دينه، فدخلت في الإسلام مؤمنة بربِّ العالمن.

وفي هذا المشهد العظيم الغريب يقول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤١ ـ ٤٤].

❋ ❋ ❋

وفاة سليمان عليه السلام

قال المفسّرون: كانت الإنس تقول: إن الجنّ يعلمون الغيب الآتي في المستقبل، فوقف سليمان عليه السلام في محرابه يصلّي متوكئاً على عصاه فمات ومكث على ذلك سنة، والجنّ تعمل تلك الأعمال الشاقّة ولا تعلم بموته حتى أكلت الأَرَضة عصا سليمان فتكسّرت وسقط على الأرض، فعلموا موته وعلم الإنس أن الجنّ لا تعلم الغيب لأنهم لو علموه لما أقاموا هذه المدة الطويلة في الأعمال الشاقة وهم يظنّون أنه حيّ وهو عليه السلام ميّت. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

دابّة الأرض: هي سوسة الخشب، منسأته أي: عصاه، واختلفوا في سنّه يوم توفي ولا نصّ في ذلك يعتمد عليه، غير أن ابن جرير جزم بأن عمره كان نيفاً وخمسين سنة، وأُقبِرَ ببيت المقدس وهو غير معروف على التحقيق كأبيه داود عليهما السلام، بل وكثير من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

من فوائد قصة سليمان عليه السلام

في هذه القصة عبر وفوائد غزيرة عظيمة:

فمنها: وهي من خصائص سيدنا سليمان عليه السلام، تسخير الإنس والجنّ والطير والوحوش له، وأن الجميع كان تحت أمره يحكم فيهم ويسخّرهم ويستخدمهم بإذن الله تعالى، وهذا لم يكن لأحد قبله، ولا يكون لأحد بعده، ولذلك لما خنق نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذلك العفريت وأراد وَثاقه أطلقه تأدّباً مع سليمان حيث دعا الله تعالى بقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾، فكان الحكم في الجن... خاصاً به عليه السلام.

ومنها: وهي من المعجزات وآيات الله الكونية معرفته بلغات الحيوان، فهذه النملة تتكلم مع زميلاتها بإفراغ الطريق لجيش سليمان وجنوده، ففهم كلامها وخطابها وأمرها وتحذيرها وما دار بينها وبين أخواتها، وهذا الهدهد يحاوره ويتكلم معه ويخاطبه ويفهم ما يقول كأنه بشر.

ومنها: أن الحيوانات لها لغاتها تتفاهم بها مع بعضها بعضاً، وأن لها مجتمعات تعيش فيها كمجتمع الإنس والجنّ، وقد ألف العلماء في الحيوان وحياته وذكروا له عجائب الغرائب وأنه كالإنسان في حياته إلا فيما خصّ به الإنسان.

ومنها: منع تحريق الحيوان بالنار ومنه النمل، بل لا يجوز قتله مطلقاً لنهي النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن قتله، وفي حديث لدغ النملة سليمان أو غيره وتحريقه جميع قرية النمل وعتب الله عليه في ذلك دليل على وجوب العدالة، وأنه كان ينبغي له أن يقتل نملة واحدة لقوله في الحديث: «أهلكت أمة من الأمم تسبّح».

وقد ذكر العلماء أنه يمنع قتل أيّ حيوان أو هوام... إلا المؤذيات، بل قالوا: لا يجوز قطع الأشجار والنبات بلا سبب، لأن الجميع يسبح الله ويذكره ويعبده ويسجد له.

ومنها: أن الحيوان يسأل الله ويدعوه مثلنا، فهذه النملة تطلب السقي من الله تعالى عندما تأخر المطر وتخضع لله وتخاطبه بأننا خلق من جملة خلقك، مفتقرون إلى سقيك ورزقك وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾، ويقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، ويقول جلّ علاه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

ومنها: تلك المعجزة الباهرة التي خصّ الله بها سليمان عليه السلام وهي تسخير الريح له تطير به وتسافر به وبجيوشه العرمرة إلى حيث يريد، وهذه الآيات ما سمع بها لأحد من الأنبياء. نعم كان لهم البراق يركبونه ويطير بهم وهو أمر غريب أيضاً ينكره الماديُّون والملحدون منذ القدم، لكن الله عزّ وجلّ أجرى على أَيْدِي إخوانهم في الكفر والجحود، هذه المخترعات الحديثة من طائرات وغيرها ليقيم عليهم الحجة بأن الذي أظهر هذه الآيات الحديثة، وكانت من قِبَلِ المستحيل عادةً، هو الذي سخّر الريح لسليمان، والبراق للأنبياء يسيران بهم في الجوّ بلا أجهزة ولا أسباب، إلا قدرة الله العظيم الحكيم العليم.

ومنها: وهو من فضائل سليمان عليه السلام أنه لما بنى بيت المقدس، والمراد به تجديده دعا الله بثلاث دعوات: إحداها: أن يعطى ملكاً لا يكون لأحد بعده فأُعطيه، ثانيها: أن يُمْنَح حكماً يكون موافقاً لحكم الله تعالى فأُعطيه، ثالثها: أن كل من خرج قاصداً ذلك البيت ليصلّي فيه غفرت ذنوبه، وكان كأنما ولدته أمّه، ويأمل النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أن يكون أُعطيها وهو المرجوّ من الله الكريم، وفي ذلك فضل وأيُّ فضل لزيارة بيت المقدس لا حرمنا الله تعالى من زيارته مرة ثالثة...

ومنها: ما فعله من قتل الخيل على قول الجمهور دليل على أن من شغله شيء من متاع الدنيا عن الله عزّ وجلّ ينبغي أن يتصدّق ويتقرّب به إلى الله، لأن كل من شغل المؤمن عن الله فهو مشؤوم عليه، ولا يقال كيف يتصدّق بلحوم الخيل على الفقراء... والجواب أن لحوم الخيل مباحة

حتى في شرعنا، كما جاء في حديثي جابر وأسماء كما قدمنا في الأطعمة، كما هو مذهب الجمهور.

ومنها: ما جاء في حديث طوافه على نسائه وتمنّيه أن يلدن جميعهن ذكوراً لِيُجَاهِدَ بهم في سبيل الله، وفي ذلك استحباب تمنّي الأولاد للتعاون بهم على طاعة الله تعالى من الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله تعالى... وأن المباح من المشتهيات قد ينقلب مستحبّاً بالنيّة، وفيه بركة ذكر الله وتعليق اليمين والأعمال بمشيئة الله وأن الغفلة عن الله مشؤومة قد يحرم المَرْءُ بسببها خيراً كبيراً، كما فيه جواز السهو على الأنبياء، وأن ذلك لا يقدح في مقامهم وعصمتهم، لأن ذلك من جملة الأعراض البشرية الجائزة عليهم.

ومنها: ما تفضّل الله عزّ وجلّ به على سليمان من الحكم والقضاء وتفوّقه على والده رغم أن كليهما كانا من أهل العلم والحكمة وفصل الخطاب، وفي حكمهما على الماشية والزرع وأكل الذئب الطفل إشارة إلى أنه يجب على القاضي أن يكون ذكياً فطناً يستخرج الحق بالقرائن والعلامات، وقد قدمنا شروط القاضي في الإمارة...

ومنها: ما جاء من الآيات والعِبَر والأحكام... في قصة مَلِكَةِ سبإ وهي كالآتي:

أولاً: درس في تواضع العلماء وأنه يجب على أهل العلم أن لا يحتقروا غيرهم ممن هم دونهم ولو كانوا أُمّيين أو حيوانات، وأن يأخذوا العلم والحكمة من أيّ كان، فهذا سليمان عليه السلام وهو نبي يُوحَى إليه خفيت عليه ملكة في الأرض تحكم أُمّةً من الناس يعبدون الشمس حتى عرَّفَهُ بها طيرٌ من الحيوان، فيقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾...

ثانياً: آيات ومعجزات جمّة فيما حصل بين نبيّ الله سليمان عليه السلام والهدهد: مُحاوَرَاتٌ، إرسال الطير بريداً، استماعه لما صدر من ملكة سبإ وملإها، توصله بالجواب،...

ثالثاً: مشروعية نظام الشورى وذمّ الاستبداد بالرأي، فهذه ملكة سبإ لما جاءتها رسالة سليمان يدعوها فيها إلى الإيمان وينهاها عن العلوّ والاستكبار لم تستبدّ برأيها، بل جمعت أهل الحلّ والعقد من وزرائها وقاداتها واستشارتهم في أمر سليمان عليه السلام، وعندما فوَّضُوا أمرَهم إليها وعرَّفوها بأنهم رَهْنُ إشارتها وأنهم أهلُ قوّة وشجاعة فَلْتَأْمُرْهم بما شاءت اختارت ما رأته خيراً لها ولأمتها.

رابعاً: رأت أن تستميل سليمان إليها بهدية، فبعثت إليه بهدية مع وفدٍ لها وبما أن مهاداة الملوك مشروعة من قديم الزمان للتقارب والتحابب أو للصلح والمهادنة، حتى أن ذلك صدر من نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مع كفار وقته كما يأتي في السيرة، فإن سليمان عليه السلام لم يعبأ بهدية الملكة ولا ألقى لها بالاً لأمرين: أولاً: رآها أمراً تافهاً بالنسبة لما أعطاه الله عزّ وجلّ من الملك والنبوّة وما سخّر له من كل شيء. ثانياً: عرف أن ما بعثت به ما هو إلا رشوة تُرْشِيهِ بها ليتركها وحالتها، ولذلك بعث إليها مع وفدها قائلاً: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾، فلما بلغها ذلك جمعت أمراءها وقاداتها وجنودها وأتته مذعنة منقادة.

خامساً: ظهور تلك الآية والكرامة على يد ذلك الرجل الصالح السيد «آصف بن برخيا» وهو إتيانه بسرير ملكة سبإ من اليمن إلى فلسطين، وهي مسافة شهر في العادة، وذلك في طرفة عين. وهذه من أصول الكرامات التي استدلّ بها علماؤنا رحمهم الله تعالى، فإن هذا أمر خارق من المستحيل عادة، وهذا من قبيل ما يسميه الصوفية بالتعْريف بالروح، فإن المؤمن إذا قويت روحه بأنواع الطاعات وذكر الله تعالى ومراقبته أصبح روحانياً كالملائكة والجنّ، فيستطيع بإذن الله تعالى أن يفعل أموراً مستحيلة عادة، كالطيران في الهواء والمشي على الماء والدخول في الجدار ورؤية ما في السماء وما في تخوم الأرض وقعر البحار، وسماع الأصوات البعيدة، والمشي بالخطوة، إلى غير ذلك من الخوارق والكرامات، ولا ينكر هذا وأمثاله إلا جاهل أو ملحدٌ أو معاند، ومن جهل شيئاً عاداه، فمن شكّ

فليجرب ولو هازلاً، فإن من خرج عن بشريته بالرياضة حصل له مثل ذلك سواء كان مؤمناً أم كافراً، غير أن الوسيلة والغاية تختلفان.

ومنها: أن عبادة الشمس كانت قديمة، وذلك يدلّ على أن التعبد والتنسك شيء فطري، غير أن الأُمم تختلف في ذلك، فلكل أمة إله تحنثت له ورأته إلٰهاً فتقرّبت إليه بالقرابين وسألته وخضعت له، وتعدّدت لذلك الآلهة من شمس وقمر وكواكب وبحار وأشجار وأصنام وحيوان وإنسان، وكلها مخلوقات لله عزّ وجلّ ومظاهر قدرته مسخرات له عزّ وجلّ لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً، لكن الشياطين أضلّت الناس وحملتهم على عبادة الكائنات، ولذلك أرسل الله الرسل عليهم السلام وأنزل عليهم الكتب ليحاربوا هذه الظاهرة ويرجعوا الناس إلى فطرتهم، وهي توحيد الله عزّ وجلّ وعبادته وحده لا شريك له، وهذا ما حمل سيدنا سليمان عليه السلام على إرسال الهدهد إلى ملكة سبإ برسالته لدعوتها إلى الله تعالى.

ومنها: أن كل أُمّة جعلت أمرها العام للمرأة كان ذلك فيه دليلٌ على سقوطهم ونذالتهم وجهالتهم، وأنهم ستكون عاقبتهم الذل والخزي والتعاسة... وقد تقدم في التاريخ رئاسة النسوة حتى في عصرنا هذا الموبوء، وهو أخسّ العصور وأسقطها وأكفرها وأفجرها، إذ أنَّ المرأة أضحت تنافس الرجل وتزاحمه في كل شيء وأبانت عن وقاحتها وصفاقتها وخرجت عن أنوثتها وأصبحت غذاء للغادي والرائح وبضاعة بخساً رخيصة.

ومنها: جاء في الصحيح أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سأل الصحابة لما قتل كسرى: من ولي بعده؟ قالوا: ابنته، فقال صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»**، أي: لن يسعد قوم ولا تكون لهم قائمة إذا كانت المرأة وليّة أمورهم، صدق رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو لا ينطق عن الهوى، وما هو إلا وحي يوحيه الله إليه، فليخض الملحدون ما شاؤوا، وليتصرف العلمانيون ما أرادوا وليتمتعوا بالنساء الفواجر في حياتهم، وليعطوهن حرياتهن المطلقة، فسوف يعلمون أيَّ منقلب ينقلبون.

ومن عجيب أمر بعض من يدافع عن حقوق المرأة استدلاله على ولاية المرأة كرئيسة دولة ووزيرة وضابطة شرطة وقائدة وسفيرة وقاضية... بقصة ملكة سبإ وهي كافرة تعبد الشمس وديننا جاء بخلاف ذلك، والله المستعان على ما أصابنا في ديننا.

ومنها: وهي خاتمة هذه القصة، فمن هي هذه الملكة وأين كانت؟ اتفق المفسّرون وعلماء التاريخ على أن هذه المرأة كان يقال لها بلقيس، وذكر بعضهم أن أحد أبويها كان جنيّاً، وذهب بعضهم إلى أنها من سلالة تبع، وأنها ملكت أمة سبإ، وسبأ - بفتحتين آخره همزة - قبيلة من العرب العاربة كانت تسكن اليمن ومدينتها مأرب بينها وبين صنعاء أكثر من مائة وخمسين كيلو، وسمّيت سبأً باسم جدّهم سبأ بن يشجُب بن يعرب بن قحطان، وكان يسكن تلك المنازل وسمي سبأً لأنه كما يقال أول من سبى السبايا من ملوك العرب، وأدخل السبايا إلى اليمن، وقد ذكر الله تعالى قصتهم في القرآن الكريم، وسميت سورة باسمهم.

يبقى ماذا كان آخر أمر هذه الملكة؟ تضاربت أقاويل المفسّرين والإخباريين في شأنها، فقال بعضهم: إنها لما أسلمت تزوجها سليمان عليه السلام وبقيت معه بالقدس، وذهب البعض الآخر إلى أنها رجعت إلى بلادها وأقرّها سليمان على مُلْكِها، ولا دليل في ذلك يُرجع إليه، وإنما هي من الأقاويل الإسرائيلية، وعلى كلٍّ فالعبرة من القصة حاصلة والحمد لله.

ومنها: في موتِ سُلَيْمانَ مدة دون أن يشعر به الجن دليل واضح على أنهم لا يعلمون الغيب، كما يقال وكما يظن جهلة بني آدم، فهذا القرآن الكريم ينفي عنهم ذلك صراحة، وإنما غاية علمهم أنهم كانوا يأخذون ما غاب عنهم من الملائكة باستراقهم السمع وكانوا يزيدون على ذلك مائة كذبة، كما قدمنا ذلك في الطب، والحمد لله وبهذا تمّت قصة سليمان عليه السلام.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

* * *

قصة زكرياء ويحيىٰ عليهما السلام

{٥٥٧} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**كان زكرياءُ نجّاراً**».

رواه مسلم (١٣٥/١٥)، والحاكم (٥٩٠/٢) وصححه على شرط مسلم، فاستدركه وهو فيه بلفظه.

{٥٥٨} ـ وفي حديث أنس عن مالك بن صعصعة في حديث الإسراء: «**حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فلمّا خلصت فإذا يحيىٰ وعيسى وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيىٰ وعيسى فسلّم عليهما، فسلمتُ فردا، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح**»... رواه وتقدم ويأتي في السيرة.

{٥٥٩} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**ما من آدمي إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة أو عَمِلَها إلا أن يكون يحيى بن زكرياء لم يَهُمَّ بخطيئةٍ ولم يَعْمَلْها**».

رواه أحمد (٢٥٤/١، ٢٩٢)، والحاكم (٥٩١/٢) وجوّده الذهبي وعلي بن زيد توبع كما عند الحاكم من طريق آخر مرسلاً.

{٥٦٠} ـ وعن الحارث الأشعري رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إن الله عزّ وجلّ أمَرَ يَحْيَىٰ بنَ زكرياء بخمس كلماتٍ أن يعملَ بهنّ وأن يأمُر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ، فكادَ أن يُبْطِيءَ، فقال له عيسى: إنك قد أُمِرتَ بخمس كلماتٍ أن تعمل بهنّ وأن تأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تُبَلِّغَهُن وإما أن أُبَلِّغَهُنّ، فقال له: يا أخي إني أخشَى إنْ سَبَقْتَني أن أُعَذَّبَ أو يُخْسَفَ بي، قال: فجمع يحيىٰ بني إسرائيل في بيت المقدس**

حتى امتلأ المسجد وقُعِدَ على الشُرف، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عزّ وجلّ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهنّ وآمركم أن تعملوا بهن: أوَّلُهُنَّ: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مَثَلَ ذلك مَثَلُ رجل اشترى عبداً من خالِصِ مالِهِ ورِقٍ أو ذهبٍ، فجعلَ يعملُ ويُؤَدّي عملَه إلى غير سيّده، فأيُّكُمْ يَسُرُّهُ أن يكون عبدُه كذلك؟ وإن ربَّكُم عزّ وجلّ خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وآمركم بالصلاة فإن الله عزّ وجلّ يَنْصِبُ وَجْهَه بِوَجْهِ عَبْدِهِ ما لم يَلْتَفِتْ، فإذا صلّيْتُم فلا تَلْتَفِتُوا، وآمركم بالصيام فإن مثَلَ ذلك كمثَل رجلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ في عِصابةٍ، كلّهم يجد رِيحَ المِسك، وأنَّ خلوفَ فم الصّائم أطيبُ عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة فإن مثلَ ذلك كمثلِ رجلٍ أَسَرَهُ العدُوُّ فشدُّوا يدَيْه إلى عُنُقِهِ وقَرّبُوه لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فقال: هل لكم أن أفْتَدِي نَفْسِي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكَّ نفسَه، وآمركم بذكر الله كثيراً، وأن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدوّ سِراعاً في أثره، فأتى حِصْناً حَصِيناً فتحصَّن فيه، وأن العبد أحصَنُ ما يكون مِن الشيطان إذا كان في ذكر الله عزّ وجلّ»، وقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهنّ: السمع والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعةِ، فإنه من فارق الجماعة قَيْد شِبْرٍ فقد خلَعَ رِبْقَةَ الإسلام من عُنُقِهِ إلا أن يُراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثاء جهنم**»، قالوا: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: «**وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بما سمّاهم الله المسلمين المؤمنين عباد الله**»...

رواه أحمد (٢٠٢/٤)، والترمذي في الأمثال رقم (٢٦٧٤) بتهذيبي، وابن حبان (١٥٥٠) بالموارد، والحاكم (١١٧/١، ١١٨) وحسنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، وتقدم قدر الخمس التي أمر بها رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في لزوم الجماعة من الجزء الأول رقم (٩٨).

❋ ❋ ❋

بسط القصة

زكرياء ويحيىٰ كانا من أواخر أنبياء بني إسرائيل من نسل سليمان عليه السلام، وبينه وبينهما قرون عدة وتقدمهما أنبياء كثيرون لا يُعرفون، وُلِدا وتَرَبَّيَا وَشَبَّا ببيت المقدس، وكان زكرياء عليه السلام عقيماً لا ينجب كزوجته، ومن قدر الله أن تُولَد مريم في حياته، ويكون كفيلها والقائم بتربيتها، فكان كلما دخل عليها حجرتها وجد عندها فاكهة وطعاماً فَسَأَلَها: مِنْ أين لكِ هذا؟ قالت: هو من عند الله فالله يرزق من يَشاءُ رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب، فلما رأى زكرياء أن قدرة الله عزّ وجلّ لا يتعاظمها شيء توجّه إلى الله تعالى يدعوه أن يرزقه ولداً صالحاً هبة منه له، رغم أنه شيخ كبير قد ضعف عظمه وشاب رأسه كزوجته، فأجاب الله تعالى السميع القريب دعاءه فخاطبته الملائكة وهو قائم يصلي في محل عبادته مبشّرة له بولد صالح يسمى يحيىٰ مؤمناً بعيسى ورسالته وأنه سيسود قومه ويكون حابساً نفسه عن الشهوات عفّة وزهداً ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك، وسيكون مع ذلك نبيّاً من جملة الصالحين، فلما جاءته البشرى من الله بالولد المذكور أخذه العجب، فقال: يا ربّ كيف يأتيني الولد وقد أدركتني الشيخوخة وبلغت من الكبر نهاية العمر كزوجتي العاقر، وكان له من العمر مائة وعشرون سنة ولامرأته ثمان وتسعون سنة، فأجابه الله، هكذا الأمر فخلقه وإيجاده سهل يسير عليّ كما قد خلقتك من العدم ولم تك شيئاً مذكوراً، ولما تحقق بوجود الولد سأل الله عزّ وجلّ ـ إتماماً لبشارته ـ أن يجعل له علامة على حمل زوجته فأجابه تعالى لذلك بأن آية حملها، ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سويّ الخَلْق ليس بك خرس ولا علة، وإنما تكلم الناس بالرمز والإشارة، وأمره الله تعالى أن يسبّحه كثيراً بالعشي والإبكار، فأشرف على قومه من مصلاه وهو على تلك الصفة، فأشار إليهم أن سبّحوا الله في أوائل النهار وأواخره، ولما ولد الولد يحيىٰ عليه السلام وكبِرَ وبلغ السن الذي يُؤمر فيه قال الله تعالى له: يا يحيىٰ خذ التوراة بجدّ واجتهاد، وكان قد أعطاه الله عزّ وجلّ الحكمة ورجاحة العقل منذ صغره، فكان يفهم الكتاب في صباه قبل بلوغه سن الرجال، وفعل الله عزّ وجلّ به ذلك رحمة منه وعطفاً عليه وتزكية

له من الخصال الذميمة، وكان عند الله عزّ وجلّ عبداً صالحاً تقيّاً لم يهم بمعصية قط، وجعله تعالى باراً بأبيه وأمه محسناً إليهما ولم يكن متكبّراً عاصياً لربّه، وحيّاه الله تعالى في المواطن الثلاث التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة والافتقار إلى الله عزّ وجلّ وهي حين مولده ويوم موته ويوم يبعث من قبره حيّاً.

هذه جملة ما جاء في قصة زكرياء وابنه يحيىٰ في القرآن الكريم، جاءت مفصّلة في سور ثلاث في سورة آل عمران، وفي سورة مريم، وفي سورة الأنبياء:

قال الله تعالى في الأولى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٣٧ ـ ٤١].

وقال في مريم: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً

وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: ٢ ـ ١٥].

وقال في الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠].

ولا ذكر لقصتهما في غير هذه السور غير أنهما ذكرا في جملة الأنبياء المتناسلين من إبراهيم حيث قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

❋ ❋ ❋

موت زكرياء ويحيىٰ عليهما السلام

من المشهور عند المفسّرين والمؤرخين أن زكرياء عليه السلام أراد قومه الإسرائيليون قتله فهرب منهم، فانشقّت له شجرة فدخل فيها فدلّهم عليه الشيطان، فجاءوا بالمنشار ونشروا الشجر، وزكرياء عليه السلام، فقتل.

أما يحيىٰ عليه السلام فذكروا في موته أن بعض ملوك دمشق أراد أن يتزوج ببعض محارمه فنهاه يحيىٰ عن ذلك، فلما تزوّجها استوهبت دم يحيىٰ منه فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إليها فهلكت من فورها، وقيل غير ذلك، وكل ذلك من الإسرائيليات التي لا نركن إليها، علماً بأنهما قتلا كغيرهما من الأنبياء وما يوجد من الضَّريحَيْن في دمشق وحلب ينسبان إلى زكرياء ويحيىٰ لا يصح شيء من ذلك تاريخياً.

❋ ❋ ❋

من فوائد هذه القصة وعبرها

من فوائد هذه القصة: أن سيدنا زكرياء عليه السلام كان من أقران ومعاصري عمران والد مريم عليهم السلام، وأن عمران كان من سادات بني إسرائيل، ولذلك لما ولدت مريم اختلفوا أيهم يكفُلُها حتى اقترعوا عليها، كما يأتي، فكفلها زكرياء عليه السلام.

ومنها: أن زكرياء عليه السلام كان يأكل من كسب يده، فقد كان نجاراً كما كان داود حداداً، وكان إدريس خياطاً، وكان نبيناً تاجراً... صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

ومنها: أن مشاهدة الخوارق من المعجزات والكرامات تُقَوّي الإيمان واليقين في الله تعالى وتحمل المؤمن على الالتجاء إلى الله والتعلق به وسؤاله، وإن كانت في غاية البعد والشدّة، فإن الله لا يتعاظمه شيء، فهذا نبيّ الله زكرياء عليه السلام لما شاهد من مريم تلك الآية من وجود الطعام عندها في غير أوانه تيقّن أن الذي جاءها به بلا وقت ولا سبب قادر على أن يعطيه الولد الذي كان قد أشرف على اليأس منه، فسأل الله عزّ وجلّ أن يهبه ولداً يرث منه النبوّة والحكمة لأنه رأى بني إسرائيل قومه قد ظهر فيهم الفساد وليس فيهم من يستحق القيام بأعبائهم وسياستهم غير أهل بيته.

ومنها: منع زكرياء من الكلام إلا بذكر الله مع سلامة لسانه، وهي من آيات الله تعالى ومعجزاته الخارقة.

ومنها: فضل يحيىٰ عليه السلام وتكريمه فهو النبيّ التقي الصالح الحصور السيد البار بوالديه الذي سلَّم الله تعالى عليه وحيَّاه في مواطن الضعف والافتقار إلى الله، وآتاه الحكم صبياً ورحمةً وعطفاً وزكاةً.

ومنها: حفظه وعصمته من المعاصي حتى من الهمّ، وإن كان ذلك عاماً في صفات الأنبياء، غير أنه خصّ بشيء من ذلك لم يشاركه فيه أحد.

ومنها: أن العلماء ذكروا في قوله تعالى في شأن يحيىٰ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ

يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾، أن هذه الأوقات الثلاثة هي أشدّ ما تكون على الإنسان، قالوا: إنه ينتقل في كل منها من عَالم إلى عالَم آخر، فيفقد الأول بعد ما كان أَلِفَه وعرفه ويصير إلى عالم آخر لا يدري ما بين يديه وما سيلاقيه، ولذلك يستهل الطفل صارخاً بعد خروجه من بين الأحشاء ومفارقة لينها وضمّها، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وأكدارها ومشاكلها، وهكذا إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ وصار بعد الدور والقصور إلى عرصات الأموات سكان القبور، لينتظر النفخة في الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور، ومن محزون ومثبور، ولقد أحسن وأجاد من قال:

وَلَدَتْكَ أُمُّكَ بَاكِياً مُسْتَصْرِخاً ... والنَاسُ حَوْلَكَ يَضْحَكُونَ سُرُوراً
فَاحْرِصْ لِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ إِذَا بَكَوْا ... فِي يَوْمِ مَوْتِكَ ضَاحِكاً مَسْرُوراً

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشقّ ما تكون على ابن آدم سلم الله تعالى على يحيىٰ في كل موطن منها، فقال تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

ومنها: قد ورد أن الله عزّ وجلّ انتصر ليحيىٰ عليه السلام وانتقم من بني إسرائيل لقتله.

{٥٦١} ـ فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «**أوحى الله إلى محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: إني قتلت بيحيىٰ سبعين ألفاً، وإني قاتل بابن بِنْتِكَ سبعين ألفاً، وسبعين ألفاً**».

رواه الحاكم (١٧٨/٣) وصححه على شرط مسلم، كما قال الذهبي.

ولذلك سلّط الله عزّ وجلّ بُخْتُنَصَّر على بني إسرائيل بعد يحيىٰ عليه السلام، فغزاهم وقتل منهم سبعين ألفاً وسبى نساءهم وأطفالهم وفرّقهم شذر مذر كما ذكر ذلك المؤرخون، وقد أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى قال: قدم بختنصّر دمشق فإذا هو بدم يحيىٰ بن زكرياء يغلي فسأل عنه فأخبروه

فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن، قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيّب.

ومنها: أن يحيىٰ عليه السلام كان نبيّاً رسولاً كوالده لقول زكرياء في دعائه: يرثني ويرث من آل يعقوب، فالإرث هنا المراد به النبوّة والرسالة... ويؤيّد ذلك ما جاء في حديث الحارث الأشعري في أن الله أوحى إليه بخمس كلمات أن يعمل بهنّ ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ... الخ، وهذه هي الرسالة، وقد خفي هذا على بعض المشتغلين بالحديث في هذا العصر، فشك في رسالته عليه السلام.

ومنها: ما جاء من الوصايا والإرشادات والتوجيهات في حديث الحارث المذكور، فإن فيه خمس كلمات مما أمر به يحيىٰ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له لأنه الخالق الرازق فهو وحده المستحق للعبادة، ثم الصلاة لأن فيها مناجاة الله تعالى والاقتراب منه، ثم الصيام وريح فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، ثم الصدقة وهي فدية للإنسان من النار، ثم ذكر الله عزّ وجلّ بكثرة وهو حصن حصين من الشيطان.

وفيه خمس أُخَرُ أَمَرَ بها نبيُّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُمَّته، وهي: السمع والطاعة للخلفاء والأُمراء في المعروف، ثم الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ثم الهجرة من بلاد العدو إلى بلاد إسلامية يقيم فيها المؤمن دينه، ثم لزوم جماعة المسلمين أهل الحق...

وهذه العشر الخصال أهم دعائم الدين وأصوله وقواعده والكلام في تفصيلها يطول، فلنكتف بهذه الإشارة، ولعلنا نتوسع في شرح ذلك في موطن آخر إن شاء الله تعالى، وبهذا تمّت قصة زكرياء وولده يحيىٰ عليهما السلام.

وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

قصة مريم وولادة عيسى عليهما السلام

جاءت قصة مريم وعيسى مقرونة بقصة زكرياء ويحيىٰ لأمرين:

أولاً: لشبه قصتيهما في الغرابة والكرامة حيث إن كلاً من زكرياء وامرأته، وعمران وامرأته أنجبوا مع الكبر والعَقْر، وكانت ولادة عيسى أعجب وأغرب.

ثانياً: للقرابة التي كانت بين البيتين، فإن زكرياء كان متزوجاً بأشياع أخت مريم على قول الجمهور، ولذلك جاء في الصحيحين أن يحيىٰ وعيسى ابنا الخالة.

ومريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام، وكان والدها عمران من سادات أهل زمانه، كما كانت أمها وهي حَنَّةُ بنت فاقود من العابدات الصالحات، وكانت عاقراً عجوزاً فبينما هي ذات يوم تحت ظل شجرة إذْ رأت طائراً يطعم فرخه فحنَّت إلى الولد وتمنته، فسألت الله عزّ وجلّ أن يرزقها ولداً ونذرت لله تعالى أن يكون محرّراً من سدنة بيت المقدس، ثم توفي عمران وهي حامل بمريم، فلما وضعتها أنثى والبنات عادة لا يصلحن لخدمة المساجد كالذكور، فشكرت الله عزّ وجلّ وسمّتها مريم، تعني العابدة، ودعت الله عزّ وجلّ أن يحصنها ونسلها من غواية الشيطان الرجيم، فقبل الله سبحانه هبتها وأنشأها على الصلاح والعفة، وعندما قدمتها والدتها إلى رعاة بيت المقدس اختلفوا فيمن يقوم بكفالتها، لأنها يتيمة بنت أحد سادتهم وعبّادهم، فاقترعوا عليها فجاءت القرعة في زكرياء وهو زوج أختها أو خالتها، فاتخذ لها معبداً لا يدخل عليها أحد سواه، فكان إذا جاءها وجد عندها رزقاً لم يأتها به ولا يوجد مثله عند الناس في ذلك الوقت، فتعجّب من ذلك وسألها: من أين لك هذا الرزق؟ فتجيبه أنه من عند الله عزّ وجلّ الذي يرزق من يريد رزقاً واسعاً بغير جهد ولا تعب، وفي هذا جاءت الآيات الكريمات:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ

لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٧].

فأخبر تعالى في هذه الآيات أنه اختار للنبوة صفوة خلقه كآدم أبي البشرية، ونوح شيخ الأنبياء، وآل إبراهم وهم ذوو قرباه وعشيرته، وهم إسماعيل وإسحٰق والأنبياء من أولادهما ومن جملتهم خاتمهم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وآل عمران ومنهم عيسى ووالدته مريم... ثم ذكر قصة ولادة مريم ونشأتها وما تفضّل الله تعالى به عليها من الكرامة والعناية والحفظ من الشيطان.

{٥٦٢} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إلاَّ والشَّيْطَانُ يَمَسُّه حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً مِن مَسِّ الشَّيْطَانِ إيَّاه إلاَّ مريمَ وابنَها**».

رواه أحمد والبخاري ومسلم والحميدي وابن جرير وتقدم في التفسير.

وفي الحديث خصوصية لمريم وابنها عيسى حيث إن الله عزّ وجلّ حفظهما من مسّ الشيطان عند ولادتهما استجابة لدعوة امرأة عمران في قولها: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

❋ ❋ ❋

الملائكة تبشّر مريم بالاصطفاء

أنبت الله عزّ وجلّ مريم نباتاً حسناً ونشأت في عبادة الله عزّ وجلّ والانقطاع إليه، ولم يكن لها نظير في زمانها عفّة ونزاهة ونسكاً وصلاحاً، ولذا خاطبتها الملائكة بالبشارة بأن الله اختارها على نساء العالمين، وأنه

ينبغي لها أن تقنت لله وتركع وتسجد له، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أي: اختارك وطهرك من الأدناس والأقذار ومما اتهمك به اليهود واختارك على سائر نساء العالمين، ﴿ٱقْنُتِى﴾ أي: الزمي عبادة الله وطاعته بالصلاة له شكراً له تعالى على ما أولاك وتفضل به عليك.

{٥٦٣} ـ عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**خَيرُ نِسَائِهَا مريمُ بنتُ عِمْرَان، وخيرُ نِسائِهَا خَدِيجةُ بنتُ خُوَيلد**».

رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم، وتقدم أيضاً في التفسير.

وقوله: خير نسائها مريم أي: هي أفضل نساء أُمّتها وعالمها، والحديث مخصص لقوله تعالى: ﴿نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأن المراد نساء عالمها.

والحديث يدلّ على أن أفضل نساء العالمين هما مريم وخديجة، لكن جاء في الصحيح ما يدلّ على أن مولاتنا فاطمة عليها السلام سيدة نساء أهل الجنّة، غير أنه جاء في:

{٥٦٤} ـ حديث لأبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أهلِ الجنَّةِ إلا مريمَ بنتَ عِمْران**».

رواه أحمد (٣/٨٠)، والحاكم (٣/١٥٤) وصححه ووافقه الذهبي، وانظر للمفاضلة بين النساء المذكورات «الأنوار الباهرة» لكاتبه (ص ٨٩).

{٥٦٥} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خَطَّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في الأرض أربعة خُطُوطٍ، قال: «**أتَدْرُونَ ما هذا**»؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أفضل نساء أهل الجنّة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد،**

وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، عليهنّ من الله السلام والرضوان».

رواه أحمد (١/٢٩٣)، والحاكم (٢/٥٩٤ و٣/١٦٠، ١٨٥) وصححه ووافقه الذهبي.

وفي رواية: «**سيدات نساء أهل الجنّة**» الحديث، رواه الطبراني بسند صحيح.

{٥٦٦} ـ وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**حَسْبُكَ مِن نساءِ العالمين: مريمُ بنتُ عمران، وخديجةُ بنت خُوَيلِد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون**».

رواه أحمد (٣/١٣٥)، والترمذي (٣٦٥٥)، وابن حبان (٢٢٢٣)، وحسنه الترمذي وصححه.

حسبك أي: كافيك هؤلاء النسوة في الاقتداء بهنّ، وذكر مناقبهنّ وزهدهنّ وفضلهن وإقبالهن على الله، عن غيرهن من سائر النساء.

ففي هذه الأحاديث فضل هؤلاء النسوة ومنهن مريم، فهنّ أكرم نساء الدنيا والآخرة على الله وخيرهن وأشرفهن، ولا شكّ أن مريم لها زيادة فضل عليهنّ، حتى قال جماعة من العلماء بأنها نبيّة لظواهر القرآن الكريم.

* * *

بشارة مريم بعيسى الوجيه المقرب الصالح المتكلم في المهد

وكما بشرت الملائكة مريم باصطفائها وطهارتها، كذلك حملت إليها البشارة بأن الله سيهب لها ولداً من غير الطريق المعتاد يسمى المسيح عيسى ابن مريم، وستكون له وجاهة ومنزلة رفيعة في الدنيا والآخرة، وأنه من جملة المقرّبين عند الله تعالى، وأنه ميّزه عن غيره بالتكلّم في طفولته، وهو

لا يزال في مهده كما سيتكلم في كهولته، وأنه مع ذلك من الصالحين في ظاهرهم وباطنهم.

فوجئت مريم بهذه البشارة وأخذها العجب إذ كيف ألد وأنا العذراء التي لم يمسني بشر لا بزواج ولا بغيره، أجابتها الملائكة: كذلك هو أمر الله فلا يعجزه شيء يخلق ما يشاء بسبب تلقيح الرجل وبغير سبب، فإذا أراد شيئاً حصل من غير تأخير ولا حاجة إلى سبب، وفي هذه البشارة جاء قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٧].

قوله: بكلمة منه أي: بمولود يحصل بكلمة من الله تعالى بلا واسطة أب، وقوله: وجيهاً أي: ذا جاه وسيادة وعظمة ومنزلة، وقوله: في المهد وكهلاً أي: يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة.

* * *

جبريل يزور مريم في خلوتها ويبشرها بالغلام الزكي وينفخ في جيب درعها

كانت مريم عليها السلام وقفا من والدتها على خدمة البيت والعبادة فيه، وبينما هي في خلوة لها شرقي المعبد في عبادتها أو في غسل من حيضها، إذ فاجأها جبريل عليه السلام في صورة رجل كاملاً سوياً، فلما رأته ظنته آدمياً يريد منها سوءاً، فاستعاذت بالله من شرّه وقالت له: ابتعد عني إن كنت تقياً، فأجابها جبريل عليه السلام: إني لست بشراً كما تحسبين، وإنما أنا ملك مرسل من عند الله لأهب لك ولداً صالحاً نامياً على الخير والبركة، تعجبت مريم لذلك إذ كيف يوجد مني ولد ولم يقربني

زوج ولم أكن يوماً ما زانية، قال لها جبريل: الأمر كما قلت لكِ، وقد قال ربك إنَّ خلق الولد بلا أب هو عليّ يسير وسيجعله آية للناس ورحمة منه، وكان خلقه أمراً مقدّراً لا بدّ من تنفيذه.

وفي هذا المشهد الغريب يقول تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال عز وجل: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: انتبذت أي: تنحّت واعتزلت، قوله: روحنا هو جبريل عليه السلام، فتمثل أي: تصوّر لها في صورة البشر التام الخلقة.

وقوله: أحصنت فرجها أي: حفظته وأعفّت نفسها عن الفاحشة، وعن الحلال لقولها: لم يمسسني بشر ولم أك بغياً، وقوله: وصدقت بكلمات ربها أي: آمنت بشرائع الله وكتبه المنزّلة.

قال المفسرون: إن الله تعالى بعث جبريل عليه السلام إليها في صورة رجل فنفخ في فتحة جيب درعها فوصل أثر ذلك إلى فرجها، فحملت بعيسى عليه السلام. وهذه المعجزة والآية الباهرة يتجلّى فيها عظيم قدرة الله تعالى الذي لا يتقيّد في خلقه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التي يسير نظام العالم عليها، وقد انخدع المغفلون بهذه الآية في عيسى في كونه خلق بدون أب؛ أنه الله أو ابن الله، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على غباوتهم، فإنه لو كان الأمر كما ظنّوا لكان آدم أولى بالألوهية أو النبوّة من عيسى لأنه وجد من تراب جامد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ

كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠].

معناه: إن شأنَ عيسى إذ خلقه بلا أب وهو في بابه غريب كشأن آدم حيث خلقه بلا أب ولا أم، إذاً فخلق آدم أغرب وأعجب من خلق عيسى عليهما السلام.

* * *

حمل مريم بعيسى وولادته

عقب نفخ جبريل عليه السلام في جيب درع مريم حملت بعيسى عليه السلام، وشعرت بما سَيَرْمِيهَا به الناسُ وأصبحتْ قلِقَةً خائفةً تحب العُزلة، فاعتزلت مكاناً بعيداً عن الناس، فاضطرّها الطَّلْقُ وشدَّةُ الولادة وألمُها إلى الالتجاء إلى جذع نخلة لتستتر به وتعتمد عليه، وتمنَّت أن لو كانت ماتت أو لم تكن شيئاً في هذه الدنيا يعرف، غير أن أحباب الله تعالى وأولياءَهُ سرعان ما يُدركُهم لطفُ الله وتُحيط بهم عنايتُه سبحانه وتعالى، فقد بعث الله إليها جبريل عليه السلام ليطمئنها ويوجّهها إلى ما فيه خيرها وذهابُ غَمِّها وانشراحُ صدرها، فناداها من تحت مكانها: لا تحزَني على ما نزل بكِ ولا تفكري في ذلك، فهذا جَدولُ ماءٍ، وذاك رُطَبٌ في جِذعِ النخلة فهُزّي بجذع النخلة يسقطْ عليك رُطَبٌ جَنِي لم يَجِفَّ ولم ييبس بعدُ، فكلي منه واشربي عليه الماء وطيبي نفساً وهَدِّئي خاطركِ، وإذا ما قابلتِ أحداً ممن يلومك فقولي له: إني نذرتُ لله إمساكاً عن الكلام فلا أكلم اليوم بشراً، يقول تعالى في ذلك:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٢ ـ ٢٦].

قوله: فأَجَاءَها أي: أَلْجَأَها واضطرها ألم الولادة إلى ساق نخلة يابسة، وقوله: سرياً أي: جدولاً من الماء، وقوله: رطباً جنياً أي: شهياً طرياً، وقوله: وقري عيناً أي: طيبي نفساً وافرحي بهذا المولود ولا تحزني.

* * *

اليهود يرمون مريم بالزنا وعيسى يتكلم في المهد صبياً بلسان فصيح

لما ولدت مريم البتول عيسى عليهما السلام جاءت قومها حاملة له ففوجىء قومها بهذا الأمر الغريب، وقالوا لها: لقد أتيتِ بشيء عظيم منكر وأغظَمُوا ذلك واستنكروه ثم عَيَّروها ونادوها: يا شبيهة هارون في العبادة والصلاح ما كان أبوك عِمرانُ رجلاً فاجراً وما كانت أُمُّكِ زانية، فكيف صَدَرَ منكِ هذا المنكرُ وأتيتِ بهذه الداهية وأنتِ من بيت طاهرٍ معروفٍ بالصلاح والعبادة والعفّة، فأصغت مريم إلى ما رموها به ولم تكلّمهم، عملاً بوصية جبريل ولم تجبهم، وأشارت إلى عيسى ليكلّموه ويسألوه، فاشتدّ غضبهم لاعتقادهم أنها تسخر منهم وتهزأ بهم، لأنهم لم يعهدوا طفلاً رضيعاً يتكلّم في مهده، فأجابوها متعجبين مما أشارت إليه: كيف نكلّم طفلاً رضيعاً في مهده، ولكن عيسى عليه السلام أجابهم بإذن الله تعالى الجواب الشافي الدالّ على براءة والدته الطاهرة، فقال بلسان فصيح: إني عبد الله سيؤتيني الإنجيل ويختارني نبياً ورسولاً لبني إسرائيل ويجعلني مباركاً معلّماً للخير حيثما أقمت وارتحلت ويأمرني بإقامة الصلاة وأداء الزكاة مدة حياتي، كما يأمرني أن أكون براً بوالدتي، ولم يجعلني متجبّراً في الناس ولا شقياً بمعصيته، وأمانُ الله عليَّ يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي مع الأموات حياً، وفي هذا يقول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى

بَنِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٣٤].

قوله: فرياً أي: شيئاً منكراً عظيماً، وقوله: بغياً أي: زانية.

{٥٦٧} ـ عن المغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه قال: كنت بأرض نَجْران فسألوني: أرأيتُم شيئاً تقرءونه: «يا أخت هـٰرون»، وبين موسى وعيسى ما قد علمتم من السنين، قال: فلم أدرِ ما أُجيبهم به، فلما قدِمْتُ على رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ذكرتُ ذلك له فقال: **«ألا أخبرتَهم أنَّهم كانوا يُسَمُّون بأنبيائهم والصالحين»**.

رواه أحمد (٤/٢٥٢)، ومسلم في الأدب (١٤/١١٦)، والترمذي (٢٩٥٢)، والنسائي (٦/٣٩٣) كلاهما في التفسير.

أفادنا هذا الحديث ثلاثة أمور:

أحَدُهَا: أن المراد بقول اليهود لمريم: «يا أخت هارون» أنه ليس هارون النبيّ وإنما هو رجل صالح عابد كان أيام مريم تشبهه في النسك والتعبد.

ثانيها: بيان أن بني إسرائيل كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم.

ثالثها: أن بين موسى وعيسى زمناً طويلاً، ذكر المؤرخون أن بينهما ألف سنة، وفي هذه القرون الطويلة بدَّلوا وغيَّروا وفسقوا وفجروا وتمرّدوا وعتوا وطغوا كما قصّ الله تعالى ذلك عنهم في كتابه العزيز.

{٥٦٨} ـ وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لم يتكلم في المهد إلا ثلاثةٌ: عيسى ابنُ مريم، وصاحبُ جُريج»** الحديث، وفيه: **«الصبي الذي ترك الثدي وقال: اللّهمّ لا تجعلني مثله»**، وقال: **«اللّهمّ اجعلني مثلها»**.

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٧/٢٨٧، ٢٩٢) وغيره، ومسلم في البرّ (١٦/١٠٥، ١٠٨) ويأتي مطولاً، وتقدم أيضاً مختصراً في التفسير.

في الحديث بيان لقوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ وأن عيسى تكلم وهو في المهد كباقي من ذكر في الحديث، وستأتي بقية للحديث لاحقاً في القريب إن شاء الله تعالى. وهنا انتهت قصة مريم عليها السلام بميلادها وحياتها وحملها بعيسى وميلاده، وقصتها ذكرت تمهيداً لقصة عيسى عليه السلام.

❋ ❋ ❋

قصة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام

{٥٦٩} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أنّه قال: **«كُلُّ بَنِي آدم يَطعن الشيطان بأصْبُعِهِ في جَنْبِهِ حِينَ يُولَدُ إلاَّ عِيسَى ابنُ مريم ذهبَ يَطْعُن فطعن في الحجاب»**.

رواه أحمد (٢/٥٢٣)، والبخاري في بدء الخلق (٧/١٥٠).

يطعن ـ بضم العين ـ بمعنى يمسّ، وقوله: الحجاب هو الجلدة التي فيها الجنين التي يقال لها: المشيمة.

{٥٧٠} ـ وعنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة»**، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: **«الأنبياء إخوة من علاتٍ وأمّهاتُهُم شتّى ودينُهم واحد، فليس بيننا نبيٌّ»**، وفي رواية: **«ليس بيني وبينه نبي والأنبياء أولاد علات»**.

رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهما، وتقدم في أول الأنبياء رقم (٤٦٨).

{٥٧١} ـ وعنه أيضاً عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«رأى عيسى رجلاً يسرق فقال له أسرقتَ؟ قال: كلاَّ واللهِ الذي لا إلـه إلا الله، فقال عيسى: آمنت بالله وكذَّبْتُ عيني»**.

رواه أحمد (٢/٣١٤، ٣٨٣)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٩٩)، ومسلم في الفضائل (١٥/١٢١).

{٥٧٢} ـ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**تحشرون حفاةً عراةً غُرلاً ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، فأوّل من يُكسى إبراهيمُ، ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال، فأقول: أصحابي، فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾**».

رواه البخاري (٧/٣٠١) في الأنبياء وفي التفسير ـ وتقدم فيه ـ وفي الرقاق، ومسلم في الجنة (١٧/١٩٣)، والترمذي في صفة القيامة وفي التفسير، والنسائي في الكبرى، وانظر ما سبق في التفسير.

كان بنو إسرائيل قد طال عليهم الأمد بعد نزول التوراة فضلوا وبدلوا واختلفوا وتفرّقوا، فبعث الله عزّ وجلّ إليهم عيسى ابن مريم رسولاً مجدّداً بكتاب مستقل فيه هدى ونور، ومصدّقاً لما سبقه من التوراة، وجاء به خاتماً لأنبياء بني إسرائيل، وجعله تعالى من أولي العزم الخمسة وأيّده بالمعجزات الباهرات، فكفر به اليهود وحاربوه وأرادوا قتله فحفظه الله منهم ورفعه إليه وفعلوا معه تلك الأفاعيل، رغم ما شاهدوا من آياته في ميلاده وكلامه وخوارق العادات التي أجراها الله على يديه؛ من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى... وغير ذلك مما يأتي.

* * *

رسالة عيسى وإيتاؤه الإنجيل

قال الله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، يخبر تعالى بأنه علّمه الكتاب أي: الكتابة والحكمة وهي

السداد في القول والعمل أو سنن الأنبياء، وجعله يحفظ التوراة والإنجيل وأرسله إلى بني إسرائيل، وقال جلّ علاه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: ٢٧].

ومعنى الآيتين أن الله تعالى اتّبع على آثار الأنبياء والرسل بعيسى وأرسله عقيبهم مصدقاً لما تقدمه من التوراة، وأنه تعالى أنزل عليه كتابه الإنجيل فيه هدى إلى الحقّ ونور يستضاء به في إزالة الشبهات، ومعترفاً بأن ما سبق من التوراة أنها من عند الله وهي موعظة وذكرى وهدى للمتقين، وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٧١]، فهو ابن مريم ورسول من الله لبني إسرائيل، وليس ابناً لله عزّ وجلّ كما يفتريه الكافرون من النصارى.

* * *

عيسى من أولي العزم ومن جملة الأنبياء الذين أوحي إليهم

سيدنا عيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، ومن أُولي العزم الخمسة الذين نوّه الله تعالى بهم، وجعلهم أكابر رسله صلوات الله وسلامه عليهم، وقد ذكرهم الله عزّ وجلّ مجتمعين في موضعين من كتابه الكريم.

فقال تعالى في الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال جلّ ذكره: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

فهؤلاء الأنبياء الخمسة وهم ساداتنا نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتمهم رسولنا صلوات الله وسلامه عليهم هُم أئمّة الرسل وقاداتهم وأُولو العزم منهم ومشاهير أرباب الشرائع، أخذ عليهم العهد والميثاق المغلّظ في الآية الأُولى بأن يفوا بما التزموا به، وأن يصدق بعضهم بعضاً، وأن يؤمنوا برسالات بعضهم بعضاً، ومنها رسالة نبيّنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما أخبر في الآية الثانية بأنه سنّ وبيّن للمؤمنين من هذه الأُمّة من الشريعة السَّمحة، والدين الحنيف ما وصّى به الرسل وأرباب الشرائع من مشاهير الرسل وأكابرهم كنوح وحبيبنا محمد عليهما السلام، وما أمر ووصّى به إبراهيم وموسى وعيسى من أصول الشرائع والأحكام ووصاهم بأن يقيموا الدين الحق ولا يختلفوا فيه، والمراد بذلك الشرائع المتفق عليها بين كل الأنبياء، وهي توحيد الله وطاعته والإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والقدر والصلاة والصيام والصدقة والحجّ والعدل والصدق وجميع مكارم الأخلاق... فهذه لا يجوز الاختلاف فيها. أمّا ما عَدَاها من فروع الأحكام، فلكل واحد من هؤلاء شرعه وأحكامه. أما من عداهم من الأنبياء، فكانوا يبعثون بشرع من قبلهم، ولم يزل ذلك يتأكّد بالرسل ويتناصر بالأنبياء واحداً بعد واحد وشريعة إثر شريعة حتى ختمها الله عزّ وجلّ بخير الملل ملة أكرم الرسل نبيّنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه جميعاً، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ﴾، فعيسى من جملة الأنبياء الذين أوحى الله عزّ وجلّ إليهم، كما أنه من جملة الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم وبما أُنزل عليهم بدون تفرقة بينهم، كما قال عزّ وجلّ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

فالإيمان بعيسى وبما جاء به واجب كباقي من ذكر معه في الآية الكريمة، وهو من سلالة داود عليه السلام، وقد ذكر في جملة الأنبياء الذين هم من أولاد الخليل عليه السلام، فقال تعالى في الأنعام [٨٥]: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

❊ ❊ ❊

عيسى عليه السلام يخاطب بني إسرائيل بأنه رسول الله إليهم ويبشر برسولنا أحمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم

بعث عيسى عليه السلام في بني إسرائيل برسالته يدعوهم إلى الرجوع إلى دينهم الذي زاغوا عنه ويصدهم عن ضلالهم ويبيّن لهم ما اختلفوا فيه، ويأمرهم بتقوى الله وطاعته، وأن الله هو ربّه وربهم وأنه الذي تجب عبادته، فذاك هو الطريق السويّ، ويقوم فيهم مصرّحاً لهم بأنه رسول من الله إليهم مصدّقاً لما تقدمه من التوراة المنزل على موسى ومخبراً ببشارة عظيمة ألا وهي مجيء رسول عظيم يأتي بعده يسمى أحمد، يقول تعالى في ذلك:

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣ ـ ٦٤].

البيّنات: هي المعجزات، والشرائع الواضحات.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

{٥٧٣} ـ وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**إني عند الله خاتم النبيّين، وأن آدم لمُنجَدِلٌ في طينته وسأُخبركم عن ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أُمّهات النبيّين يَرَيْنَ وأن أمّ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام**».

رواه أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم من طرق حسنة صحيحة، وله شاهد قوي.

{٥٧٤} ـ فَعَن أصحاب رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، قال: «**نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى أخي عيسى**»...

رواه ابن إسحٰق في السيرة والحاكم وغيرهما وصححه، وقد تقدم كسابقه في التفسير ويأتيان أيضاً في السيرة.

والحديثان مطابقان للآية الكريمة في بشارة عيسى عليه السلام بمجيء نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وسيأتي الكلام على البشارة به في التوراة أيضاً في السيرة بإذن الله تعالى.

❋ ❋ ❋

الحواريون أنصار عيسى عليه السلام

اصطدم عيسى عليه السلام في دعوته بجدال اليهود ورميهم روح الله عليه السلام وأمه البتول بالعظائم وانقسموا إلى قسمين: آمنت فرقة منهم وأخلصوا دينهم لله عزّ وجلّ، وكفرت طائفة أخرى، ولما وجد عيسى تيار العناد يقوى وبوادر الكفر تطغى وقف في قومه قائلاً: من أنصاري إلى الله؟ فأجابه تلامذته الذين آمنوا به، وأعلنوا إيمانهم بجرأة وشجاعة وسط جموع غفيرة من الكافرين: نحنُ أنصارُ الله، وهذا ما يقول فيه القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: ١٤].

وقال عزّ وجلّ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَى مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِۖ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٣﴾ [آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣].

الحواريون: هم الخُلَّصُ من تلامذة عيسى المؤمنين، وكانوا اثني عشر رجلاً، وقوله: فلما أحس أي: عرف وتحقق.

قال المفسّرون: لما بلّغ عيسى ابن مريم رسالةَ ربه اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلّت طائفة فجحدوا نبوّته ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتوالية، وغلت فيه طائفة من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله تعالى من النبوّة وافترقوا فيه فرقاً وشيعاً، فمنهم من زعم أنه ابن الله، ومنهم من قال إنه ثالث ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس. ومنهم من قال: إنه الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فنصر الله تعالى المؤمنين على من عداهم من فرق النصارى بالحجّة والبرهان، فأصبحوا ظاهرين عليهم في كل العصور...

❋ ❋ ❋

تذكير الله تعالى عيسى بنعم الله وبيان معجزاته

لقد أنعم الله تعالى على عبده وكلمته عيسى ابن مريم عليه السلام بنعم جمّة تستحق الشكر والتحدّث بها، ولذلك ذكّره الله تعالى بها وعدّدها عليه ليزداد شكراً لله عزّ وجلّ على ما أولاه، وذكر في ضمن ذلك المعجزات التي أيّده بها يقول تعالى في ذلك: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال جلّ علاه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ

كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٥١].

عدَّد عليه نعمه ومعجزاته فذكر منها نحواً من اثنتي عشرة وهي: تأييده بروح القدس جبريل عليه السلام، تكلّمه في المهد رضيعاً، وتعليمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ويا لها من نعمة، وخلق الطير ونفخ الروح فيه فيطير بإذن الله تعالى، وإبراء الأكمه وهو الذي يولد أعمى، والأبرص، والبرص: داء أبيض يسري في الجسم، وإحياء الموتى؛ كل ذلك بإذن الله تعالى وقدرته، وإخبار الناس بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم، ومصدّقاً لما تقدمه من التوراة وتحليله بعض ما حرّم عليهم في التوراة، وإتيانه بآية من الله، ورسول من الله عزّ جلّ إلى بني إسرائيل، وكفّه تعالى عنه اليهود عندما أرادوا قتله.

❊ ❊ ❊

معجزة نزول المائدة من السماء

كان الحواريون مؤمنين مخلصين، فأرادوا أن يزدادوا إيماناً بعظمة قدرة الله تعالى بمشاهدة آياته وما يجريه على يد نبيّه وكلمته عيسى عليه السلام، فسألوا روح الله سؤال تثبّت واطمئنان، فقالوا: يا عيسى هل يقدر ربك أن يأتينا بمائدة طعام من السماء؟ أجابهم عيسى: اتقوا الله في أمثال هذه الأسئلة إن كنتم مصدّقين بكمال قدرته، قال الحواريون: إننا نريد بسؤالنا ذلك أن نأكل منها تبرّكاً بها وتسكن نفوسنا بزيادة اليقين، ونعلم علم اليقين لا يشوبه شكّ أنك صادق في دعوى النبوّة ونشهد بها عند من لم يحضرها من الناس، فلما علم عيسى صدق الحواريين في سؤالهم ذلك توجّه إلى الله عزّ وجلّ ودعاه قائلاً: اللّهمّ أنزل علينا مائدة من السماء يكون

يومها يوم عيد وفرح لنا ولمن يأتي بعدنا، كما تكون دلالة وحجّة شاهدة على صدقي، وارزقنا يا الله فإنك خير من يعطي ويرزق، فأجابه الله تعالى: إني سأنزل عليكم المائدة من السماء فمن كفر بعد تلك الآية الباهرة فسوف أعذّبه عذاباً شديداً لا أعذّب مثل ذلك التعذيب أحداً من العالمين، وفي شأن المائدة يقول الله عزّ وجلّ:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٢ ـ ١١٥].

هذه معجزة وأي معجزة أيّد الله تعالى بها نبيّه وعبده عيسى إجابة لمن سألها من تلامذته الخاصّين، وقد نزلت كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ فإن الله لا يخلف وعده، خلافاً لمن نفى نزولها، وقد جاء في نزولها وصفة ما نزل حديث وهو:

{٥٧٥} ـ عن عمّار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**أُنزِلَتْ المائدةُ من السماء خُبْزاً ولَحْماً، وأُمِرُوا أن لاَ يَخُونُوا ولا يَدَّخِرُوا لِغَدٍ فخانُوا وادَّخَرُوا ورفَعُوا لِغَدٍ فمسخوا قردة وخنازير**».

رواه الترمذي في التفسير (٢٨٦٣)، وابن جرير (١٣٤/٧)، وابن أبي حاتم (١٢٤٥/٤) مرفوعاً وموقوفاً وكلاهما سنده حسن وفيه عنعنة قتادة.

والمائدة طبق يكون عليه طعام، وقد سمّيت السورة باسمها إخلاداً لهذه الآية الباهرة.

❊ ❊ ❊

التنديد بالنصارى في ادعائهم ألوهية عيسى والتثليث وبيان أن الله تعالى واحد وأن عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته

جاء في القرآن الكريم الردّ على النصارى الذين افترقوا في شأن عيسى عليه السلام، فإنّ فِرَقاً منهم عظّموه وتغالوا فيه ورفعوه فوق قدره عندما رأوا أنه وُلد بدون أب، فبعض فرقهم قالوا فيه: إنه الله، وقالت فرقة ثانية: إنه ابن الله بينما ذهبت فرقة ثالثة: إلى أنه ثالث الآلهة، فجاء القرآن الكريم يفنّد مزاعمهم ويسفّه أحلامهم ويعرّفهم بأن عيسى هو ابن مريم خلقه الله بقوله: كن بلا أب وأنه عبد الله عزّ وجلّ من جملة البشر، وأنه بُعِث للدعوة إلى توحيد الله عزّ وجلّ وإفراده بالعبادة، وأن من قال غير ذلك كان كافراً.

قال الله تعالى: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧٠ ـ ١٧١].

وقال عزّ وجلّ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال عزّ علاه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال جلّ ثناؤه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ

أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٣]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨].

فهذا القرآن الكريم يخبر عن سيدنا عيسى أنه ابن مريم، وليس ابناً لله عزّ وجلّ بل ولد من مريم بكلمة الله «كن»، وفيه نهي عيسى بني إسرائيل عن الغلوّ في الدين، وأمره إياهم بالإيمان بالله ورسله، وأن لا يقولوا بأن الآلهة ثلاثة، بل الله إله واحد، فتنزّه وتقدّس أن يكون له ولد أو شريك معه، وقد أعلن عيسى في بني إسرائيل الدعوة إلى الله وحده، وأن من أشرك معه أحداً من خلقه فقد حرم الله عليه الجنّة ومثواه نار جهنم، كما أعلن فيهم بأن من قال: إنّ الله ثالث ثلاثة كان كافراً، فما من إله إلاّ إله واحد.

ويسجل القرآن الكريم على بني إسرائيل فضيحتهم يوم القيامة حيث ستجري محاورة بين الله تعالى وبين عيسى فيسأله عزّ وجلّ: أأنت أمرت بني إسرائيل أن يتخذوك وأمك إلهين من دوني، فيجيب المسيح الله عزّ وجلّ: تنزيهاً لك أن أقول عليك ما ليس لي بحق، فإن كنت قلته فأنت أعلم بذلك لأنك علاّم الغيوب، فأنت تعلم أني ما أمرتهم إلا بعبادتك وحدك لأنك ربّي وربّهم، وقد كنتُ شاهداً على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم، فلما قبضتَني إليك بالرفع إلى السماء كنتَ الحفيظ لأعمالهم، فإنْ تعذّبهم فأنت مالكهم وهم عبيدك تتصرف فيهم كيف شئت، وإنْ تغفر لهم ممن تاب وآمن منهم فإنك أنت الغالب على أمرك الحكيم في صنعك.

* * *

لقد ثالث ثلثة وما
منهم
قائل: إن الله
دون الله قل سبحانك
علمته تعلم ما في نفسي
لم إلا ما أمرتني به
فلما توفيتني كنت أنت
عبادك وإن تغفر لهم

أنه ابن مريم، وليس
بني إسرائيل عن
قولوا بأن الآلهة ثلاثة، بل
وقد أعلن عيسى
من خلقه فقد حرم
أن الله ثالث ثلاثة كان

منهم يوم القيامة
عز وجل: أأنت
عيسى المسيح
إن كنت قلته
قولتهم إلا بعد
عليهم حين كنت
رقيب لأعمالهم
، وإن تغفر

التنديد بالنصارى في ادعائهم ألوهية عيسى والتثليث وبيان أن الله تعالى واحد وأن عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته

جاء في القرآن الكريم الردّ على النصارى الذين افترقوا في شأن عيسى عليه السلام، فإنّ فِرَقاً منهم عظّموه وتغالوا فيه ورفعوه فوق قدره عندما رأوا أنه وُلد بدون أب، فبعض فرقهم قالوا فيه: إنه الله، وقالت فرقة ثانية: إنه ابن الله بينما ذهبت فرقة ثالثة: إلى أنه ثالث الآلهة، فجاء القرآن الكريم يفنّد مزاعمهم ويسفّه أحلامهم ويعرّفهم بأن عيسى هو ابن مريم خلقه الله بقوله: كن بلا أب وأنه عبد الله عزّ وجلّ من جملة البشر، وأنه بُعِث للدعوة إلى توحيد الله عزّ وجلّ وإفراده بالعبادة، وأن من قال غير ذلك كان كافراً.

قال الله تعالى: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧٠ ـ ١٧١].

وقال عزّ وجلّ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال عزّ علاه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال جلّ ثناؤه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ

أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٢ ـ ٧٣]، وقال عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٨].

فهذا القرآن الكريم يخبر عن سيدنا عيسى أنه ابن مريم، وليس ابناً لله عزّ وجلّ بل ولد من مريم بكلمة الله «كن»، وفيه نهي عيسى بني إسرائيل عن الغلوّ في الدين، وأمره إياهم بالإيمان بالله ورسله، وأن لا يقولوا بأن الآلهة ثلاثة، بل الله إله واحد، فتنزّه وتقدّس أن يكون له ولد أو شريك معه، وقد أعلن عيسى في بني إسرائيل الدعوة إلى الله وحده، وأن من أشرك معه أحداً من خلقه فقد حرم الله عليه الجنّة ومثواه نار جهنم، كما أعلن فيهم بأن من قال: إنّ الله ثالث ثلاثة كان كافراً، فما من إله إلاّ إله واحد.

ويسجل القرآن الكريم على بني إسرائيل فضيحتهم يوم القيامة حيث ستجري محاورة بين الله تعالى وبين عيسى فيسأله عزّ وجلّ: أأنت أمرت بني إسرائيل أن يتخذوك وأمك إلهين من دوني، فيجيب المسيح الله عزّ وجلّ: تنزيهاً لك أن أقول عليك ما ليس لي بحق، فإن كنت قلته فأنت أعلم بذلك لأنك علاّم الغيوب، فأنت تعلم أني ما أمرتهم إلا بعبادتك وحدك لأنك ربّي وربّهم، وقد كنتُ شاهداً على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم، فلما قبضتَني إليك بالرفع إلى السماء كنتَ الحفيظ لأعمالهم، فإنْ تعذّبهم فأنت مالكهم وهم عبيدك تتصرف فيهم كيف شئت، وإنْ تغفر لهم ممن تاب وآمن منهم فإنك أنت الغالب على أمرك الحكيم في صنعك.

* * *

نهاية أمر عيسى ورفعه والردّ على اليهود والنصارى في قتله وصلبه

منذ ولد عيسى واليهود الفجرة يطعنون فيه وينظرون إليه كولد بغي، وعندما أعلن فيهم رسالة الله تعالى والدعوة إلى توحيده وطاعته والإيمان بما جاء به من الإنجيل والشرع الجديد ناوأوه وحاكوا المؤامرات ضدّه، ولما فشلوا في التخلّص منه ورأوا الفقراء والضعفاء يستجيبون لدعوته ويَلْتَفُّون حولَه أخذوا يُحَرِّضون الرومان عليه ويوهمونهم أنَّ في دعوته زوالاً لملك قيصر وتقويضاً لسلطانه، فطلبه ملك ذلك الوقت الكافر، وأصدر الأمر بالقبض عليه والحكم بإعدامه صلباً، فلم يسلط عليه.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه، وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين، ثم قال: أيكم يُلْقَى عليه شَبَهِي فيُقْتَل مكاني، فيكون معي في درجتي، فقام شاب من أحدثهم سِنّاً، فقال له: اجلس ثم أعاد عليهم فقام الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال: أنت ذاك، فألقي عليه شَبَهُ عيسى ورُفع عيسى من رَوْزَنَةٍ في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه، قال: وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعِد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبيّة، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

رواه ابن جرير (٩٢/٢٨)، وابن أبي حاتم، والنسائي (٤٨٩/٦) كلهم في التفسير، قال ابن كثير في البداية، إسناده صحيح على شرط مسلم إلى ابن عباس قال: وهكذا ذكر غير واحد من السلف... والأقاويل في ذلك مختلفة، وكلها إسرائيليات، والقرآن الكريم نصّ على أن اليهود مكروا به

فمكر الله بهم، وأنهم أرادوا قتله فشبّه عليهم وحفظه الله منهم وكفهم عنه ورفعه إليه ولم يسلطوا على قتله ولا صلبه. وكل ما يزعمونه من القتل والصلب ليسوا بمتيقنين فيه، بل هم في شك منه، وقد ذكر الله عزّ وجلّ قصّة رفعه مع رد مزاعمهم وتفنيدها، فقال تعالى:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٦ ـ ١٥٨].

فأخبر تعالى هنا عن فضائح اليهود التي استحقوا بها اللعن والخزي والذلة والمسكنة وغضب الله عزّ وجلّ عليهم، فذكر منها ما رموا به مريم البتول من البهتان، وزعمهم قتل المسيح ابن مريم، فردّ عليهم بأنهم ما قتلوه أبداً وما صلبوه ولكنهم قتلوا وصلبوا من ألقي عليه شبهه، وأن الذين اختلفوا في شأنه لفي شكٍّ من قتله ولا علم لهم بقتله علم يقين، ولكنهم يتبعون الظن الذي تخيّلوه، فما قتلوه متيقّنين أنه هو، بل رفعه الله إليه بجسمه وروحه.

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٤ ـ ٥٥].

أخبر عزّ وجلّ أن اليهود الملاعن تآمروا على المسيح وأرادوا به شراً ومكروا به ومكر الله بهم فرفعه الله تعالى إليه وردّهم خائبين خاسرين، فها هو الله عزّ وجلّ يخبر بأنه نادى عيسى قائلاً له: إني متوفيك ورافعك إليّ ومخلّصك من شر الأشرار الذين أرادوا قتلك وجاعل من آمن بك واتّبعك فوق من كفر بك إلى يوم البعث، والفوقية هنا بالحجّة والبرهان.

هذا، ورفع عيسى حياً بجسمه وروحه مقطوع به؛ نصّ عليه القرآن وجاءت به الأحاديث المتواترة، حيث أخبر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله

وسلم بأنه سينزل آخر الزمان ليقتل الدجال وينفذ أحكام الله تعالى التي عطلت. ونزوله من أشراط الساعة.

{٥٧٦} ـ فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«والذي نفسي بيده ليُوشِكَنَّ أن يَنْزِلَ فيكم ابنُ مريم حَكَماً عَدْلاً فيَكْسِرَ الصليبَ ويقتلَ الخنزير ويضعَ الجزية ويفيض المال حتى لا يقبلَه أحدٌ وحتى تكون السجدةُ خيراً له من الدنيا وما فيها»**.

رواه البخاري في الأنبياء (٣٠٢/٧، ٣٠٣)، ومسلم في الإيمان (١٨٩/٢، ١٩٠) وغيرهما، ويأتي في الفتن وأشراط الساعة إن شاء الله تعالى مع أحاديث أخرى.

قوله: حَكَماً ـ بفتحتين ـ أي: حاكماً، وقوله: ويضع الجزية معناه: لا يقبلها، بل لا يكون في وقته إلا الإسلام، ولا يبقى على الأرض أيُّ دين ولا ملّة.

* * *

من فوائد قصة مريم وعيسى وعبرها

في هذه القصة فوائد غزيرة وعبر عزيزة نجملها في الآتي:

فمنها: مشروعية تمني الولد ونذره لعبادة الله تعالى، وهذا لا خلاف فيه عندنا.

ومنها: أن مريم عليها السلام من المصطفين الأخيار اختارها الله وفضّلها على سائر نساء الدنيا والآخرة، وهي نموذج فريد للنساء لا مثيل لها في نِشْأَتِها ولا في حياتها.

ومنها: وهي من خصائصها في النساء، أن الملائكة بشّرتها وخاطبتها مرتين: مرة بالاصطفاء، ومرة بالولد، يضاف إلى ذلك مجيء جبريل إليها مبشّراً لها بالحمل أولاً، ثم مجيئه ثانياً مطمئناً ومؤنساً ومثبتاً وموصياً لها.

ومنها: تخصيصها وولدها بالحفظ من مسّ الشيطان عند ولادتها.

ومنها: اختلفوا في نبوّتها، ذهب جماعة من العلماء إلى نبوّتها لأدلّة ذكروها تدلّ على ذلك، وهي قوية. وذهب آخرون إلى أنها كانت صديقة كما وصفها بذلك القرآن الكريم: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾.

ومنها: إثبات كرامات الأولياء، فإن ما حصل لمريم من مكالمة الملائكة والحمل بدون تلقيح، وما كان يأتيها من طعام... كل ذلك من الخوارق وآيات الله تعالى.

ومنها: في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: عفّت وحفظت فرجها من مسّ الرجال من الحلال والحرام، فلم يقربها ذكرٌ قط، ومن بدع التفاسير قول بعضهم: أحصنت فرجها أي: جيب درعها وأنها طاهرة الأثواب، وهذا تفسير باطل.

ومنها: في أمر جبريل عليه السلام مريم أن تأكل من الرطب وتشرب الماء عند نفاسها معجزة علمية، وهي ما ذكروا من ملاءمة ذلك للنفساء والحامل، وهذا لم يعرفه الناس إلا اليوم، وقد أشار إليه القرآن منذ قرون.

ومنها: أن عيسى عليه الصلاة والسلام هو آخر أنبياء بني إسرائيل وخاتمهم، وليس بينه وبين نبيّنا سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم نبيّ، كما صرح به الحديث النبويّ الشريف.

ومنها: أنه جاء بشرع جديد وكتاب مستقل متمّم لما جاءت به التوراة، ولذلك حاربه اليهود حتى رجال الدين منهم ورموه بالعظائم.

ومنها: كثرة معجزاته من مهده إلى رفعه وأنَّ له معجزات خاصة صريحة كنفخه في طير من تراب ثم يَحْيَى ويطير بإذن الله عزّ وجلّ وإبرائه العاهات التي لا دواء لها مادياً، فإن الأكمه الذي ولد بلا حاسة العين لا دواء له أصلاً معروفاً، وكذا علاج البرص لا يوجد، وإنما يوقف فقط، أما إزالته من الجسم فلا دواء له يعرفه الناس، وكذا إحياء الأموات من قبورهم

هي معجزة وآية باهرة، وكل ذلك كان بإذن الله عزّ وجلّ، لا قدرة له على شيء منها بذاته كغيره من سائر المخلوقات أيّاً كانوا.

ومنها: أن الله عزّ وجلّ أظهر هذه المعجزات على هذا الشكل على يد المسيح تحدّياً لليهود وغيرهم من أهل عصره الذين كانوا قد بلغوا الغاية في الطب، فأتاهم بذلك من جنس ما عندهم مما لا يطيقون الإتيان به، كما جاء موسى الأقباط بالعصا التي أبادت سحرهم وشعوذتهم ولم يستطيعوا مباراتها، وهكذا الشأن في نبيّنا سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم حيث بعث في العرب الفصحاء البلغاء فأتاهم بما لم يستطيعوا الإتيان بسورة مثله، فتحدّاهم عقوداً من الزمان بذلك، فعجزوا ورضوا بالذلّ والهوان والتقتيل والسبي...

ومنها: ما جاء في حديث عن عيسى: «آمنت بالله وكذبت عيني»، معناه: صدقت من حلف بالله تعالى وكذبت ما ظهر لي من ظاهر سرقته، فلعله أخذ شيئاً كان له فيه حقّ، أو أخذه بإذن صاحبه أو نحو ذلك من الاحتمالات، وهذا من ورع عيسى عليه السلام.

ومنها: ما حصل من نزول المائدة وقد وقع مثلها لنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم.

{٥٧٧} ـ فعن سمرة بن جندُب أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم أُتِيَ بقَصْعَةٍ من ثَرِيدٍ فوُضِعَتْ بين يَدَيّ القوم، فَتَعَاقَبُوها إلى الظهر من غُدْوَةٍ يقوم قومٌ ويجلسُ آخرون، فقال رجل لسمرة: أمَا كانت تُمَدُّ؟ فقال سمرة: من أيّ شيء تَعْجَبُ؟ ما كانت تُمَدُّ إلا هٰهنا، وأشار بيده إلى السماء.

رواه الدارمي (٥٧)، والترمذي (٣٣٩٤)، والحاكم (٢/٢١٨) وصححاه وهو كما قالا؛ فإمداد القصعة من السماء هو نزول البركة فيها حتى أشبعت ذلك الجمّ الغفير، وسيأتي في السيرة معجزة تكثير الطعام لنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في مواطن.

ومنها: ظاهر حديث عمار في نزول المائدة حيث أمروا أن لا يدَّخروا

ولا يخونوا، فخالفوا فمسخوا قردة وخنازير؛ أن المسخ وقع لهم مرتين: عند المائدة وعند تعدّيهم في السبت، وهو اصطيادهم الحيتان يومه بحيلة شيطانية، كما جاء مفصّلاً في سورة الأعراف.

ومنها: أن الإيمان بكون عيسى عبد الله ورسوله وكلمته... من موجبات الجنّة.

{٥٧٨} ـ فعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**من شهد أن لا إلـه إلاّ الله وحدَه لا شريك له وأن محمداً عبدُه ورسوله وأن عيسى عبدُ الله ورسولُه وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حقٌّ، والنار حقّ، أدخله الله الجنّة على ما كان من العمل**».

رواه أحمد (٥/٢١٣، ٣١٤)، والبخاري في الأنبياء (٧/٢٨٥)، ومسلم في الإيمان (١/٢٢٦، ٢٢٧).

هذا الحديث الشريف قد احتوى على مهمات الدين وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، فإنه جمع فيه ما أنكرته جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدها، حيث رد على النصارى في طعنهم في نبوّة عيسى عليه السلام، ورميهم والدته بالزنا، وعلى الفرق المنكرة رسالة سيدنا محمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، كما فيه ردّ على المعتزلة والخوارج القائلين بخلود العصاة في النار، وفيه إثبات المعاد والجنّة والنار، وأن من اعترف بما فيه دخل الجنّة قطعاً، ولو عمل ما عمل من الذنوب والآثام عدا الشرك.

ومنها: اختلف في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ على أقوال أصحها قول من قال: إنه من المقدم والمؤخر، ومعناه: إني رافعك إلى السماء ثم مميتك بعد استيفائك كامل أجلك. علماً بأن التوفي له أكثر من معنى، أما قول من قال بأنه توفي ومات، ثم رفع، هو قول باطل، وكذا قول من قال: المراد بالوفاة وفاة النوم هو ضعيف، ردَّه المحققون؛ فالمسيح عليه السلام مرفوع بجسمه وروحه وهو حيٌّ في السماء الثانية حيث وجده

النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ليلة الإسراء مع ابن خالته يحيىٰ عليه السلام.

ومنها: اختلفوا في سنّه حين رُفع، فقيل: ثلاثون سنة، وقيل غير ذلك. كما اختلفوا كم يعيش بعد نزوله، فقيل: أربعون سنة، وقيل: تسع سنين، وقيل غير ذلك. غير أنه جاء في سنن الترمذي أنه آخر حياته سيحج ويموت بالمدينة، ويدفن بجوار النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، وسيأتي لنا مزيد لهذا الموضوع في الفتن وأشراط الساعة إن شاء الله تعالى.

ومنها: اختلف المفسّرون لماذا سُمّي كلمة الله وروح الله، فقيل: سُمّي كلمة الله إشارة إلى أنه حجّة الله على عباده أبدعه من غير أب، وأنطقه في غير أوانه، وأحيى الموتى على يده، وقيل: سمي كلمة الله لأنه تعالى أوجده بقوله: «كن»، فلما كان بكلامه سمّي به كما يقال: سيف الله، وأسد الله، وقيل: لما قال في صغره: إني عبد الله، وكل هذه الأقاويل محتملة. وأما تسميته بروح منه، أي: كائن منه تعالى وموجود بقدرته وحكمته، فهو كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ أي: سخرها كائنة منه تعالى لا من غيره.

ومنها: انقسام اليهود في شأن عيسى فرقتين: فرقة رمته بالعظائم وكفرت به وحاربته، وهم الأكثرية من اليهود، وفرقة آمنت به وصدّقته، ثم افترقت هذه الفرقة أيضاً فرقتين: فرقة آمنت به وأطاعته في اعتدال وهم المؤمنون الصادقون الخلص من أتباعه وأنصاره، وفرقة غلت فيه ورفعته فوق منزلته البشرية، ثم هؤلاء تفرّقوا فيه منهم من زعم أنه ابن الله، ومنهم من ادّعى أن الله حلّ فيه فهو الله، ومنهم من قال: إنه ثالث الآلهة بزيادة أمّه عليهم لعائن الله.

وقد ردَّ الله عزّ وجلّ على هذه الفرق الكافرة بأبلغ رد كما تقدم، فكان هؤلاء واليهود سواء في الشرك والكفر، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ

يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠]، وكانوا جميعاً شرّ خلق الله كما قال عزّ وجلّ في سورة البيّنة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

ومنها: أن سيدنا عيسى عليه السلام يضرب المثل بزهده، فكان أزهد البرية في هذه الحياة الصاخبة، كشأن باقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لكن عيسى نقل عنه عجائب الغرائب في ذلك، وكتب الزهد والرقائق مليئة بكلامه وأقواله وحكاياته في ذلك، ولنكتف بما ذكرنا، والحمد لله، وسيأتي مزيد لذكره في الفتن وأشراط الساعة، حيث سيذكر هناك إن شاء الله تعالى.

وبهذا تمّ الكلام على كتاب الأنبياء، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات. وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وذرّيته وزوجاته وصحابته وأتباعه وحزبه إلى يوم الدين.

* * *

ذكر بعض أخبار بني إسرائيل وغيرهم ممن جاءوا بعد المسيح عليه السلام

{٥٧٩} ـ عن عِمرانَ بن حُصَيْن رضي الله تعالى عنه قال: «**كان رسولُ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُحَدِّثُنا عامَّةَ لَيلِهِ عن بَنِي إسرَائِيل**، وفي رواية: **حتَّى يُصبِحَ لا يَقُومُ إلاَّ إلى عُظْمِ صلاةٍ**».

رواه أحمد (٤/٤٤٤) بسند صحيح.

عُظْم ـ بضم العين وسكون الظاء ـ وعظم الشيء أكثره ومعظمه، كأنه أراد أنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا يقوم إلا لصلاة الفريضة.

والحديث يدلّ على جواز التحديث عن بني إسرائيل، وقد تقدم في العلم حديث ابن عمرو: «**حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»، قال الخطابي: ليس معناه إباحة الكذب في أخبار بني إسرائيل، ورفع الحرج عمّن نقل عنهم الكذب، ولكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على معنى البلاغ،

وإن لم يتحقّق صحةُ ذلك، وذلك لأنه أمر قد تعذّر في أخبارهم لبعد المسافة وطول المدّة ووقوع الفترة بين زماني النبوّة.

وحالتنا مع الإسرائيليات أن ما وافق شريعتنا كان مقبولاً، وما خالفها كان مرفوضاً، وما لم يخالف ولا يوافق كان مأذوناً فيه أخذاً وتحديثاً، ولا سيما ما يتعلق بالمواعظ والرقائق والعجائب، فإن تاريخ بني إسرائيل طويل، وكان فيهم عجائب الغرائب. وما سنذكره عنهم وعن غيرهم إنما نورد منه ما حدّثنا به نبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم مما صحّ سنده.

❊ ❊ ❊

رجل يغفر الله تعالى له لخوفه عند موته

{٥٨٠} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**كان رجلٌ يُسْرِفُ على نفسه، فلما حضرهُ الموت قال لبنيه: إذا أنا مُتُّ فأخرِقُوني ثم اطْحَنُوني ثم ذرُّوني في الريح، فوالله لئن قدَرَ الله عليَّ لَيُعَذِّبَنِي عذاباً ما عَذَّبَه أحداً، فلما مات فُعِلَ به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجْمَعِي ما فيك منه ففعلتْ، فإذا هو قائم فقال: ما حمَلَكَ على ما صَنَعْتَ؟ قال: يا ربّ خَشْيَتُكَ**»، وفي رواية: «**مخافتُكَ، فغفر له**»، وفي رواية: «**ثم اذروا نصفه في البرّ ونصفه في البحر**»، وفيه: «**فأمر الله البرَّ فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه**».

رواه البخاري في ذكر بني إسرائيل (٧/٣٣٢، ٣٣٣)، ومسلم (١٧/٧٠، ٧١، ٧٢) وغيرهما.

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري: «**أن رجلاً كان قبلكم رَغَسَهُ الله مالاً، فقال لبنيه لما حُضِر أيَّ أبٍ كنتُ لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإني لم أعمَل خيراً قطُّ فإذا متُّ فأَخْرِقُونِي ثم اسحَقُوني ثم ذَرُّوني في يوم عاصفٍ، ففعلوا فجمعه الله عزّ وجلّ فقال: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال:**

مخافَتُك فتلقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ»، رواه البخاري في بني إسرائيل وفي الرقاق وفي التوحيد، ومسلم في التوبة ونحوه عن حذيفة وعقبة بن عمرو. رواهما البخاري وغيره.

«كان رجل» كان إسرائيلياً يُسرف ـ بضم الياء ـ أي: يبالغ في الآثام ويتجاوز الحدّ في ارتكابها، وكانت جريمة هذا الرجل الغالبة عليه نبش القبور، وقوله: رغسه، في رواية: راشه... ومعناهما: أعطاه الله مالاً وبارك له فيه، في يوم عاصف أي: شديد الريح، ذرُّوني ـ بفتح الذال وتشديد الرَّاءِ المضمومة ـ أي: انثروني وفرّقوني، وقوله: لئن قدر الله عليّ ـ بفتح القاف والدال المخففة ـ أي: ضيق الله عليّ، وتحتمل أن تكون الدال مشدّداً أيضاً من القضاء والقدر، أي: لئن قضى الله عليّ العذاب وقدره، ويحتمل حمله على ظاهره وهو بعيد لأنه يؤدي إلى نفي قدرة الله تعالى وإنكار البعث، وذلك كفر والكافر لا يغفر الله له، وقيل: إنه قال ذلك غلطاً لدهشته وخوفه، والظاهر قول من قال: لئن قضى الله تعالى عليّ العذاب ليعذبني... الخ.

كان هذا الرجل قد جاوز الحد في المعاصي، وخاصة أنه كان قد أثرى، والمال يطغي صاحبه ويُنْسِيه ربَّه ومَآلَه لكنه سرعان أن فاق من سكرته فندم على حالته وما قضى في حياته وعمره من سيّئات وموبقات، فإنه لما شاهد بوادر الموت قد جاءت أراد أن يتخلّص من عذاب الله، وكان كما يبدو جاهلاً بشمول قدرة الله تعالى لكل شيء، فأمر أولاده أن يحرقوه وينثروا رماد جسمه في البرّ والبحر ظنّاً منه أن جمعه بعيد، لكن الله عزّ وجلّ سيجمع ذلك بقدرته العظيمة ويُكَوِّنه عبداً قائماً بين يديه، فيسأله عن سبب ما فعل فيخبره بأنه فعل ذلك خوفاً من عذابه، فيرحمه الله تعالى ويغفر له. وهذا الحديث على ما قيل، وقالوا في معناه يدلّ على أن من تاب عند موته وندم وتألّم على ما اقترف في غابر حياته؛ غفر الله تعالى له وسامحه على ما مضى من سيئاته، وبهذا جاءت شريعتنا كتاباً وسنّة وإجماعاً، فالحمد لله على إحسانه وشمول رحمته.

❊ ❊ ❊

الكفل المذنب والمرأة المضطرة

{٥٨١} ـ عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يُحَدِّثُ حديثاً لو لم أسمعْه إلا مرةً أو مرتين حتى عدّ سبع مراتٍ، ولكني سمعته أكثر من ذلك، سمعتُ رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«كان الكِفْلُ من بني إسرائيل لا يَتَوَرَّعُ من ذَنبٍ عَمِلَهُ فأتَتْهُ امرأةٌ فأعطاها سِتّين ديناراً على أن يَطَأها، فلما قعد مَقْعَدَ الرجلِ من امرأتِهِ أُرْعِدَتْ وبكَتْ، فقال: ما يُبْكِيكِ أكْرَهْتُكِ؟ قالت: لا، ولكنه عمَلٌ ما عَمِلتُه قطُّ وما حَمَلَني عليه إلا الحاجة، فقال: تَفعلينَ أنت هذا وما فَعَلْتِيهِ، اذْهَبِي فهي لكِ، وقال: لا والله لا أعْصِي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته فأصبح مكتوبٌ على بابه: إن الله قد غَفرَ لِلْكِفْلِ»**.

رواه أحمد رقم (٤٧٤٧)، والترمذي (٢٣١٦) في صفة القيامة بتهذيبي، وابن حبان (٢٤٥٣)، والحاكم (٢٥٤/٤) وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

الكِفْل ـ بكسر الكاف وسكون الفاء ـ هو اسم رجل إسرائيلي كان مسرفاً على نفسه، فتاب الله عليه وغفر له، وهو غير الكفل النبيّ المذكور مع الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾، وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾، ولا ندري لماذا سمّي هذا الرجل بالكفل، فإن هذه الكلمة تطلق على عدة معان.

وقوله: فأتته امرأة، في رواية ابن حبان: فهَوِيَ امرأةً أي: أحَبَّها فراودها عن نفسها... وقوله: أُرْعِدَتْ مبني للمجهول أي: اضطربت.

ومن فوائد هذا الحديث أن المرأة قد تكون أعف من الرجل وأفضل وأتقى لله تعالى منه، رغم أن النساء يغلب عليهن اتباع الهوى والشهوات وأنهنّ حبائل الشيطان...

ومنها بَرَكَةُ مخافةِ الله تعالى، فإن المرأة لما عفت وخافت الله عزّ جلّ

أكرمها الله تعالى بالحفاظ على كرامتها وحصولها على الستين ديناراً بدون أيّ مقابل، اللّهمّ إلا خوف الله عزّ وجلّ.

ومنها: غفران الذنوب كبيرها وصغيرها بالتوبة النصوح، ولا خلاف في هذا في شرعنا.

ومنها: أنه ينبغي للمسلم إذا أخرج ميزانية ليصرفها في معاصي الله تعالى أن يتصدق بها أو يمثلها على المحتاجين، وأنه ينبغي للتائب أن يتصدّق عند توبته بما تيسّر.

ومنها: جواز تمكين المرأة نفسها من الغير إذا اضطرّت ولم تجد ما تسدُّ به رمقها، وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه، فإن الضرورات تبيح المحظورات، فمن اضطر غير باغٍ ولا عاد فلا إثم عليه... فإن الله غفور رحيم، وقد ذكر علماؤنا شروطاً لذلك مذكورة في مواضعها، وربما يأتي ذلك في البرّ والآداب، ودعوى العواهر اللواتي يُتَاجِرْنَ ويكْتَسِبْنَ بفروجهن.

* * *

رجل يغفر الله له ويسامحه لإنظاره المُوسِر وتجاوزه عن المعسر

{٥٨٢} ـ عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«إن رجلاً كان فيمن كان قَبْلَكم أتاه الملكُ لِيَقْبِضَ روحَه، فقيل له: هل عمِلت من خير؟ قال: ما أعلم، قيل له: انظر، قال: ما أعلم شيئاً غير أنّي كنتُ أبايعُ الناس في الدنيا وأُجازِيهم فأنْظِرُ المُوسرَ وأَتَجَاوَزُ عن المُعْسِر، فأدخَله الله الجنّة»**.

رواه البخاري في بني إسرائيل (٣٠٥/٧) كما رواه هو ومسلم في البيوع، ورواه الشيخان عن أبي هريرة بلفظ: **«كان الرجل يداين الناس فكان يقول لفتاه أو لفتيانه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعلّ الله أن يتجاوز، قال: فلقي الله فتجاوز عنه»**.

وفي رواية لمسلم عن ابن مسعود: «**حُوسب رجلٌ ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيءٌ إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً**» الخ.

قوله: كنت أبايع الناس، يعني: كان تاجراً كما في رواية عند البخاري عن أبي هريرة، «يداين الناس» أي: يقرضهم إلى أجل، وأجازيهم أي: أقاضيهم، فأنظر الموسر أي: أمهل من كان ذا يسر في ماله وأُأخره، وأتجاوز عن المعسر أي: أسامحه وأضع عنه أو أحسن قضاءه.

كان هذا الإنسان غافلاً مقبلاً على الدنيا لا يعرج على خير، فلما توفي وحوسب عما قدَّمت يداه وجد نفسه فقيراً صفر اليدين من الأعمال الصالحة، غير أنه كان يعتاد في معاملته التسامح، فكان مسامحاً ويتعامل مع الناس المعاملة الحسنة، فرحمه الله عزّ وجلّ بذلك، وعامله بما كان يعامل به الناس وأدخله الجنة.

وقد جاء في هذا الخلق ومدحه والحضّ عليه والترغيب فيه أحاديث تقدم بعضها في أوائل البيوع، وسيأتي مزيد لها في البرّ والصلة والأدب.

❊ ❊ ❊

زانية يغفر الله لها لإحسانها إلى كلب

{٥٨٣} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كادَ يَقْتُلُه العَطَشُ إذا رأَتْهُ بَغِيٌّ مِن بغايا بني إسرائيل، فنَزَعَتْ مُوقَها فسَقَتْه فَغُفِرَ لها به**».

رواه البخاري في ذكر بني إسرائيل، ومسلم في الحيوان.

وفي رواية: «**بينما رجل بطريق فاشتدّ عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيه فشَرِب ثم خرج فإذا كلبٌ يلهث يأكلُ الثَّرَى من العَطَش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فنزل البئر فملأ خُفَّه ماء فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له**»، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: «**في كلِّ ذاتِ كبدٍ رطبةٍ أجْرٌ**».

رواه مالك في الجامع من الموطأ (١٧٩٣)، والبخاري في الطهارة (٢٨٩/١) وفي المظالم وفي الأدب، ومسلم في الحيوان (٢٤٢/١٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٥٠).

يطيف ـ بضمّ أوله ـ أي: يدور حوله، ركية ـ بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد الياء المفتوحة ـ هي البئر كما في النهاية، بغي ـ بفتح الباء وكسر الغين ـ هي الزانية العاهرة، مُوقَها ـ بضم الميم وفتح القاف ـ هو الخفّ، وقيل: ما يلبس فوقه.

يلهث، اللَّهث ـ بالفتح ـ هو ارتفاع النفس من الإعياء، ولهث الكلب أخرج لسانه من العطش، الثرى ـ بفتحتين ـ هي الأرض التي فيها ندى وبلل من الماء، فشكر الله له أي: أثنى عليه وقبل عمله أو جازاه بفعله، وفي رواية عند ابن حبان: «فغفر له فأدْخَله الجنّة»، في كل ذات كبد رطبة أي: في كل حيوان له كبد رطبة أي: حيّة، لأنه إذا مات يبست كبده، وهذا الحديث يحتمل أن يكون لقصة واحدة وقع فيها تصرف من بعض الرواة، ويحتمل تعددها بأن وقعت للبغي والرجل معاً.

وعلى أيٍّ، ففيه مشروعية الإحسان إلى الحيوان بالإطعام والسقي ونحو ذلك، وأن في ذلك أجراً لفاعله، وأنه من موجبات غفران الذنوب الكبار، فإن الزنا والإصرار عليه من الفواحش العظام في جميع الملل، ومع ذلك غفر الله لتلك البغي برحمتها الكلب وسقيها إياه.

غير أن هذا الإحسان إلى الحيوان مقيّد في شريعتنا بالمحترم منها والمأذون في اتّخاذه، أمّا ما سوى ذلك فلا يجوز إطعامه ولا سقيه كالفواسق الخمس مثلاً والخنزير ونحو ذلك.

❊ ❊ ❊

رجل قتل نفسه فحرم الله عليه الجنّة

{٥٨٤} ـ عن جندب بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كان فِيمَن كان قبلكم رجل**

جُرِحَ فجَزِعَ فأخذ سكيناً فحَزَّ بها يده، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حتَّى مات، قال الله عزّ وجلّ: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حرَّمْتُ عليه الجنّة».

رواه البخاري في بني إسرائيل (٧/٣١٠، ٣١١) وفي الجنائز، ومسلم في الإيمان (٢/١٢٤، ١٢٥).

جُرِح - بضم الجيم - وفي رواية: جراح، وفي أخرى: قرحة، وفي ثالثة له: جراح، ويجمع بين ذلك بأنه جرح ثم صار قرحة وخراجاً، فجزع أي: حصل له هلع وعدم الصبر، فحزّ بالحاء أي: قطع بها يده، وفي رواية لمسلم: فلما آذته انتزع سهماً من كنانته فنكاها أي: خرقها، فما رقأ الدم: لم ينقطع، بادرني أي: سارعني إلى قبض روحه.

إن قتل النفس محرم في جميع الأديان سواء كانت نفس الإنسان أو نفس غيره، وقد جاء في القرآن والسنّة من القوارع والزواجر في ذلك ما هو معروف، وقد تقدم ذلك في الجنايات، وظاهر هذا الحديث أن قاتل نفسه لا يدخل الجنّة، وفي شرعنا لا يمنع من دخول الجنّة إلا الكفرُ والشِّرْكُ، وكل ما جاء يخالف ذلك فمؤوّل، وانظر ما سبق في الجنايات وما يأتي في الأدب والزهد.

* * *

رجل يسامحه الله وقد قتل مائة نفس

{٥٨٥} - عن أبي سعد الخدريّ رضي الله تعالى عنه أن نبيّ الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«كان فيمن كان قبلكُم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدلَّ على راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة نفس، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انْطَلِق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أُناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا**

ترجع إلى أرضِك، فإنها أرضُ سوء، فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريق آتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيَّتِهما كان أدْنَى فهو له، فقاسُوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

رواه البخاري في بني إسرائيل (٧/٣٢٤، ٣٢٥)، ومسلم في التوبة (١٧/٨٢، ٨٤).

ومن يحول، أي: من يمنع. حتى إذا نصف أي: بلغ نصف الطريق، فجعلوه بينهم أي: جعلوه حاكماً يفصل فيما بينهم، قيسوا أي: قدّروا، أدنى أي: أقرب، رغم أن قتل النفس من كبار الذنوب التي تلي الشرك في الجرم فهو غير مانع من قبول توبة مرتكبها إذا أناب ورجع إلى الله بصدق وإخلاص، ولا أدلّ على ذلك من هذا الحديث الذي يحدّثنا بأن هذا الرجل قتل مائة نفس فتاب الله تعالى عليه حينما علم صحة قصد وصلاح سريرته، وجمهور أهل العلم والأئمّة على ذلك، وليس قاتل النفس بأكبر وأعظم جرماً من الكافر... وقد قال الله تعالى عن الكفار مخاطباً نبيّه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، ويأتي لهذا مزيد في الزهد والرقاق، ويؤخذ من الحديث فضل العالم فإن الرجل السفّاك ما هداه إلى التوبة إلا إرشاد العالم، كما يؤخذ منه هجران مواقع المعاصي وأهلها وصحبة الصالحين وأهل النسك، وفيه أن السعي في سكنى بلاد الخير مطلوب لما في ذلك من التعاون على الخير والأمن على النفس من الوقوع في الزّلل والآثام، فعلى المسلم المعاصر المقيم في بلاد الكفر أو ديار الإسلام التي عمّتها الجاهلية واختلّت فيها نظم الإسلام أن يسعى في الهجرة إلى حيث يوجد أهل الخير والدين ولو في الجملة، فإن الفتن اليوم قد عمّت العالم الكافر والمسلم نسأل الله اللطف.

* * *

العابد والعاصي المتآخيان

{٥٨٦} - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**كان رجلان من بني إسرائيل مُتَآخِيَيْن، وكان أحدُهما مذنباً والآخر مجتهداً في العبادة، وكان لا يزال المُجتهد يرى الآخَرَ على الذنب، فيقول: أقْصِرْ، فوجده يوماً على ذنب فقال له: أقْصِرْ، فقال: خَلِّني وربّي، أَبُعِثْتَ عليَّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الجنّة، فقبض روحهما فاجتمعا عند ربّ العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنتَ بي عالماً أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنّة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠١) بسند صحيح.

أقصِر أي: كفّ وأمسك، خلِّني أي: اتركني مع ربّي، رقيباً أي: حارساً عليَّ.

في الحديث خطورة إعجاب المرء بصالح أعماله وعبادته واحتقاره غيره من المذنبين أو المقصّرين، وأن ذلك قد يؤدّي إلى الخسارة الأبديّة كما فيه ذمّ وصف الآخرين بدخولهم النار... كما هو دأب الكثيرين اليوم ممن يحكمون على الناس بالكفر والشقاء والنظر إلى غيرهم بعين الازدراء، ولو كانوا أتقى لله تعالى منهم.

فالواجب على المؤمن الذي يخاف الله أن ينصح غيره من المقصرين ثم يفوض أمره إلى مولاه، ولا يحكم عليه بشيء، أو يتأفّف منه ويحتقره ويتعاظم عليه معجباً بنفسه، فإن في ذلك هلاكه المحقّق كما وقع لهذا العابد مع صاحبه المذنب.

وفي الحديث دليل على أنه لا يقطع لأحد بالجنّة أو النار، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء، بل أمر العباد إلى الله إن شاء غفر وإن شاء عذّب.

نعم، يرجى للطائع دخول الجنّة برحمة الله تعالى كما يخاف ويخشى

على المذنب المصرّ من دخول النار بدون جزم وقطع بذلك، والله الموفق الهادي.

* * *

الأمانة وحسن المعاملة والتخلق بالورع

{٥٨٧} - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**اشترى رجلٌ من رجل عَقَاراً له، فوجد الرجلُ الذي اشترى العقار في عقاره جَرَّةً فيها ذهبٌ، فقال الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مِنّي إنما اشتريتُ منك الأرض، ولم أبتع الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولدٌ؟ قال أحدهما: لي غلامٌ، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا على أنفُسِهما منه وتصدقا**».

رواه البخاري في نزول عيسى من الأنبياء (٣٢٧/٧)، ومسلم في الأقضية (١٩/١٢، ٢١).

العقار - بالفتح - الضيعة، والأرض والنخل. الجرة - بفتح الجيم - إناء من حديد أو خزف. ولم أبتع أي: لم أشتر.

في الحديث فضيلة هذين الرجلين وأمانتهما وصدقهما وأنهما بلغا النهاية في الورع والإيثار، وهما نموذج رائع في الورع وترك الشبهات.

وهذه القصة تدلّ على أن بني إسرائيل كان فيهم صالحون أتقياء أوفياء، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾، وفيه غير ذلك من الثناء على سابقيهم ولاحقيهم...

* * *

دخلت امرأة النار في هرة

{٥٨٨} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**دخلتْ امرأة النار في هِرّة ربَطَتْها فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خَشاش الأرض حتى ماتت هزلاً**».

رواه البخاري في بدء الخلق وفي الرقاق، ومسلم في البرّ والصلة (١٦/١٧٣).

وعن ابن عمر نحوه رواه البخاري في بني إسرائيل وفي بدء الخلق ومسلم في البرّ (١٦/١٧٢): دخلت امرأة كانت حِمْيَرِيَّة وكانت طائفة من حمير تَهَوَّدُوا فنُسِبُوا إلى بني إسرائيل، وقد جاء في صفة الصلاة من صحيح البخاري عن أسماء، وفي الكسوف من صحيح مسلم عن جابر في خطبة الكسوف عنه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «... **وعُرِضَتْ عليَّ النارُ فرأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تعذّب في هرة**».

الهرّة أنثى السنور والقطط، والذكر هِرٌّ، وقوله في هرة أي: لأجلها وسببها، ربطتها أي: حبستها، كما في البخاري وفي مسلم: سجنتها، وفي أخرى له: وثقتها، وفي رواية: من جراء ـ بفتح الجيم والراء المشدّدة ـ أي: من أجل، خشاش الأرض ـ بفتح الخاء على الأشهر ـ واحدتها خشاشة والمراد بها هوام الأرض وحشراتها، هزلاً أي: نحيلة ضعيفة، وفي رواية للبخاري: ماتت جوعاً.

في الحديث تحريم الاعتداء والظلم ولو للوحوش والحيوانات، إلا ما كان بقصد اصطياده للأكل والانتفاع به أو كان مأذوناً في قتله، وما عدا ذلك فلا يجوز قتله ولا ضربه ولا حبسه بحال، لأنه ظلم واعتداء على كرامته وحريته.

فما هو موجود اليوم من حبس أنواع الحيوانات في الحدائق محرّم شرعاً، لأن في ذلك اعتداء عليها ومنعها من حريتها، وفيها ما يجب قتله، ولا يجوز إطعامه ولا تربيته كالسباع مثلاً والنمار والأفاعي والخنازير

ونحوهم. وفي الحديث تعظيم الذنب وعدم احتقاره لأنه مَوْقِعُ سخطِ الله تعالى، فهذا عمل بسيط في نظر هذه المرأة كان سبباً في دخولها النار مع أنه ذنب عظيم؛ لأن فيه ظلماً لتلك الهرّة واعتداء عليها بالحبس بدون إطعام حتى ماتت، وهي جريمة لا يُستهان بها. فليتّعظ بهذه القصة من يستهين بالاعتداء على الغير أيّاً كان، وفي الحديث فوائد تراجع في كتابنا: «عجائب الأقدمين» كباقيها.

* * *

الملهمون والمحدّثون

{٥٨٩} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**قد كان يكون في الأُمم قبلكم مُحَدَّثُون، فإن يك في أُمّتي منهم أحدٌ فإن عمر بن الخطاب منهم**».

رواه مسلم (١٥/١٦٦)، والترمذي (٣٤٥٩) كلاهما في الفضائل.

ورواه البخاري في المناقب (٨/٤٩، ٥٠) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بنحوه، وذكره معلّقاً بلفظ: «**لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكَلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أُمّتي منهم أحد فعمر**».

محدّثون ـ بفتح الدال المهملة المشدّدة ـ جمع محدث، قال مسلم في صحيحه: قال ابن وهب: تفسير محدثون ملهمون، وقال الترمذي: قال ابن عيينة: محدثون أي: مفهمون. وقال الحافظ في الفتح: المحدّث ـ بالفتح ـ هو الرجل الصادق الظن، وهو من أُلقي في رُوعه شيء من قبل الملإ الأعلى، فيكون كالذي حدّثه غيره.

فالمحدثون هم أولياء الله تعالى الذين تكلّمهم الملائكة قبلاً، أو تلقي في قلوبهم ما لا يعلمه غيرهم من المعارف والأخبار.

وفي الحديث بيان أن الأقدمين كان فيهم رجال يكاشفون من قبل الله تعالى بأُمور غيبية، وأن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه كان منهم، وقد

تواتر هذا التحديث في هذه الأُمّة من رجال ونساء لا يحصون كثرة، وعدّ ذلك من أنواع الكرامات.

ويعجبني هنا كلام لأبي العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى في هذا الموضوع، فقد قال في كتابه «مجموعة الرسائل والمسائل» في قاعدة من المعجزات والكرامات ما نصّه: فما كان من الخوارق من باب العلم فتارة بأن يَسمعَ العبدُ ما لا يَسمعُه غيره، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظةً ومناماً، وتارة بأن يعلم ما لا يعلمه غيره وحياً وإلهاماً، أو إنزال علم ضروري، أو فراسة صادقة ويسمّى كشفاً ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات، فالسماع مخاطبات، والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفات، ويسمى ذلك كلّه كشفاً أو مكاشفة، أي: كشف له عنه...

وقال أيضاً: وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم، فمثل قول عمر رضي الله تعالى عنه في قصة سارية، وإخبار أبي بكر رضي الله تعالى عنه بأن ببطن زوجته أنثى، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً، وقصة صاحب موسى عليهما السلام في علمه بحال الغلام...

وقال أيضاً: وهو يتكلم على كلمات الله: وأما القسم الثاني: فمثل من يعلم بما جاء به الرسول صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خبراً وأمراً، ويعمل به ويأمر به الناس، ويعلم بوقت نزول المطر، وتغيُّر السعر، وشفاء المريض، وقدوم الغائب، ولقاء العدوّ...

ثم قال: وأما الثالث: فمن يجتمع له الأمران بأن يؤتى من الكشف والتأثير الكوني ما يؤيّد به الكشف، والتأثير الشرعي الخ.

وإنما آثرت كلام هذا الحافظ على الخصوص، لأن أعداء الصوفية ومنكري الكرامات منهم بإطلاق يعتمدون عليه فيما يطيب لهم ويتركون كلامه فيما يخالف أهواءهم، وها هو ذا يصرح بالكشف والاطّلاع على الغيوب ووقوع التصريف والتأثير الكوني، ومن الجهل الفادح والإغراق في

اتّباع الهوى ولو بمخالفة الحقّ والنصوص الشرعية أن نرى بعض محدثي عصرنا الذين يَتَشَدقُون بالسَّلَفية ينكر الكشف صراحة، والله الموفق الهادي.

* * *

أصحاب الغار الذين انطبق عليهم بصخرة

{٥٩٠} - عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: **«انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللّهمّ كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغْبُقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرُحْ عليهما حتى ناما فحلبتُ لهما غَبُوقَهما فوجدتهما نائمين، فكرهتُ أن أغبق قبلها أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبيان يَتَضَاغَوْن عند قدمي، فاستيقظا فشربا غَبُوقهما، اللّهمّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منها»**. قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«قال آخر: اللّهمّ كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إليَّ فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تُخَلّي بيني وبين نفسها، ففعلتْ حتى إذا قدَرتُ عليها قالت: لا يَحِلُّ لك أن تَفُضَّ الخاتم إلا بحقّه، فتحرَّجْتُ من الوقوع عليها، فانصرفتُ عنها وهي أحبُّ الناس إليَّ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتُها. اللّهمّ إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها»**، قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: **«وقال الثالث: اللّهمّ إني استأجرتُ أُجراء وأعطيتهم أجرَهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثَمَّرتُ أجرَه حتى كثرتْ منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال لي: يا عبدالله أدِّ إليَّ أجري،**

فقلت: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبدالله لا تستهزىء بي، فقلت: إني لا أستهزىء بك، فأخذه كله فساقه فلم يترك منه شيئاً. اللّهمّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاءَ وجهك فافرج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».

رواه البخاري في بني إسرائيل (٣١٧/٧، ٣٢٠) وفي البيوع وفي المزارعة، ومسلم في الرقاق (٥٥/١٧، ٥٨).

وفي الباب عن أنس رواه الطبراني في الدعاء بسند صحيح، وعن أبي هريرة رواه ابن حبان بسند حسن، وعن النعمان بن بشير رواه أحمد والبزار والطبراني من أوجه حسان، وعن عليّ عند البزار، وعن عقبة بن عامر رواه الطبراني في الدعاء، وعن عبدالله بن عمرو وابن أبي أوفى عند الطبراني، وهذه الأربعة أسانيدها ضعيفة. أفاده الحافظ في الفتح.

«النفر» ـ بفتحتين ـ عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة، «الغار» ثقب في الجبل شبه مغارة، فإذا اتّسع قيل له كهف، «انحدرت» أي: هبطت، «لا أغبق» بضم الباء قبلها غين معجمة أي: لا أشرب، والغبوق ـ بفتح الغين المعجمة ـ ما يشرب بالعشي، «يتضاغون» أي: يصيحون من الجوع، «فنأى بي» أي: بعد، «ألمّت» أي: نزلت، «السنة» العام المجدب الذي لم تنبت فيه الأرض شيئاً، «لا تفض الخاتم» أي: لا تكسر، والخاتم كناية عن عذريتها، فكنت عن الإفضاء إليها بالكسر وعن الفرج بالخاتم.

في هذا الحديث فوائد: ففيه فضل الإخلاص والصدق في النيّة والقول والعمل... وفيه مجازاة الله عبده على أعماله الصالحة في الدنيا، وفي ذلك أدلّة كثيرة تأتي في موضعها. وفيه فضل البرور بالوالدين والإحسان إليهما وخدمتهما وتقديمهما على الأهل والأولاد، وفيه فضل التعفّف عن الزّنا والانكفاف عن الحرام مع التمكّن منه، وأن ترك المعصية يمحو مقدمات طلبها، وأن التوبة تجبُّ ما قبلها.

وفيه فضل الأمانة والمحافظة عليها وتثميرها لصاحبها حتى تؤدى له، وفيه إثبات الكرامات باستجابة الدعاء، ولا خلاف في ذلك حتى ممن

ينكرها، وفيه الالتجاء إلى الله تعالى وحده عند نزول الشدائد وغيرها.

وفيه مشروعية التوسّل بالأعمال الصالحة التي يرجو صاحبها إخلاصه فيها، ويغلب على ظنّه قبولها، ليكون ذلك أنجع في الاستجابة وكشف الكربات ودفع الطوارىء، واختلفوا من كان أفضل هؤلاء الثلاثة مع فضلهم جميعاً، والصحيح أن أفضلهم صاحب المرأة لأمور: أولاً: كان في قلبه خشية الله، ثانياً: عفّته عن الزّنا مع القدرة عليه وحبّه الشديد لذلك. ثالثاً: إعطاؤه ذلك الذهب المرأة صدقة أو هدية لها بلا مقابل. رابعاً: في تصرفه ذلك صلة الرحم لأنها بنت عمّه. خامساً: دفع لها ذلك الذهب وهي مضطرة في سنة قحط، وبذلك كان أفضلهم، والعلم عند الله تعالى.

* * *

جريج الراهب وقصته مع المومسة، والمتكلمون في المهد

{٥٩١} ـ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: **«لم يتكلّم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابنُ مريم، وصاحبُ جُريج، وكان جريج رجلاً عابداً فاتّخذ صومعةً فكان فيها فأتته أُمُّهُ وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا ربّ أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا ربّ أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللّهمّ لا تُمِتْه حتى ينظر إلى وجوه المُومِسات، فتذاكر بنو إسرائيل جُرَيجاً وعبادتَه، وكانت امرأةٌ بغي يُتَمَثَّلُ بحسنها، فقالت: إن شئتم لأَفْتِنَنَّه لكم، قال: فتعرضتْ له فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدَّموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيتَ بهذه البغي فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال:**

دعوني حتى أصلي، فصلّى، فلما انصرف أتى الصبي فطعنه في بطنه، وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي، قال: فأقبلوا على جريج يقبّلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا، وبينما صبي يرضع من أمه فمرّ رجل راكب على دابة فارهَةٍ وشارَةٍ حسنة، فقالت أُمه: اللّهمّ اجعل ابني مثلَ هذا، فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه، فقال: اللّهمّ لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع»، قال: فكأني أنظر إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فمه فجعل يمصها.

قالوا: «**ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمّه: اللّهمّ لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها، فقال: اللّهمّ اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث... فقالت: حَلْقَى.**».

مرَّ رجل حسن الهيئة فقلت: اللّهمّ اجعل ابني مثله، فقلت: اللّهمّ لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقتِ، فقلت: اللّهمّ لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ: اللّهمّ اجعلني مثلها، قال: إن ذلك الرجل كان جباراً فقلتُ: اللّهمّ لا تجعلني مثله، وأن هذه يقولون لها: زنيتِ ولم تزن، وسرقتِ ولم تسرق، فقلت: اللّهمّ اجعلني مثلها».

رواه البخاري أواخر الصلاة وفي المظالم وفي الأنبياء (٧/٢٨٧، ٢٩٢)، ومسلم في البرّ (١٦/١٠٥، ١٠٨).

المهد مصدر سمّي به ما يمهد للصبي من مضجعه، قوله: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» هذا الحصر لا مفهوم له، فقد تكلّم في المهد نحو ستة جاءت بهم صحاح السنّة، وهناك آخرون يبلغون العشرة جاءت بهم أحاديث ضعيفة.

«جريج» - بجيمين مصغر - وهو من مشاهير أعلام ورهبان بني إسرائيل المخلصين كان ولا يزال يُضرَبُ بعبادته المثل. «يا رب أمي وصلاتي» أي: اجتمع عليّ إجابة أمي وإتمام صلاتي، فوفّقني أفضلهما. «المومسات» أي:

البغايا الزواني المجاهرات بذلك، وهو جمع مومسة. «يتمثل بحسنها» أي: يضرب المثل بجمالها لانفرادها بذلك. «فتعرضت له» أي: عرضت نفسها عليه ليواقعها. «ما شأنكم» أي: ما حالكم معي. «دابة فارهة» أي: قوية نشيطة. «وشارة» أي: هيئة حسنة جميلة. «فهناك تراجعا الحديث»، أي: أقبلت الأُمّ على الرضيع تحدّثه وتراجعه في الحادث الحاصل. «حلقى» أي: أصابها الله برجع في حلقها.

وهذا حديث عظيم الشأن فيه آيات وعِبَر وعِظات وفوائد:

فمنها: عظم برّ الوالدين وعلى الأخص الأمّ منهما، وأن دعاءها على ولدها مجاب، وأنه إذا تعارضت الأُمور قدّم أهمها، وكان الأجدر بجريج تقديم إجابة أمّه على صلاته التي كانت تطوّعاً، ولكنه لم يكن فقيهاً كما جاء في حديث متكلم فيه: «**لو كان جريج فقيهاً لأجاب أمه**».

ومنها: أن الله عزّ وجلّ قد يجعل لأوليائه مخارج عند ابتلائهم كما حصل لجريج مع الزانية وقومها، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وقد يجري عليهم الشدائد في بعض الأحيان زيادة في رفع درجاتهم أو تربية لهم أو تهذيباً لما عسى أن يصدر منهم.

ومنها: استحباب الوضوء للصلاة عند الدعاء بالمهمات.

ومنها: أن الوضوء كان معروفاً ومشروعاً عند الأقدمين، وقد جاء في رواية لهذا الحديث عند البخاري «فتوضّأ وصلى»، ولم يصب من زعم بأن الوضوء مختصّ بهذه الأُمّة، فإن المختصّ بها: الغرة والتحجيل والتيمّم.

ومنها: أن صاحب الصدق مع الله تعالى لا تضرّه النوائب والفتن وتقلّبات الزمان.

ومنها: قوة يقين جريج وصحة رجائه في الله عزّ وجلّ، لأنه استنطق المولود، مع كون العادة أنه لا ينطق.

ومنها: الحذر من فتنة النساء، وهي من الفتن العظيمة التي لا ينجو منها إلا

من حصَّنه الله تعالى بالتقوى والحفظ منهنّ، وانظر كتابي «المرأة المتبرجة».

ومنها: إثبات الكرامات للأولياء وهو مذهب أهل السنّة خلافاً لأهل البدع من المعتزلة وغيرهم، والصحيح كما قال النووي وغيره أن الكرامات قد تكون بخوارق العادات على جميع أنواعها، لا كما قال بعضهم بأنها تختصّ بمثل إجابة دعاء ونحوه؛ فإن ذلك إنكار للمحسوسات، فالصواب جريانها بقلب الأعيان وإحضار الشيء من العدم ونحو ذلك. وقد تكلّمت على هذا المعنى في كتاب «المطرب بمشاهير أولياء المغرب».

وفي الحديث بيان من تكلم في المهد من الصبيان، وذلك من الآيات العظام والخوارق الكبار، فسيّدنا عيسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام جاء بتكلمه في المهد القرآن الكريم كما تقدم في ترجمته قريباً، وأمّا من ذكر معه هنا فصبي جريج، والصبي الآخر الذي تكلّم مع والدته، وباقي الستة الذين أشرنا إليهم هم شاهد يوسف وابن ماشطة فرعون كما تقدم، والصبي الآتي في قصة الراهب والغلام.

وفي الحديث ذمّ الكبر والإعجاب بالنفس وذم الجبارين والظالمين والتشبّه بهم والتزيّي بزيّهم، وأن الواجب على المؤمن الملتزم أن يبتعد عنهم، وأن لا يعبأ بما هم فيه من تَرَفٍ ورفاهية وسلطة وجاه ورئاسة.

وفيه دليل على أن المظلوم له فضل كبير ومزية عند الله تعالى، ولولا ذلك لما حسن أن يسأل الرضيع أن يكون مثل تلك الجارية المظلومة. والحمد لله على إحسانه وإنعامه وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وزوجه وأصحابه.

* * *

قصة الساحر والراهب والغلام

{٥٩٢} ـ عن صُهيب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**كان مَلِكٌ فيمن كان قبلكم وكان له ساحر، فلما كبِرَ قال للملِك: إني كبِرْتُ، فابعث إليَّ غلاماً أُعلِّمه السحر، فبعث**

إليه غلاماً يعلِّمه، فكان في طريقه إذا سلك راهبٌ فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبَه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكى ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشِيتَ الساحر فقل: حَبَسَني أهلِي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحرُ، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابّة عظيمة قد حبَسَتْ الناس، فقال: اليوم أعلم الساحرُ أفضلُ أم الراهبُ أفضلُ، فأخذَ حجراً فقال: اللّهمّ إن كان أمرُ الراهب أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتُل هذه الدابّة حتى يَمْضِيَ الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي: بُنَيَّ أنت اليوم أفضلُ مني قد بلغ من أمرك ما أرى وأنك سَتُبْتَلى فإن ابْتُلِيت فلا تدلّ عليَّ».

«وكان الغلامُ يُبْرِىءُ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع به جليسٌ للملِك كان قد عَمِي فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هناك أجمعُ إن أنت شفيتَني، فقال: إني لا أشْفِي أحداً إنما يَشْفِي الله، فإن أنت آمنتَ بالله دعوتُ الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله تعالى، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له: من ردّ عليك بصرَك؟ قال: ربّي، قال: ولك ربٌّ غيري؟ قال: ربّي وربُّك الله فأخذه فلم يزل يُعذّبه حتى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملِك: أي: بني قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذّبه حتى دلَّ على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار فوُضِع المنشار على مفرِق رأسه فشقَّه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذِرْوَتَه فإن رجع عن دينه وإلا فاطْرَحُوه فذهبوا به فصعِدُوا به الجبل فقال: اللّهمّ اكْفِينهمْ بما شِئت، فرجَفَ بهم الجبلُ فسقَطُوا، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابُك؟ قال: كفانِيهم الله، فدَفَعَه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحْمِلُوهُ في قُرْقُور، فتوسَّطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذِفُوه، فذهبوا به، فقال: اللّهمّ اكفنيهم بما شئتَ،

فانكفأت بهم السفينةُ فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله تعالى، فقال للملك: إنك لستَ بقاتِلي حتى تفعلَ ما آمُرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيدٍ واحد وتُصَلِّبُني على جِذعٍ ثم خذ سهماً من كِنانَتي ثم ضع السهم في كَبِدِ القوس، ثم قل: باسم الله ربِّ الغلام ثم ارْمِني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتَني، فجمع الناس في صعيدٍ واحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: باسم الله ربِّ الغلام ثم رماه، فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه موضع السهم فمات. فقال الناس: آمنّا بربِّ الغلام، آمنّا بربِّ الغلام، آمنا بربِّ الغلام، فأُتِي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذَرُ؟ قد والله نزل بك حَذَرُك قد آمن الناس فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخُدَّتْ وأُضرِمَ النّيرانُ، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقْحِمُوه فيها، أو قيل له: اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعَسَتْ أن تقَعَ فيه، فقال لها الغلام: يا أُمَّهْ اصْبِري فإنكِ على الحق».

رواه أحمد (١٦/٦، ١٨)، ومسلم آخر الصحيح (١٣٠/١٨، ١٣٣). والترمذي (٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٥١/٦)، زاد الترمذي: فأما الغلام فإنه دفن، قال: فيذكر أنه أخرج في زمن عمر رضي الله تعالى عنه وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل.

«ستبتلى» أي: ستمتحن بالعذاب والبلاء، «الأكمه» الذي خلق أعمى، «الأبرص» من فيه داء البرص وهو داء جلدي يسري في بشرة الإنسان وهو من الأدواء المعضلة كسابقه، «الأدْواء» جمع داء: الأمراض، «مفرق رأسه» أي: وسطه، «ذروته» ـ بكسر الذال وضمّها ـ أعلاه، «فرجف بهم الجبل» أي: اضطرب وتحرّك حركة شديدة، «قرقور» بضم القافين هو الزورق والسفينة الصغيرة، «الأُخدود» ـ بضم الهمزة ـ شق مستطيل في الأرض، «أضرم النيران» أي: أوقدها، «اقتحم» أي: أدخل، «فتقاعست» أي: تأخرت.

كانت هذه المحنة بعد المسيح عليه السلام بِبِلادِ نَجْرانَ، وكثيراً ما يبتلى المؤمنون إذا تغرب الدين وقلّ أهله وكثر الطغيان وعمّ الظلم والفساد بالمجتمعات، وأصبح أهل الحق مضطهدين، وقد قصَّ علينا القرآن من هذا

النوع كثيراً، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ الآية، وقال عزّ وجلّ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية، وقال جلّ علاه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ الآية. وإلى ما وقع في هذا الحديث أشار القرآن الكريم في سورة البروج: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [البروج: ٤ ـ ٩] الآية.

ولا يخفى ما نزل بنبيّنا صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه من البلاء وما قاسوه في مرحلة مكة، كما يأتي ذلك مبسوطاً في السيرة النبويّة إن شاء الله.

وفي هذا الحديث بيان بعض سنن الملوك، وهي اتخاذهم السحرة والكهنة والمنجّمين ليستخدموهم ويستعينوا بهم على ممالكهم، ومن قرأ التاريخ رأى من ذلك العجائب، وحتى عصرنا هذا يوجد فيه عند بعض الدول سحرة وكهنة في المخابرات، ورغم ما يفعلون من الاحتياطات تنزل بهم نكسات ونكبات من غير أن يشعروا، وفيه فضل ذلك الراهب والغلام وأنهما كانا أفضل أهل زمانهما علماً وديناً، وفيه استجابة دعاء المؤمن المخلص الصالح حيث إن الغلام استجاب الله دعواته بتكرار في دعائه على الدابّة فأهلكها الله، ثم في دعائه على رفاقه في الجبل فكفاه الله شرّهم، ثم دعائه على الجماعة الذين صحبوه في الزورق فأغرقهم الله تعالى، وكان يدعو للمرضى وأهل العاهات فيشفون بإذن الله تعالى، وكل ذلك من الكرامات، وفيه فضل تسليم المؤمن نفسه للكافر والعدو ليقتله إذا كان في ذلك مصلحة عامّة للإسلام، فإن الغلام كان بإمكانه الفرار من ذلك الجبار، ولكنه آثر الموت وقدّم روحه ليبقى دين الله ظاهراً، وهذا ما حصل فإنه لما قتل آمن الناس وظهر دين الله تعالى، رغم ما وقع من الفتنة والامتحان، وكان في ذلك خير كبير.

وفي الحديث تكلم ذلك الصبي مع أمه ولولاه لهلكت مع الهالكين ورجعت عن دينها، لكن الله عزّ وجلّ أيّدها وأراد بها السعادة فثبتها بكلام ولدها، ولله في خلقه شؤون، فنسأله عزّ وجلّ أن يثبّتنا على ديننا القويم ويختم علينا بالسعادة والشهادة، آمين.

❋ ❋ ❋

ابتلاء الأبرص والأقرع والأعمى

{٥٩٣} - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «إن ثلاثةً من بني إسرائيل أبرصَ، وأقرعَ، وأعمَى، أراد الله تعالى أن يَبتليَهم، فبعث إليهم مَلَكاً فأتى الأبرص فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟ قال: لونٌ حَسَنٌ، وجِلْدٌ حسن، ويَذهب عني الذي قذرني الناس، قال: فمَسحه فذهب عنه قذَره، وأُعطِي لوناً حسناً، وجلداً حسناً، قال: فأيُّ المال أحب إليك؟ قال: الإبلُ، أو قال: البقر، فأُعطِي ناقة عُشَراء، فقال: بارك الله لك فيها، قال: فأتى الأقرع، فقال: أي: شيء أحبُّ إليك، قال: شعرٌ حسن، ويذهب هذا الذي قد قَذِرَني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه وأُعطي شعراً حسناً، قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر، فأُعطي بقرة حاملاً، فقال: بارك الله لك فيها، قال: فأتى الأعمى فقال: أي: شيء أحب إليك؟ قال: أن يردَّ الله تعالى إليَّ بصري، فأُبصِر به الناس، قال: فمسحه فرُدَّ إليه بَصرُه قال: فأيّ المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم، فأُعطي شاةً والداً فأَنْتَج هذان ووُلّد هذا قال: فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم، قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعتْ بي الحبالُ في سفري فلا بَلاغ لي اليوم إلا بالله ثُمَّ بِكَ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ عليه في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله، فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنت

كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، قال: وأتى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا، وردَّ عليه مثل ما ردَّ على هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت».

«قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فردَّ الله إليّ بصري فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أُجْهِدُكَ اليومَ شيئاً أخَذْتَه لله تعالى، قال: أمسك عليك مالك، فإنما ابتُلِيتُم فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك».

رواه البخاري في بني إسرائيل (٣١٢/٧، ٣١٤)، ومسلم في الزهد آخر الكتاب (٩٧/١٨، ١٠٠).

«قذرني الناس» - بكسر الذال - أي: كرهوني واشمأزوا من رؤيتي، «ناقة عشراء» - بضم العين وفتح الشين المعجمة مع المدّ - هي الحامل التي مرّ عليها في حملها عشرة أشهر، وهي من أنفس الأموال. «شاة والداً» أي: ذات ولد، «فأُنْتِجَ» بفتح الهمزة إذا كان للإنسان إبل حوامل تُنْتِجُ، ويصح أن يكون بضم الهمزة وكسر التاء، ومعناه: تولى النتج والإنتاج والمشهور في اللغة نتج بضم النون، «ووُلّد هذا» بتشديد اللام هو بمعنى الإنتاج، «الحبال» بكسر الحاء المهملة بعدها باء موحدة جمع حبل أي: الأسباب، «أتبلّغ به» أي: أتوصل به إلى مرادي، «لا أُجْهِدُك» بضم الهمزة وكسر الهاء أي: لا أشقّ عليك بردّ شيء تأخذه أو تطلبه من مال، والجهد بضم الجيم وفتحها الوسع والطاقة، والمشقّة، وفي رواية للبخاري: لا أحمدك من الحمد، ومعناه: لا أحمدك بترك شيء تحتاج إليه أو تريده.

هؤلاء النفر الثلاثة ابتلاهم الله عزّ وجلّ أولاً بعاهات مع فقر ثم امتحنهم بنعمة العافية والصحة وكثرة المال ثانياً، فكان منهم كافر النعمة، وهما الأبرص والأقرع، ومنهم الشاكر وهو الأعمى، فكان عاقبة الجاحدين البطرين المستكبرين ردهم إلى ما كانوا فيه من بؤس وفقر ومرض. أما

الشاكر وهو الأعمى، فقد أكرمه الله وأدام عليه نعمته مع ما ادّخر له من أجر ونعيم في الآخرة.

ومن فوائد الحديث وعبره ابتلاء الله عباده في هذه الحياة بالخير والشر ليظهر الشاكر من الكافر، والمطيع من العاصي، وفي القرآن الكريم: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، ومنها وجوب شكر النعمة وأن من شكرها أدامها الله عليه وزاده منها، وأن من كفرها فيوشك أن يسلبها ويفقدها سريعاً.

وفيه الحثّ على الرفق بالضعيف والمسكين ومساعدته بما يحتاج إليه من مرافق حياته، وفيه جواز قول الرجل: أنا بالله ثم بك، وما عليّ إلا فضل الله ثم فضلك ونحو ذلك، وأنه ليس من الشرك كما جاء في الحديث الصحيح: «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان**»، رواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن حذيفة، ويأتي في الأدب. وقال رجل للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: ما شاء الله وشئت، فقال: «**أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده**»، ويأتي أيضاً، وفي الحديث غير ذلك من الفوائد.

❋ ❋ ❋

ذكر أخبار العرب وأعلام بعض أهل الجاهلية: خَبَر سبأ

{٥٩٤} ـ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً سأل رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن سبَإٍ ما هو أرجُل أم امرأةٌ أم أرضٌ؟ فقال: «**بل هو رجل، ولد عشرة، فسكن اليمن منهم ستةٌ، وبالشام منهم أربعةٌ، فأما اليمانيون فمَذْحِجٌ، وكِندةٌ، والأزدُ، والأشْعَرِيُون، وأنمارٌ، وحِمْيَرٌ، عرباً كلها. وأما الشامية، فلخمٌ، وجُذامٌ، وعاملة، وغسَّان**».

رواه أحمد (٢٩٠٠) والحاكم (٤٢٣/٢، ٤٢٤) وصححه ووافقه

الذهبي والحديث حسن لشاهد له عن فروة بن مسيك رواه أبو داود (٣٩٧٨)، والحاكم (٤٢٤/٢).

الحديث يدلّ على أن سبأ رجل كان باليمن، فأنجب عشرة رجال أربعة هاجروا للشام، وستّة مكثوا باليمن، وأن هؤلاء هم أصول القبائل العربية، وكان سبأ ملوكَ اليمن قديماً، وكان تُبَّع وبِلْقِيسُ صاحبةُ سليمان عليه السلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتّساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تعالى إليهم الرسل فآمنوا بهم وأطاعوهم ما شاء الله ثم أعرضوا عَمَّا أُمروا به وبَطِرُوا نعمة الله تعالى عليهم فعوقبوا بإرسال السيل فخرّب ديارهم وأهلك أموالهم وتعطّلت زروعهم ويبست أشجارهم، فتفرّقوا في البلاد، وكان منهم الأوس والخزرج الذين نزلوا بيثرب ـ المدينة ـ وخزاعة الذين نزلوا ظاهر مكة المكرمة، ونزل آخرون الشام وغيرها، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٩].

❋ ❋ ❋

خَبَرُ تُبَّع

{٥٩٥} ـ عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «**لا تَسُبُّوا تُبَّعاً، فإنه كان قَدْ أَسْلَمَ**».

رواه أحمد (٣٤٠/٥) وهو وإن كان فيه ابن لهيعة، فإن له شاهدين **أحدهما**: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان تُبَّعٌ رجلاً صالحاً، ألا ترى أنّ الله عزّ وجلّ ذمَّ قومَه ولم يَذُمَّهُ»، ورواه الحاكم (٤٥٠/٢) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وهو وإن كان موقوفاً فإنه مرفوع حكماً.

ثانيهما: عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال: نهى رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الناس عن سبّ أسعد وهو تبع، قلنا: يا أبا عبدالله وما كان أسعد؟ قال: كان على دين إبراهيم صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم. رواه عبدالرزاق بسند لا بأس به إلى وهب، فهو مرسل حسن، وقال السهيلي: وروى معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «**لا تسُبُّوا أسعد الحميري فإنه أول من كسى الكعبة**»... لكنه لم يذكر له مخرجاً ولا عزاه لكتاب.

تبع - بضم التاء والباء المفتوحة المشدّدة آخره عين - قالوا: اسمه تبان أسعد أبو كَرِب، وكان من سلالة حِمْير بن سبإ القَحْطَاني، وكان من عظام الملوك الصالحين، ويقال: إنه عمر البيت الحرام وأول من كساه وبشّره بعض أحبار اليهود بالنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم فقال:

شَهِدتُ على أحْمَدَ أنَّهُ ... رَسولٌ مِن اللهِ بارِي النَّسَمْ
فلَوْ مُدَّ عُمْرِي إلى عُمْرِهِ ... لكُنتُ وَزِيراً لهُ وابْنَ عَمْ
وَجَاهَدْتُ بالسَّيْفِ أعْدَاءَهُ ... وفَرَّجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ هَمْ

قال السهيلي: وذكر ابن أبي الدنيا في «كتاب القبور» أن قبراً حفر بصنعاء، فوجد فيه امرأتان معهما لوح من فضّة مكتوب بالذهب، وفيه: هذا قبر لَمِيس، وحُبَّى ابنتي تبع ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

وكل هذا يدلُّ على أن تبعاً كان مؤمناً صالحاً، قال الزمخشي: هو تبع الحميري كان مؤمناً وقومه كافرين، ولذلك ذمّ الله تعالى قومه ولم يذمّه، وهو الذي سار بالجيوش وحَيَّر الحِيرَة وبنى سمرقند، وقيل لملوك اليمن التبابعة لأنهم يتبعونه.

وتبع وقومه هم المشار إليهم في سورة الدخان، بقوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

والآية الكريمة فيها إنذار لكفار قريش وإخبار بأن قوم تبع كانوا مجرمين، فأهلكهم الله تعالى كما أهلك من كان قبلهم من الكفرة... ثم تداول اليمن بعد التبابعة الحبشة والفرس... إلى أن جاء الإسلام.

* * *

خزاعة
عَمرو بن عامر الخُزَاعي

{٥٩٦} - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم: «**رأيت عَمْرو بنَ عامِر الخزاعي يَجُرُّ قُصْبَهُ في النار، كان أولَ من سَيَّبَ السَّوائب**».

رواه البخاري في التفسير (٣٥٣/٩)، ومسلم في الجنّة (١٨٨/١٧، ١٨٩)، والنسائي في الكبرى (٣٣٨/٦)، وفي رواية لأحمد ومسلم (١٨٨/١٧) «رأيت عمرو بن لُحَيّ بن قَمَعَة بن خِنْدَف أخا بني كعب هؤلاء يجرّ قصبه في النار».

لُحَي - بضم اللام وفتح الحاء - قمعة: فيه روايات أكثرها بفتحات، وخندف بكسر الخاء ثم نون ساكنة ودال مفتوحة، وقصبه - بضم القاف وسكون الصاد - هي الأمعاء، كان بيت الله تعالى ومكة المكرمة يلي أمورهما بنو إسماعيل، فتغلب عليهم جرهم فحكموا مكة وما والاها، ومكثوا على ذلك مدة طويلة ثم بغوا بمكّة وأكثروا فيها الفساد وألحدوا بالمسجد الحرام حتى ذكروا أن رجلاً منهم يقال له إسَافٌ ابن بغي وامرأة يقال لها نَائِلَةٌ بنت وائل زنيا في الكعبة فمسخهما الله حجرين فنصبهما الناس قريباً من البيت ليعتبروا بهما، فلما طال على ذلك المطال عبدا من دون الله في زمن خزاعة، فكانا صنمين منصوبين يقال لهما إساف ونائلة.

ولما أكثرت جرهم البغي بالبلد الأمين تمالأت عليهم خزاعة الذين كانوا حول مكّة المكرمة فاقتتلوا، فانتصر خزاعة وانهزم جرهم، فوليت

خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر، يقال: إنهم ملكوا البيت خمسمائة سنة، وكانوا على دين إبراهيم عليه السلام في تعظيم البيت والطواف به والحجّ والعمرة والوقوف على عرفات، ولكنهم غيّروا دين الله وعوجوا ملّة إبراهيم فأدخلوا فيها ما ليس منها، وكان أوّل من عبد الأصنام وأمر بعبادتها أبو خزاعة عمرو بن لحي فإنه ذهب في بعض أسفاره إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام، فطلب منهم أن يعطوه صنماً فأعطوه صنماً يقال له: هُبَلُ، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، وبذلك شاعت عبادة الأصنام بين العرب.

ولذا قال النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عنه: «**رأيته يَجُرُّ قُصْبَهُ**»، يعني: أمعاءه في النار، لأنه أوّل من سيّب السوائب للطواغيت وأول من عبد الأصنام وأمر بعبادتها.

فكان ملك خزاعة للبلد الأمين مشؤوماً على العرب كلهم، وأصبحت الأصنام والأوثان وعبادتها سائدة وتفنّنوا في اتخاذ الآلهة والشركاء حتى عبدوا الأحجار والتراب والأشجار وبعض الأطعمة، وأباحوا وحرّموا أشياء من عنديتهم حتى جاء دين الإسلام ونورُه، فأبطل كل ذلك وأباده وأشرق نور التوحيد على المعمورة وذهب الشرك والشركاء من بلاد العرب، وقد أخبر الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم عنهم بعدة مخازي وَجهَالاَتِ وضَلاَلاَتِ حتى قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إذا سَرَّكَ أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾، ذكره البخاري في التفسير.

* * *

عبدالله بن جُدْعَان

{٥٩٧} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قلتُ: يا رسول الله ابنُ جُدْعَان كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطْعِمُ المَسَاكِين، فهل ذلك

نافعُه؟ قال: «**لا يَا عَائِشَةُ إنَّهُ لم يقلْ يوماً رَبِّ اغفر لي خَطِيئَتِي يومَ الدِّين**».

رواه أحمد (٦/٩٣)، ومسلم في الإيمان من مات على الكفر لا ينفعه عمل (٣/٨٦).

ابن جدعان ـ بضم الجيم وإسكان الدال ـ اسمه عبدالله من بني تَيْم من أقرباء الصدّيق، وكان من رؤساء قريش، والكرماء الأجواد في الجاهلية، وكانت له جفنة عظيمة يأكل الناس منها وهم راكبون على جمالهم، وكان في بدء أمره فقيراً مُمْلِقاً شِرّيراً يُكْثِرُ الجناياتِ وسفكَ الدماء حتى أبغضه قومه وقبيلته وعشيرته وأهله حتى أبوه، فخرجَ ذات يوم في شعاب مكة هائماً حائراً، فرأى شقاً في جبل فظنّ أن يكون به ثعبان يلدغه فيموت فيستريح مما هو فيه، فقصده فإذا به يجد ثعباناً يخرج إليه ويثب عليه، فجعل يحيد عنه ويثب، فلما دنا منه إذا هو من ذهب له عينان من اليواقيت، فكسّره وأخذه ودخل الغار فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جرهم ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب فيه تاريخ وفاتهم ومدة ولايتهم، وإذا عندهم من الجواهر واللآلىء والذهب والفضّة شيء كثير، فأخذ منه حاجته ثم خرج وعلَّمَ باب الغار، ثم انصرف إلى قومه فأعطاهم حتى أحبوه وسادهم وجعل يطعم الناس وكلّما قلَّ ما في يده ذهب إلى ذلك الغار فأخذ منه حاجته ثم رجع، لكنه كان مشركاً وثنياً لم يعترف لله عزّ وجلّ بالواحدانية، ولا سأله يوماً ما من حياته أن يغفر خطاياه يوم القيامة، لأنه لم يكن يعتقد ذلك ولا يؤمن به رغم أنه كان يصل الرحم ويطعم الطعام المساكين، وكلا الخصلتين من مكارم الأخلاق العظيمة، فلو كان آمن لكان له شأن عند الله عزّ وجلّ، ولكن الجنّة لا يدخلها إلا المؤمنون الصادقون.

* * *

حاتم الطائي أحد أجواد العرب

{٥٩٨} ـ عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إن أبي كان يصل الرحم، ويَقْرِي الضَّيْف، ويفعل كذا، قال:

«إن أباك أراد شيئاً فأدرَكه»، وفي رواية: «طلب شيئاً فأصابَهُ».

رواه أحمد (٤/٢٥٨) وسنده لا بأس به.

يقري الضيف، القِرى ـ بكسر القاف ـ ما يقدم أولاً للضيف، قوله: أراد شيئاً فأدركه أو أصابه معناه: أنه قصد بذلك الذكر والمدح والشهرة، فأدرك ذلك.

كان حاتم الطائي جواداً ممدوحاً بذلك في الجاهلية، وله في ذلك مآثر وأمور عجيبة وأخبار مستغربة في كرمه، وأصبح مضرِبَ المثل في الجود والكرم.

ومن أخباره العجيبة في ذلك أنه وفد على النعمان بن المنذر أحد الملوك، فأكرمه وأدناه ثم زوَّده عند انصرافه جَمَلَيْن ذهباً وفضّة... فرحل فلمّا أشرف على أهله تلقّته أعاريب طيء، فقالت: يا حاتم أتيت من عند الملك، وأتينا من عند أهالينا بالفقر، فقال لهم حاتم: فخذوا ما على الجملين من ذهب وفضّة ووزّعوه، فأخذوا ذلك واقتسموه فيما بينهم.

لكن كل ذلك لا ينفعه ولا يغني عنه شيئاً لأنه لم يرد بذلك وجه الله تعالى، ولم يكن يؤمن بالبعث كعامة العرب، وكان قصده بالإطعام الذكر الجميل والمفاخرة والرئاسة... توفي والنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم في طفولته، ووفد ولده عدي على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وحدّث عنه، وهو مشهور بالكرم أيضاً كوالده ويأتي خبره في السيرة.

* * *

زيد بن عَمرو بن نُفَيل وتَحنُّثُهُ في الجاهليّة

{٥٩٩} ـ عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لَقِي زيدَ بن عمرو بن نُفَيل بأسْفَلِ بَلْدَحَ قبل أن ينزل

على النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم الوحيُ، فقُدِّمَتْ إلى النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُفْرَةٌ فأبَى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله تعالى عليه، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاةُ خلقَها الله تعالى وأنْزَل لها من السَّمَاءِ الماءَ وأنْبَت لها من الأرض، ثم تدعونها تذبحونها على غير اسم الله تعالى، إنكاراً لذلك، وإعظاماً له.

قال موسى ـ يعني ابن عقبة ـ: حدّثني سالم بن عبدالله ولا أعلمه إلا تُحدِّثَ به عن ابن عمران زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعُه، فلقي عالماً من اليهود فسألهم عن دينهم، فقال: إني لعلّي أن أدِين دِينَكُم فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفِرُّ إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله تعالى شيئاً أبداً وأنّى أستطيعه؟ فهل تدلّني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانيّاً ولا يعبد إلاّ الله، فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بِنَصِيبك من لعنة الله، قال: ما أفِرُّ إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنّى أستطيع، فهل تدلّني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلاّ الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللّهمّ إني أشهد أني على دين إبراهيم عليه السلام.

رواه البخاري في المناقب (٨/١٤٢، ١٤٥).

{٦٠٠} ـ وعن أسماء رضي الله تعالى عنها قالت: رأيت زيدَ بن عَمْرو بن نُفَيْل قائماً مُسْنِداً ظَهْره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يُحْيِي المَوْءُودة يقول للرجل: إذا أراد أن يقتل ابنتَه لا تَقْتُلْها أنا أكْفِيكَ مَؤُونَتَها فيأخذُها فإذا تَرَعْرَعَتْ قال لأبيها: إن شِئْتَ دَفَعْتُها إليك، وإن شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَؤُونَتَها.

رواه البخاري في المناقب أيضاً (١٤٥/٨) معلقاً عن الليث مجزوماً به، وذكر الحافظ من وصله في الفتح، فانظر ذلك إن شئت آخر المناقب.

زيد بن عمرو هذا هو والد سعيد بن زيد أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وكان زيد ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وكان ممن اعتزل المجتمع الجاهلي في عباداته وعوائده وطلب التوحيد وخلع الأوثان وجانب الشرك، وكان يقول: إني خالفت قومي واتّبعت ملّة إبراهيم وإسماعيل وما كانا يعبدان، وكانا يصلّيان إلى هذه القبلة وأنا أنتظر نبياً من بني إسماعيل يُبْعَثُ ولا أُراني أُدرِكُه، وأنا أُومِن به وأُصَدِّقُه، وأشهد أنه نَبِيٌّ، قال عامر بن ربيعة: قال لي زيد بن عمرو: وإن طالت بك حياة فأقرأه مني السلام، قال عامر: فلما أسلمتُ أعلمتُ النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بخبره، قال: فردّ عليه السلام وترحم عليه قال: ولقد رأيته في الجنّة يَسْحَبُ ذيولاً، رواه ابن سعد في طبقاته.

وروى البزار والطبراني من حديث سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنهما، قال: خرج زيد بن عمرو وورقة بن نوفل يطلبان الدين حتى أتيا الشام، فتنصّر ورقة وامتنع زيد فأتى الموصل، فلقي راهباً فعرض عليه النصرانية فامتنع، وذكر الحديث نحو الحديث المذكور لابن عمر، وفيه: قال سعيد بن زيد: فسألت أنا وعمر رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن زيد فقال: **«غفر الله تعالى له ورحمه فإنه مات على دين إبراهيم عليه السلام»**.

وذكر ابن إسحٰق أن نفراً من قريش زيد بن عمرو، وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث بن أسد، وعبدالله بن جحش، حضروا قريشاً عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: تصادقوا وليَكْتُمْ بعضكم على بعض، فقال أحدهم: تعلَمُنَّ والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين إبراهيم وخالفوه ما وَثَنٌ يُعْبَدُ؟ لا يضرّ ولا ينفع؟! فابتغوا لأنفسكم، فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل الكتاب من اليهود والنصارى والملل كلها الحنيفية دين

إبراهيم. فأمّا ورقة بن نوفل فتنصّر واستحكم في النصرانية وابتغى الكتب من أهلها، حتى علم علماً كثيراً من أهل الكتاب، ولم يكن فيهم أعدل أمراً وأعدل ثباتاً من زيد بن عمرو اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلّها إلا دين الحنيفية دين إبراهيم يوحد الله ويخلع من دونه ولا يأكل ذبائح قومه، فأذاهم بالفراق لما هم عليه، قال: وكان الخطاب قد آذاه أذى كثيراً حتى خرج منه إلى أعلى مكة ووكل به الخطاب شباباً من قريش وسفهاء منهم، فقال: لا تتركوه يدخل فكان لا يدخل مكة إلا سراً وأخرجوه كراهية أن يُفسد عليهم دينهم أو يتابعه أحد إلى ما هو عليه. وقوله في حديث ابن عمر: فقُدِّمت إلى النَّبيّ سفرةٌ؛ هذه رواية الأكثر. وفي رواية: فقدم إليه النبيُّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُفرةً، فعلى الرواية الأُولى لا إشكال في الحديث، وعلى الثانية يأتي إشكال عظيم وهو كيف يقدم النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سفرة لحم لزيد بن عمرو فيجيبه بأني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، فإن ذلك يقتضي أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم كان يأكل مما يذبح على الأنصاب، ويأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، وقد أجاب عن هذا الإشكال القاضي عياض وابن بطال والخطابي رحمهم الله تعالى وأثابهم فرجح القاضي عياض رواية الأكثر لأنها خالية من الإشكال، وجمع ابن بطال بين الروايتين فقال: كانت السفرة لقريش قدَّموها للنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فأبَى أن يأكل منها فقدمها النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لزيد بن عمرو فأبى أن يأكل منها، وقال مخاطباً لقريش أصحاب السفرة: إنا لا نأكل ما ذبح على أنصابكم. أما الخطابي ففصَّل، فقال: كان النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم لا يأكل مما يذبحون عليها للأصنام، ويأكل ما عدا ذلك، وإن كانوا لا يذكرون اسم الله عليه لأن الشرع لم يكن نزل بعدُ، بل لم ينزل الشرع بمنع أكل ما لم يذكر اسم الله عليه إلا بعد المبعث بمدة طويلة.

وفي الحديث أيضاً بيان أن من تنصّر أو تهوّد لا بدّ وأن يأخذ نصيباً من لعنة الله تعالى وغضبه لما وقع فيهما من التحريف والتزوير...

وفيه لطف كبير بزيد هذا حيث وفّقه الله تعالى في أيام الجاهلية الجهلاء لترك الأوثان والشركيات، وهداه تعالى لطلب الدين الحق حتى وُفِّقَ لاعتناق مِلّة أبينا إبراهيم، وهو الدين الحنيفي المائل عن جميع الأديان الباطلة، فلا هو يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا وثنيّة، بل هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لخليله إبراهيم وسار عليه جميع أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وبذلك يعرف فضل الله العظيم ومنّته على زيد بن عمرو، وبالتالي منّته وفضله علينا معشر المسلمين من أمّة خير العباد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فالحمد لله على ذلك حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يحبّ ويرضى.

وفيه ما كان عليه زيد من إنقاذ البنات من الوأد الذي كان سائداً في الجاهلية، وَوَأْدُ البنات مشهور معروف، ويأتي الكلام عليه في موضع خاص إن شاء الله تعالى.

والحديث يدلّ على أن زيداً أدرك النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم ولقيه، لكن ذلك قبل مبعثه صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم، فإنه توفّي وللنبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم خمس وثلاثون سنة، وجاء أنه يبعث أمة وحده، انظر مجمع الزوائد (٤١٦/٩)، فإن فيه حديثاً بذلك عن جابر سنده حسن.

* * *

ورقة بن نوفل

{٦٠١} ـ عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن خديجة سألت رسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم عن ورقةَ بن نوفل، فقال: **«قد رأيتُه في المَنَامِ فرأيتُ عليه ثيابَ بيَاضٍ، فأحْسِبُه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثيابُ بياضٍ»**.

رواه أحمد (٦٥/٦) بسند حسن صحيح.

{٦٠٢} ـ وعن أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنهما أن النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم سُئِل عن ورقة بن نوفل، فقال: **«يبعث يوم القيامة أمّة واحدَه»**.

أورده الهيثمي في المجمع (٤١٦/٩)، وعزاه للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

ورقة هذا هو ابن نوفل بن أسد القرشي ابن عمّ خديجة وهو الذي تنصّر في الجاهلية، وقرأ كتبهم وتعبّد لله على دين عيسى عليه السلام، وترك عبادة الأوثان، وهاجر الشركيات، وهو الذي جاء ذكره في حديث بدء الوحي الذي قال لرسول الله صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بعد ما حدّثه بما حصل له ورأى بغار حراء: يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك... الحديث تقدم في التفسير ويأتي في السيرة. وهذا يدلّ على أنه آمن به وصدّقه لأنه عرف أنه نبيّ هذه الأُمّة بما كان عنده من البشارة الموجودة في الإنجيل، ولذلك أخبر النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم بأنه من أهل الجنّة، واستدلّ بذلك على رؤيته إياه في المنام بلباس بياض، وهذا اللباس لا يكون لغير أهل الجنّة.

وقوله في حديث أسماء إنه يبعث أمّة وحده لأنه لم يكن أحد في الجاهلية عالماً بدين النصرانية متمسّكاً بها على الحقيقة سواه، توفي بعد البعثة بقليل؛ لما جاء في حديث بدء الوحي: فلم يلبث أن توفي.

* * *

نادرة غريبة فيها عبرة

نختم هذه الأخبار بنادرة عجيبة وقعت أيام الجاهلية:

{٦٠٣} ـ أخرج البخاري في أيام الجاهلية من صحيحه (١٦٠/٨) عن عَمْرو بن ميمون رحمه الله تعالى قال: رأيت في الجاهلية قِرْدَةً اجتمع عليها قِرَدَةٌ قد زَنَتْ فرجمُوها فرجمْتُها معهم، وذكر الحافظ في الفتح أن

الإسماعيلي أخرجه في مستخرجه على صحيح البخاري عنه قال: كنت في اليمن في غنم لأهلي وأنا على شَرَف، فجاء قِرْدٌ مع قِرْدَةٍ فتوسَّد يدها فجاء قِردٌ أصغرُ منه فغمَزَها فسلَّت يدَها من تحتِ رأس القرد الأول سلاًّ رفيقاً وتبعتْه فوقع عليها وأنا أنظر، ثم رجعتْ فجعلت تُدْخِل يدَها تحتَ خدِّ الأول برفْقٍ فاستيقظ فزِعاً فشمَّها فصاح، فاجتمعت القرود فجعل يصيحُ ويُومِىءُ إليها بيده، فذهب القرود يُمْنَةً ويُسْرَةً، فجاءوا بذلك القرد أعْرِفُه فحَفَروا لهما حُفرة فرجموهما، فلقد رأيت الرجم في غير بني آدم. هذه أُعجوبة يجب أن يعتبر بها حكام المسلمين الذين رفضوا تنفيذ أحكام الله عزّ وجلّ وعطّلوها بين عباده وأصبحوا أخسّ وأسقط من القرود، فالقرود يرجمون الزناة والزواني ويغارون على إناثهم، وهم حيوان ليس عليهم تكليف، ونحن معشر بني آدم وخاصة الأُمّة المحمدية أصبحت القردة أحسن حالاً منّا وأغير على إناثها وأحفظ لكرامتها وأصلح لمجتمعها، ممن كرَّمهم الله تعالى بالعقل والإدراك والبيان، وجعلهم في أحسن تقويم وأجمل صور.

فهذا من عجائب النوادر التي يجب أن نعتبر بها، لكن لا حياة لمن تنادي، فالقوم صمٌّ بكمٌ عمي، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وزوجه وصحبه وحزبه.

* * *

في هذه الكتب: الإمارة والخلافة والقضاء والدماء والجنايات والحدود والديات والمحاربون والجهاد والتاريخ والأنبياء من الأحاديث الزائدة على الصحيحين **٢٤٥** حديثاً والباقي في الصحيحين أو في أحدهما.

ويليه السيرة النبوية العطرة.

انتهى والحمد لله

الفهرس

الموضوع	الصفحة
كتاب التاريخ ويشمل بَدْءَ الخلقِ والأنبياء والسّيرة النبوية والمَناقب والفضائل	٣٠٥
الله خالق كل شيء خلق الماء والعرش والقلم والسماء والأرض... ...	٣٠٥
خلق الزمان والسنين والأشْهُر والليل والنهار	٣٠٨
خلق الجبال والحديد والنار والماء والريح	٣٠٩
خلق الجنّة والنار	٣٠٩
خلق الملائكة والجان وآدم	٣١٢
ذكرُ الجنّ وإبليس	٣١٥
خلق آدم عليه السلام	٣١٨
الخلق العام للمخلوقات الحية وغيرها	٣١٩
الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ	٣٢١
كتاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام	٣٢٣
عدد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام	٣٢٤
دين الأنبياء واحد	٣٢٥
كان الأنبياء يبعثون بلغات أممهم	٣٢٥
خَلْقُ آدم عليه السلام وما يَتَعَلَّقُ به	٣٢٦
فوائد تتعلق بسيدنا آدم عليه السلام	٣٣٧
قصة هابيل وقابيل ابني آدم	٣٣٩
إدريس عليه السلام	٣٤١

الموضوع	الصفحة
نوح عليه السلام	٣٤٢
السور التي ذكرت قصة سيدنا نوح عليه السلام	٣٤٥
بعض ما يؤخذ من القصة من الفوائد	٣٤٩
أولادنا سيدنا نوح ووصيته لولده	٣٥٠
هود عليه السلام	٣٥٢
من فوائد قصة هود مع قومه	٣٥٨
خاتمة هامة	٣٥٩
سيدنا صالح عليه السلام	٣٦٠
من فوائد قصة صالح عليه السلام	٣٦٥
سيدنا إبراهيم خليل الرحمٰن صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبيّنا وعلى جميع الأنبياء	٣٦٦
إبراهيم أكرم الناس وأنه خليل الله	٣٦٧
من صفاته وأنه أول من اختتن	٣٦٨
إبراهيم ووالده يوم القيامة	٣٦٩
إبراهيم وصورته داخل الكعبة يستقسم	٣٦٩
قصته مع الطاغية وشأن سارة وهاجر	٣٧٠
قصة إحياء الطيور طمأنة لقلبه	٣٧١
كل الحيوانات كن في صف إبراهيم إلا الوزغ	٣٧٢
هجرته إلى مكة بهاجر وابنها إسماعيل عليهم الصلاة والسلام	٣٧٣
الكعبة أول مسجد وضع في الأرض	٣٧٧
إبراهيم عليه السلام خير البرية	٣٧٧
بسط قصة الخليل عليه السلام	٣٧٧
مناظرة الخليل مع الطاغية النمروذ	٣٨٢
تحطيم الخليل للأصنام وإلقاؤه في النار	٣٨٢
هجرة الخليل من العراق إلى فلسطين	٣٨٥
ولادة إسماعيل من هاجر عليهما السلام	٣٨٦
مهاجرة إبراهيم بهاجر وابنها إسماعيل إلى مكة	٣٨٧

الموضوع	الصفحة
رؤيا إبراهيم ذبح ولده إسماعيل عليهما السلام	٣٨٨
بناء بيت الله الحرام	٣٨٨
وفاة الخليل وقبره عليه السلام	٣٩٠
ثناء الله على الخليل والإشادة به	٣٩١
إسماعيل عليه الصلاة والسلام	٣٩٣
من فوائد قصة إبراهيم وسارة وهاجر وإسماعيل عليهم الصلاة والسلام	٣٩٥
سيدنا لوط عليه السلام	٣٩٨
من فوائد قصة لوط عليه السلام	٤٠٤
إسحٰق يعقوب يوسف عليهم الصلاة والسلام	٤٠٥
من فوائد وعبر قصتي إسحاق ويعقوب عليهما السلام	٤٠٨
يوسف عليه السلام	٤٠٩
بداية قصة يوسف عليه السلام	٤١٠
نهاية القصة	٤١٦
فوائد وعبر من قصة يوسف عليه السلام	٤١٧
خاتمة	٤٢٠
سيدنا شعيب عليه السلام	٤٢٠
من فوائدها	٤٢٢
نبي الله أيوب عليه السلام	٤٢٣
من فوائد قصة أيوب عليه السلام	٤٢٦
يونس عليه السلام	٤٢٨
من فوائد هذه القصة	٤٣١
موسى وهٰرون عليهما السلام	٤٣٤
ابتلاء بني إسرائيل بذبح غلمانهم وإبقاء إناثهم	٤٣٨
موسى في رضاعه وإيوائه إلى قصر فرعون	٤٣٨
تربية موسى وبلوغه أشدّه وإيتاؤه الحكم والعلم وقصته مع الإسرائيلي والقبطي	٤٤٠
افتضاح أمر موسى والتآمر عليه وخروجه من المدينة خائفاً داعياً ربه	٤٤٠
هجرة موسى إلى أرض مدين وإقامته عند الشيخ يرعى له غنمه ليزوجه ابنته	٤٤١

الموضوع	الصفحة
رجوع موسى من مدين وتَكَلُّم الله معه بجانب الطور الأيمن	٤٤٣
رسالة موسى وهٰرون عليهما السلام	٤٤٥
المحاورة التي دارت بين موسى عليه السلام وبين فرعون في شأن الربوبية ورسالة موسى عليه السلام	٤٤٧
ظهور معجزات موسى عليه السلام وإيمان السَّحرة	٤٥٠
إصرار فرعون وقومه على طغيانهم وإرسال أنواع من العذاب عليهم والانتقام منهم لعلهم يرجعون	٤٥٣
خروج موسى ببني إسرائيل من مصر وهلاك فرعون وقومه بالغرق في البحر	٤٥٤
توجه موسى ببني إسرائيل إلى فلسطين وتمرّدهم عليه وما وقع له ولهم من عجائب في التيه «بنو إسرائيل يسألون ربهم أن يجعل لهم صنماً»	٤٥٧
تيهان بني إسرائيل في الصحراء عقاباً لهم لعصيانهم نبيّهم	٤٥٨
تفجير العيون لبني إسرائيل باستسقاء موسى	٤٦٠
تظليلهم بالغمام والإنعام عليهم بالمنّ والسلوى	٤٦١
مَلَلُ بني إسرائيل من أكل اللحم والعسل وطلبهم البقولات ونحوها	٤٦٢
موعد لموسى مع ربّه ليعطيه التوراة وما صدر من بني إسرائيل من فتنتهم بعبادة العجل في غيبته	٤٦٢
بنو إسرائيل يعبدون العجل	٤٦٣
اختيار موسى من قومه سبعين رجلاً ليذهب بهم لجبل الطور ليقدموا طاعة الله والتوبة مما فعلوا ثم سؤالهم رؤية الله تعالى وصعقهم وإحياؤهم	٤٦٥
رفع جبل الطور فوقهم لامتناعهم من أخذ التوراة	٤٦٦
إذاية بني إسرائيل موسى ورميهم إياه بالأدرة	٤٦٦
قصة بني إسرائيل في البقرة	٤٦٧
قصة موسى مع الخضر عليهما السلام	٤٦٨
من فوائد قصة موسى وهارون وعِبَرها	٤٦٩

الموضوع	الصفحة
يوشع بن نون عليه السلام	٤٨٠
قصة داود عليه السلام	٤٨٥
تفصيل أخبار داود عليه السلام	٤٨٨
فتنة داود عليه السلام	٤٩٢
من عبر هذه القصة وفوائدها	٤٩٤
موت داود عليه السلام	٤٩٥
قصة سليمان بن داود عليهما السلام	٤٩٦
تسخير الريح والشياطين لنبيّ الله سليمان عليه السلام	٤٩٨
سليمان عليه السلام والخيل الجياد	٥٠١
سليمان وداود يحكمان	٥٠٢
فتنة سليمان عليه السلام	٥٠٣
سليمان عليه السلام والهدهد وملكة سبأ	٥٠٤
رسالة من سليمان إلى بلقيس	٥٠٥
عرش بلقيس يُؤْتَى به من اليمن إلى فلسطين في طرفة عين	٥٠٧
بلقيس حاضرة عند سليمان مسلمة تشاهد آيات الله وعظيم قدرته	٥٠٨
وفاة سليمان عليه السلام	٥٠٩
من فوائد قصة سليمان عليه السلام	٥١٠
قصة زكرياء ويحيىٰ عليهما السلام	٥١٦
بسط القصة	٥١٨
موت زكرياء ويحيىٰ عليهما السلام	٥٢٠
من فوائد هذه القصة وعبرها	٥٢١
قصة مريم وولادة عيسى عليهما السلام	٥٢٤
الملائكة تبشّر مريم بالاصطفاء	٥٢٥
بشارة مريم بعيسى الوجيه المقرب الصالح المتكلم في المهد	٥٢٧
جبريل يأتي مريم في خلوتها ويبشرها بالغلام الزكي وينفخ في جيب درعها	٥٢٨
حمل مريم بعيسى وولادته	٥٣٠

الموضوع	الصفحة
اليهود يرمون مريم بالزنا وعيسى يتكلم في المهد صبياً بلسان فصيح	٥٣١
قصة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام	٥٣٣
رسالة عيسى وإيتاؤه الإنجيل	٥٣٤
عيسى من أولي العزم ومن جملة الأنبياء الذين أوحى إليهم	٥٣٥
عيسى عليه السلام يخاطب بني إسرائيل بأنه رسول الله إليهم ويبشر برسولنا أحمد صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم	٥٣٧
الحواريون أنصار عيسى عليه السلام	٥٣٨
تذكير الله تعالى عيسى بنعم الله وبيان معجزاته	٥٣٩
معجزة نزول المائدة من السماء	٥٤٠
التنديد بالنصارى في ادعائهم أُلوهية عيسى والتثليث وبيان أن الله تعالى واحد وأن عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته	٥٤٢
نهاية أمر عيسى ورفعه والردّ على اليهود والنصارى في قتله وصلبه	٥٤٤
من فوائد قصة مريم وعيسى وعبرها	٥٤٦
ذكر بعض أخبار بني إسرائيل وغيرهم ممن جاءوا بعد المسيح عليه السلام	٥٥١
رجل يغفر الله تعالى له لخوفه عند موته	٥٥٢
الكفل المذنب والمرأة المضطرة	٥٥٤
رجل يغفر الله له ويسامحه لإنظاره المُوسِر وتجاوزه عن المعسر	٥٥٥
زانية يغفر الله لها لإحسانها إلى كلب	٥٥٦
رجل قتل نفسه فحرم الله عليه الجنّة	٥٥٧
رجل يسامحه الله وقد قتل مائة نفس	٥٥٨
العابد والعاصي المتآخيان	٥٦٠
الأمانة وحسن المعاملة والتخلق بالورع	٥٦١
دخلت امرأة النار في هرة	٥٦٢
الملهمون والمحدَّثون	٥٦٣
أصحاب الغار الذين انطبق عليهم بصخرة	٥٦٥
جريج الراهب وقصته مع المومسة والمتكلمون في المهد	٥٦٧
قصة الساحر والراهب والغلام	٥٧٠

الموضوع	الصفحة
ابتلاء الأبرص والأقرع والأعمى	٥٧٤
ذكر أخبار العرب وأعلام بعض أهل الجاهلية خبر سبإ	٥٧٦
خَبَرُ تُبَّع	٥٧٧
خزاعة عَمْرو بن عامر الخُزَاعي	٥٧٩
عبدالله بن جُدْعَان	٥٨٠
حاتم الطائي أحد أجواد العرب	٥٨١
زيد بن عَمْرو بن نُفَيل وتَحنُّثُهُ في الجاهليّة	٥٨٢
ورقة بن نوفل	٥٨٦
نادرة غريبة فيها عبرة	٥٨٧
الفهرس	٥٩٩